□ علوّ همَّة الخلفاء والملوك □

اعلم يا أخي أن السلطان زمام الأُمور ، ونظام الحقوق ، وقِوَام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا ، وهو حِمَى الله في بلاده ، وظلّه الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

وفي حديث أبي هريرة الذي ذكرناه من قبل ، قال رسول الله ﷺ : « سبعة يُظلُّهم الله في ظلّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظلّه : إمام عادل ..... » الحديث .

وعن سلمان قال : « سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّ عرشه يوم القيامة : رجلٌ إذا ذَكَرَ الله خاليًا فاضتْ عيناه ، ورجلٌ أفنى شبابَهُ ونشاطَهُ في عبادةِ الله ، ورجلٌ قلبُهُ معلَّق بالمساجد من حُبِّها ، ورجل تصدَّق بيمينه ، وكان يُخفيها من شماله ، ورجلان التقيا ، فقال كلُّ واحدٍ منهما : إني أحبُّك في الله . تصادرا على ذلك . ورجل أرسلت إليه امرأةٌ ذات منصبٍ تدعوه إلى نفسها ، فقال : إني أخاف الله . وإمام مقتصد »[1].

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن المُقسطين عند الله يوم القيامة ، على منابر من نور ، عن يمين العرش ، هم الذين يعدلون في حُكمهم وأهليهم وما وُلُّوا »[2].

وقال ﷺ : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتُصلُّون عليهم ويُصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم

(١) إسناده حسن : حسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢ / ٤٤ ، أخرجه سعيد بن منصور في سننه .
(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي .

ويلعنونكم »[(١)].

قالت الحكماء : إمامٌ عادل ، خير من مطرٍ وابِل ، وإمامٌ غشوم ، خيرٌ من فتنةٍ تدوم ، ولَمَا يَزَعُ الله بالسلطان أكْثَرُ مما يزع بالقرآن .

فحقّ على من قلّده الله أزِمّة حُكمه ، وملّكه أُمور خلْقه ، واختصَّهُ بإحسانه ، ومكَّن له في سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيَّته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه الله عز وجل من الكرامة ، وأجرى له من أسباب السعادة ، قال الله عز وجل : ﴿ **الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبة الأُمور** ﴾ [الحج : ٤١] .

قال كعب الأحبار : مَثَلُ الإسلام والسلطان والناس ، مَثَلُ الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد ؛ فالفسطاطُ: الإسلامُ ، والعمود : السلطان ، والأطناب والأوتاد : الناس ، ولا يصلح بعضها إلا ببعضٍ .

لا يصلُحُ الناسُ فوضى لا سَرَاةَ لهمْ ... ولا سَـراة إذا جُهَّالُهُم ســادوا
والبيت لا يُبْتَـنَى إلَّا له عَمَـدٌ ... ولا عمــادَ إذا لم تُرْسَ أوتــادُ
فــإن تجمَّــعَ أوتادٌ وأعمــدةٌ ... يومًا فقد بلغوا الأمر الذي كادُوا

وصلاح الرعية بصلاح الإمام .

قالت الحكماء : الناس تَبَعٌ لإمامهم في الخير والشر .

وقال ابن القيم : أعمالكم عُمَّالكم ، فإن وُلَاتنا من جنس أعمالنا .

وقال أبو حازم الأعرج : الإمام سوق ، فما نفقَ عنده جُلِب إليه .

وقالوا : إذا صلُحتِ العينُ صلحتْ سواقيها .

---

(١) رواه مسلم عن عوف بن مالك .

ولا سلطان إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وتواضُع الإمام في شرفه أكبرُ من شرفه ، وأفضلُ الرجال - كما قال عبد الملك بن مروان - من تواضَعَ عن رِفعة ، وزهد عن قُدرة ، وأنصفَ عن قوة .

قالت الحكماء : أسْوَسُ الناس لرعيَّته ، من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبها بخواطرها ، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة .

والملك والعدل أخَوَان لا غِنَى بأحدهما عن الآخر ، فالمُلْك أُسٌّ والعدل حارس ، والبناء ما لم يكن له أُسّ فمهدوم ، والملك ما لم يكن له حارس فضائع .

وخير الملوك من إذا ولي لم يُطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه ، فهو غائبٌ عنهم شاهدٌ معهم ، فالمحسن راجٍ والمسيء خائف .

ولا يصلح لهذا الأمر إلا اللَّيِّن من غير ضَعْف ، والقويّ من غير عنف .

قال سعيد بن سُويد بحمص : أيـُّها الناس ، إن للإسلام حائطًا منيعًا ، وبابًا وثيقًا ، فحائط الإسلام الحقّ وبابُه العدل ، ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتدّ السلطان ، وليست شدَّة السلطان قَتْلًا بالسيف ولا ضرْبًا بالسوط ، ولكن قضاءً بالحقّ وأخْذًا بالعدل .

كتب عُمرُ بن عبد العزيز - رضي الله عنه - لمَّا وَلِي الخلافةَ إلى الحسن بن أبي الحسن البَصريّ ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله : اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كلّ مائِلٍ ، وَقَصْدَ كلِّ جائر ، وَصَلَاحَ كلّ فاسد ، وقُوَّة كلّ ضعيف ،

ونَصَفَة كلِّ مظلوم ، ومَفْزَع كلّ مَلْهُوف . والإمامُ العَدْل - يا أمير المؤمنين - كالراعي الشَّفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطْيَبَ المراعي ، ويذُودها عن مَراتع الهَلَكَة ، ويحميها من السّباع ، ويُكنُّها من أذى الحَرّ والقُرّ . والإمام العَدْل - يا أمير المؤمنين - كالأب الحاني على ولده ، يَسعى لهم صِغارًا ، ويُعَلِّمُهم كبارًا ؛ يكتسب لهم في حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العَدْل - يا أمير المؤمنين - كالأُمّ الشفيقة البرَّة الرفيقة بولدها ، حَمَلَتْه كُرْهًا ، ووضعتْه كُرْهًا ، وربَّتْه طِفْلًا ، تسهر بِسَهَرِه ، وتَسْكُن بسُكونه ، تُرضعه تارةً وتَفْطِمه أُخرى ، وتَفْرح بعافيته ، وتَغْتَمّ بشِكايَتِه . والإمام العدْل - يا أمير المؤمنين - وَصِيُّ اليتامى ، وخازِن المساكين ، يُربِّي صغيرَهم ، ويَمُون كبيرَهم . والإمام العدل - يا أمير المؤمنين - كالقَلْب بين الجوارح ، تَصْلُح الجوارح بصلاحه ، وتَفْسُد بفساده . والإمام العدْل - يا أمير المؤمنين - هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسْمع كلام الله ويُسْمعهم ، وينظُر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويقُودهم . فلا تكُن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله عزّ وجلّ كعَبْدٍ ائتمنه سيّدهُ ، واستحفَظَهُ مالَه وعيالَه ، فبدَّد المال وشرَّد العيال ، فأفقر أهلَهُ وفرَّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين ، أنَّ الله أنزل الحُدود ليزجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها مَن يَلِيها ؟! وأنَّ الله أنزل القِصاصَ حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم مَن يَقْتصّ لهم ؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده ، وَقِلَّة أشياعك عنده ، وأنصارِك عليه ، فتزوَّدْ له ولما بعده من الفَزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أنّ لك منزلًا غيرَ منزلك الذي أنت فيه ، يطُول فيه ثواؤك ، ويُفارقك أحبّاؤك ، يُسلِمونك في قَعْره فريدًا وحيدًا ، فتزوَّد له ما يَصْحبك ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٦] . واذكر يا أميرَ المؤمنين ﴿ **إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا**

فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات : ٩ ، ١٠] . فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحْصاها . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَل قَبْل حُلول الأجَل ، وانقطاع الأمل ؛ لا تحكُمْ يا أمير المؤمنين في عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تَسْلُك بهم سبيل الظالمين ، ولا تُسلِّط المُستكبرين على المُسْتَضْعَفِين ؛ فإنهم لا يَرْقُبون في مُؤْمنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّة ، فَتَبُوء بأَوْزَارِك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتَحْمِل أثقالك وأثقالًا مع أثقالك . ولا يغُرَّنَّك الذين يَتَنَعَّمون بما فيه بؤسُك ، ويأكلون الطَّيِّبات في دُنْياهم بإذهاب طَيِّباتك في آخرتك . ولا تنظُر إلى قُدْرتك اليومَ ، ولكن انظُر إلى قدرتك غدًا وأنت مَأسُور في حَبائل الموت ، ومَوْقوف بين يدَي الله في مجمعٍ من الملائكة والنبيِّين والمرسلين ، وقد عَنَتِ الوجوه للحيّ القيّوم . إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلُغ بعظتي ما بلغه أُولو النُّهَى من قَبْلي ، فلم آلُك شفقةً ونُصحًا ، فأنزِلْ كتابي إليك كمُداوي حبيبِه ، يسقيه الأَدويةَ الكريهة ، لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1].

* * *

(١) العِقْد الفريد صـ ٣٥ - ٣٦ .

□ الصِّدِّيق « ثاني اثنين » رضي الله عنه □

عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس في الناس أحدٌ أمَنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن قحافة ، ولو كنتُ مُتَّخِذًا من الناس خليلًا لَاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا ، ولكنْ خُلَّة الإسلام أفْضَل ، سدُّوا كلَّ خَوْخَةٍ في هذا المسجد غير خَوْخةِ أبي بكر »[(١)].

وهو أحبُّ الناس إلى رسول الله ﷺ وأخْيَرُ الناس ، بشهادة عليٍّ - رضي الله عنه - والصحابةِ .

عن محمد بن الحَنَفِيَّة قال : قلتُ لأبي : أيّ الناس خيرٌ بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر . قلت : ثم مَنْ ؟ قال : ثم عمر . وخشيتُ أن يقول : عثمان ، قلتُ : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجُلٌ من المسلمين .

وقد واسى الصّدّيق رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ بماله ونفسه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نفعني مالٌ قطُّ ما نفعني مال أبي بكر » . فبكى أبو بكرٍ وقال : هل أنا ومالي إلا لك ، يا رسول الله[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجًا - أو قال : زوجيْن - من ماله - أراه قال : - في سبيل الله ، دعتْهُ خزنةُ الجنة : يا مسلم ، هذا خيرٌ ، هلُمَّ إليه » فقال أبو بكر : هذا رجلٌ لا تودى عليه . فقال رسول الله ﷺ : « ما نفعني مالٌ قطُّ إلا مال أبي بكر » . قال :

---

(١) رواه البخاري وأحمد والنسائي في فضائل الصحابة وابن أبي عاصم .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد وابن ماجه وابن أبي عاصم وابن أبي شيبة في المصنف والنسائي في فضائل الصحابة .

فبكى أبو بكر وقال : وهل نفعني الله إلا بك ؟! وهل نفعني الله إلا بك ؟! وهل نفعني الله إلا بك ![1].

وهو السَّبَّاق إلى الخيرات كما ذُكر في علوّ الهمَّة في الصدقة ، حتى أتى بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » . قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فقال عمر : لا أُسابقك إلى شيءٍ أبدًا .

وهو الذي ذَبَّ عقبة شيطان قريش عن رسول الله ﷺ ، وَدَفَعَهُ عن النبي ﷺ وقال : ﴿ **أتقتُلون رجلًا أن يقول ربي الله** ﴾ . [غافر : ٢٨] .

وهو ثاني اثنين .

ولعلوّ مكانته ، وقد سبقت له من ربِّه الحُسنى ، اختاره الرسول ﷺ لصُحبته في الهجرة .

قال تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ... ﴾ الآية . [التوبة : ٤٠] .

قال الشعبي : عاتب اللهُ أهلَ الأرض جميعًا في هذه الآية ، غير أبي بكر .

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة » . قالت عائشة : فقال أبو بكر : الصُّحبة يا رسول الله ؟ قال : « الصُّحبة » . قالتْ : فوالله ما شعرتُ قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكرٍ يومئذٍ يبكي .

هذا والله بكاء الرجال . لقد كانت تحفة « ثاني اثنين » مُدَّخرة للصِّدِّيق .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند ، وفي فضائل الصحابة .

قال ابن حجر في الفتح (٧ / ١٢) : « فُضِّل أبو بكر ؛ لأنه انفرد بهذه المَنْقَبَةِ ، حيث صاحَبَ رسول الله ﷺ في تلك السَّفْرة ، ووقاه بنفسه » .

« فهـو الثاني في الإسـلام ، وفي بَذْل النفس ، وفي الزهد ، وفي الصُّحبـة ، وفي الخـلافة ، وفي العُمر ، وفي سبب الموت ؛ لأن الرسـول ﷺ مات من أثر السم ، وأبو بكر مات ؛ سُمّ فمات . وقـد كان الصديق رضي الله عنه ، ثانيَ اثنين في العريش يوم بدر .

وقد جمع الله بينهما في التربة ، كما جمع بينهما في الحياة .

فانظر إلى سر الاقتران ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ [التوبة : ٤٠] . لفظًا وحُكمًا ومعنًى ، إذ يقال : رسول الله ، وصاحب رسول الله . فلمَّا مات قيل : خليفة رسول الله . ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته ، فقيل : أمير المؤمنين »[1].

ولما وفّى الصِّـدِّيق حُلى الإيمان ، فيدعى يوم القيامة مـن كل أبواب الجنان .

قال ابن القيم :

هـذا وأُمَّـة أحمـدٍ سبَّاقُ با ... قي الخلْقِ عنـدَ دخولهم بجنانِ

وأحقُّهم بالسَّبق أسبقُهم إلى الـ ... إسـلام والتَّصـديقِ بالقـرآنِ

وكذا أبو بكرٍ هو الصِّدِّيقُ أسْـ ... ـبقُهم دخولًا قولَ ذي بُرهانِ

وقال ابن القيم عن أبواب الجنة :

ولسوف يُدعى المرءُ مِنْ أبوابها ... جمعًـا إذا وفَّى حُـلَى الإيمـانِ

---

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٧٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٤ /١٨ .

منهم أبو بكرٍ هو الصِّدِّيقُ ذا　　　　كَ خليفـةُ المبعوثِ بالقـرآنِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق زوجيْن من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله ، دُعي من أبوابٍ - يعني الجنة - يا عبد الله ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الصيام وباب الرَّيَّان » . فقال أبو بكر : ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة . وقال : هل يُدعى منها كلّها أحدٌ يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر »[(١)].

قد يُدعى المرء من أبواب الجنة كلِّها إذا وفّى جميع شُعَب الإيمان ، ومِنْ هؤلاء صِدِّيقُ هذه الأُمّة ، وأفضل الناس جميعًا بعد النبيِّين : أبو بكرٍ رضي الله عنه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟ » . قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن تَبع منكم اليوم جنازةً ؟ » . قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن أطعمَ منكم اليوم مسكينًا ؟ » . قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن عادَ منكم اليوم مريضًا ؟ » . قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله ﷺ : « ما اجْتَمَعْنَ في امرئٍ ، إلا دخل الجنة »[(٢)].

أنا مولايَ إمـامٌ ضحكتْ　　　　من ثنايَ فَضْـلِهِ آيُ الزُّمَرْ

---

(١) صحيح : رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وعزاه المزي في الأطراف للنسائي ، وأخرجه أحمد ، وابن أبي شيبة .

(٢) رواه مسلم .

صـدَّقَ المُرْسَـلَ إيمانًـا به ... ولَجَا في اللهِ مَنْ كان كَفَـرْ
ثمَّ بالغـــار له مَنْقَبَـــةٌ ... خَصَّـهُ اللهُ بهـا دُونَ البَشَـرْ
ثانيَ اثنينِ وَقَوْلُ المصطفى ... معنـا اللهُ فلا تُبدي الحَذَرْ

لله دَرُّهُ ، وما أعلى منزلتَهُ في الجنة .. منزلته على قدْر همّته :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « إن أهل الدرجات العُلَى ليروْن مَنْ فوقهم كما تروْن الكوكبَ الدُّرِّيَّ في أُفُقِ السماء ، وإن أبا بكرٍ وعمر منهم وأنْعَمَا »[1].

رضي الله عن الصديق الذي قال فيه الفاروق - حين ذَكَر البيعةَ - : « وليس فيكم مَنْ تُقطع إليه الأعناق مِثْل أبي بكرٍ »[2].

ولله دَرُّه .. ما أعلى وَرَعَهُ :

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان لأبي بكر غلامٌ يُخرِج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يومًا بشيءٍ ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو ؟ قال : كنتُ تكهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية ، وما أُحسِن الكهانة ، إلَّا أني خدعتُهُ ، فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلتَ منه . فأدخل أبو بكر يدَهُ فقاءَ كلَّ شيءٍ في بطنه[3].

وانظر إلى القمة التي لا تُدَانى في الوقوف عند كتاب الله :

عن عائشة : لما أنزل الله في براءتي ، قال أبو بكر الصديق رضي الله

---

(١) حسن لغيره : أخرجه أحمد في المسند ، وفي فضائل الصحابة ، وله شاهد عند الترمذي .

(٢) موقوف صحيح : أخرجه ابن سعد في الطبقات .

(٣) رواه البخاري .

عنه - وكان يُنفق على مِسْطَح بن أثاثة ، لقرابته منه وفقره - : والله لا أُنفق على مسطحٍ شيئًا أبدًا ، بعد الذي قال لعائشة ما قال . فأنزل الله : ﴿ **ولا يَأْتَلِ أُولو الفضل منكم والسَّعة أن يُؤتوا أُولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم والله غفورٌ رحيمٌ** ﴾ [النور : ٢٢] . قال أبو بكر : بلى والله ، إني لأُحبُّ أن يغفر الله لي . فرجع إلى النفقة التي كان يُنفِق عليه ، وقال : والله لا أنزعها أبدًا . رواه البخاري .

« هنا نَطَّلِع على أُفُقٍ عالٍ من آفاق النفوس الزَّكيَّة ، التي تطهَّرتْ بنور الله ، أُفق يُشرق في نفس أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، أبي بكر الذي مسَّه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتِّهام لبيته وعِرْضه ، فما كاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما كاد يلمس وجدانَهُ ذلك السؤال المُوحي ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ؟ حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة ، وحتى تشفّ رُوحُه وترفّ وتُشرق بنور الله ، فإذا هو يُلَبِّي داعيَ الله في طمأنينةٍ وَصِدْقٍ ، يقول : بلى والله ، إني لأُحبُّ أن يغفر الله لي . ويُعيد إلى مسطحٍ النفقةَ التي كان يُنفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبدًا . ذلك في مقابل ما حلفَ : والله لا أنفعه بنافعةٍ أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنور »[١] .

قال ابن كثير معلِّقًا : « فلهذا كان الصِّدِّيق هو الصّدّيق »[٢] .

---

(١) الظلال ٤ / ٢٥٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٣١ .

الصِّدِّيق أعزّ الله به الدِّين يومَ الرِّدَّة :

لله دَرُّ الصِّدّيق .. لقد لاقى - حين ارتدَّ العرب - ما تضعضع له الجبال الرّواسي .. لله دَرُّه وهو يجهِّز جيش أُسامة ويبعثه ، والعرب من كلِّ حدبٍ وصوبٍ تكاد تفتك بأهل المدينة ... لله دَرُّه وهو يقول : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ ، لَحَاربتُهم على مَنْعِهِ » . وبعدها قال الفاروق : « لو أطاعنا أبو بكرٍ لَكَفَرْنا » .

إن الله أعزَّ الإسلام برجُلَيْن لا ثالث لهما : أبو بكر يوم الرِّدَّة .. وأحمد ابن حنبل يوم المحنة .

كانت فضائله الباطنة مستورةً بنقابٍ « ما سَبَقَكُمْ أبو بكرٍ بصومٍ ولا صلاةٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في صدره » . فهي مُجانسة لمنقبة ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ [النجم : ١٠] .

جَمَعَ يومَ الرِّدَّة شَمْل الإسلام بعد أن نعق غراب البَيْن ، وجهَّز عساكر العَزْم ، فمرّتْ على أحسن زيْن ، وصاح لسان جدِّه فارتاع مَنْ بَيْن الصَّفَّيْن ، فقال : أُقاتلهم ولو بابْنَتَيَّ هاتَيْن .

عاد به روض العُلَا مُنَضَّرًا ... من بعد ما كان العُلا قد اضمحلّْ
سائلْ به يوم بني حنيفةٍ ... والبيضُ في بِيضِ الرُّءُوسِ تنتضلْ
كم خَلَلٍ رمَّ ولولا عزمُهُ ... ما رُمَّ في الإسلامِ هذاك الخَلَلْ
وكم له مِنْ نائلٍ يسير ما ... بينَ الأنامِ ذِكْرُهُ سَيْرَ مَثَلْ
سكينةُ الله عليه أُنْزِلَتْ ... وَفَضْلُه في سورةِ الفَتْحِ نَزَلْ
أُقْسِمُ باللهِ يمينًا صادقًا ... لوْ فَاضَلَ الأمْلاكَ بالصِّدْقِ فَضلْ

مَنْ نَهض كنهضته يوم الرِّدَّة، ومَن عانى مِن القوم تلك الشِّدَّة ، وأيّ إقدامٍ يُشبِه تلك الحِدَّة .

« إن العظائم كُفؤها العظماء » .

ولقد اختار القَدَرُ هذا العظيمَ ليُواجِه جلائل الأُمور وعظائم المستقبل .

قال ابن مسعود رضي الله عنه ، عن يوم الرِّدَّة : « لقد قُمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كِدْنَا نهلك فيه ، لولا أن منَّ الله علينا بأبي بكر » .

لله من خلْقه رجالٌ تتحوّل المِحَن بين أيديهم إلى مِنَح ، والكوارث إلى ربيعٍ تملؤه روح الحياة !! وأبو بكر سيِّد هؤلاء الرجال .. أمَا قال عمر : « أبو بكرٍ سيِّدُنا أعْتَقَ بلالًا سيِّدَنا » .

« فخلال هذه المحنة الصاهرة التي ألمَّت بالإسلام ، تكشَّفتْ كلُّ جوانب الضعف في البناء البشري للإسلام ، وهبَّ الرجل الحكيم القويّ من فوره ، فَرَأَبَ الصّدْع .. وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ، إذ جاءتْه هذه المحنة وأبو بكرٍ حاملُ الراية وقائدُ الأُمة .. وبفضلٍ من الله ورحمةٍ ، تفوَّقَ الرجل الكبير ، والخليفة المؤمن ، على أخطارٍ كانت حَرِيَّةً بأن تُدَاعي بناءَ إمبراطوريةٍ شامخةٍ راسخةٍ ، فما البال بدينٍ ناشئٍ غضٍّ جديدٍ ؟!

وكانت تلك الأيام المُزَلْزِلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، وأخصبها وأكثرها بركةً عليه ، وخيرًا لمصيره .. لقد تمزَّقَ المرتَدُّون بددًا كبقايا زوبعةٍ ضالّةٍ ، وولَّوْا أمام الحق نائحين بشعرٍ :

ألا فاسقياني قَبْلَ خَيْلِ أبي بكرِ   لعلَّ منايانا قريبٌ ولا ندري

« خيل أبي بكر » ؟!! لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهَوْل في أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحقَّ للباطل »[١].

---

(١) خلفاء الرسول لخالد محمد خالد صـ ٧٨ - ٨٠ ، دار الجيل .

همَّة أغرب من الخيال ، تُقرِّب الصَّعْب وتُحقِّق المحال :

هذه هي همَّة الصِّدِّيق رضي الله عنه : كيف استطاع في أقلّ من سنتين أن يُدمِّر جيوش المرتدِّين ، بعد أن كانت مُحاصِرَةً للمدينة ، وقد نهاه كبار الصحابة قبلها عن حربه ، فكيف يقوم في وجه العرب كلِّهم ، وبعد هذا لم يمت إلا وجيوشه تُحاصِر أعظم إمبراطوريتيْن في ذلك الوقت ، وتُنزل بهما أفظع الهزائم .. فهذه همَّةٌ عالية ، استطاع بها أن يُنجز ما ظنَّه الناسُ خيالًا لا يُنجَز .

خليفة رسول الله ﷺ الهاضِم لنفسه :

بعد أن صَعِدَ أبو بكرٍ منبر رسول الله ﷺ ، الذي غاب عنه فَيْصَلُهُ ورُبَّانُهُ ، قال : « أيُّها الناس ، إني قد وُلِّيتُ عليكم ، ولستُ بخَيْركم . إن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأتُ فقوِّموني . ألا إن الضعيف فيكم قويٌّ عندي ، حتى آخُذَ الحقَّ له .. ألا وإن القويّ فيكم ضعيفٌ عندي ، حتى آخُذَ الحقَّ منه .. أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسوله ، فإذا عصيتُ فلا طاعةَ لي عليكم » .

كلماتٌ مُعجزات وضَّاءةٌ ، وما أرْوَعَها من بدايةٍ ، ومن أجْدَر من الصِّدِّيق بهذه الكلمات ، ومن أحقّ من أبي بكرٍ وأوْلَى بهذا الموقف ... موقف الحاكم الذي يدرك أنه لن يكون عظيمًا إلا بقدْر ما تكون أُمَّته عظيمة ، ولن يكون حُرًّا إلا بقدْر ما تكون أُمّته حُرّة ، ولن يكون آمنًا إلا بقدر ما يكون شعبه آمنًا .

ابنٌ مباركٌ عظيمٌ ، لا للإسلام وَحْدَه .. بل للحياة كلِّها .. حاكمٌ هاطِلٌ يملأ حياة الناس عافيةً ورحمةً ، وروعةً وأمْنًا .

ولله ما أعلى همَّتَهُ حين يمتنع عن إعطاء فاطمة بنت رسول الله ﷺ -

وهي أعزُّ عنده وأغلى من دمه وعَيْنَيْهِ - ميراثها فيقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورّث ، ما تركناه صدقةٌ » . وإني والله لا أدَعُ أمرًا رأيتُ رسول الله ﷺ يَصْنَعُهُ ، إلَّا صنعْتُهُ ؛ إني أخشى إن تركتُ شيئًا من أمره ؛ أن أزيغ .

هذا رجلٌ لا يحمل إيمان العوامّ .. بل إيمان العباقرة عُلاة الهمَّة .

وانظر إلى عظمته السامقة :

حالِبُ الشياهِ للعجائز ، والعاجِن بيديه خُبز الأيتام :

قال ابن الجوزي في التبصرة (١ / ٤٠٠) : « إنه لمَّا استُخلف - أي الصِّدِّيق - أصبح غاديًا إلى السوق ، وكان يحلب لِلْحَيِّ أغنامهم قبل الخلافة ، فلمَّا بُويع ، قالت جاريةٌ من الحيّ : الآن لا يُحلَب لنا . فقال : بلى لَأَحْلِبَنَّهَا لكم ، وإني لأرجو ألا يُغيِّرني ما دخلتُ فيه » .

إنسان انتهى إليه كلُّ ما في الإسلام من حنانٍ ونجدةٍ وعطفٍ ، خُلِق هكذا .. وخُلق لهذا .

قالت عائشة رضي الله عنها : « أعتق أبو بكر - رضي الله عنه - سبعةً ممَّن كان يُعذَّب في الله عز وجلّ ، منهم بلال وعامر بن فهيرة »[(١)] .

لقد أتعبْتَ مَنْ بَعْدَكَ :

بعد أن وُلِّي الخلافة أراد أن يمضي إلى السوق ، فعارضَهُ الصحابةُ ، وقال له عمر : وماذا تصنع بالسوق وقد وُلِّيت أمر المسلمين ؟! وفرضوا له الكفاف : بعض شاةٍ كُلَّ يوم ، ومائتي دينار وخمسين في العام ، زيدت بعد ذلك إلى شاةٍ كلَّ يوم ، وثلثمائة دينارٍ في العام .. وما كان يأكل وأهله

---

(١) صحيح : أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .

إلّا جريش الطعام .. وما كان يلبس إلّا خَشِن الثياب ، فلمَّا أدركه الموت دعا الصِّدِّيقة عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها ، وقال لها : « انظري ما زاد في مالِ أبي بكر منذ ولِيَ هذا الأمر ، فرُدِّيه على المسلمين » .. وبكى عمر حين رأى ما تحمله أُمُّ المؤمنين تنفيذًا لوصيَّة أبيها « بعير كان يستقي عليه الماء !! ومِحْلب كان يحلب فيه اللبن !! وعباءة كان يستقبل فيها الوفود !! » ، فانفجر عمر باكيًا وقال : « يرحم الله أبا بكر .. لقد أتْعَبَ كلَّ الذين يجيئون بعده » .

هذا نهج الصديق ... نَهْجٌ في السلوك والورع تَنَاهَى في العظمة ، بحيث يُضني بلوغه ومضاهاته كلَّ خليفةٍ يأتي على أثره . رجل افتدى الإسلام بماله كلِّه .. وخليفة تنثال في أيامه خيرات الشام والعراق .

يا سُكَّان أرضنا وكوكبنا ، هل عندكم لهذا الأُنموذج الطاهر الغالي العالي من نظير .. هذا العظيم الشامخ ، الذي اختاره الله لتكون أيامه السطور الأُولى في نَعْي إمبراطوريَّتَي الروم وفارس .. في جسد أبي بكرٍ النحيف وجدت العظمة منزلًا لها ومقامًا .

« هذا هو الصِّدِّيق !! لا يرفع الكاتبون من قدْره بما يسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من أقدار أنفسهم حين يُؤَهِّلونها للحديث عن هذا الطَّوْد الشامخ العظيم »[1] .

سبقتَ والله سبقًا بعيدًا :

« عن أُسيد بن صفوان ، قال : لمَّا قُبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وسُجِّي عليه ، ارتجَّتِ المدينةُ بالبكاء كيومِ قُبِضَ رسول الله ﷺ .

---

(١) خلفاء الرسول صـ ١٠٤ .

قال : فجاء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مستعجلًا مسرعًا مُسترجِعًا ، وهو يقول : اليوم انقطعتِ النُّبوَّة . حتى وقف على البيت الذي فيه أبو بكر فقال : رحمك الله يا أبا بكر ، كنتَ إلْفَ رسول الله ﷺ وأنيسَهُ ومُستَرَاحَه ، وثقتَهُ وموضِعَ سِرِّه ومشاورته ، وكنت أوَّلَ القوم إسلامًا ، وأخلصهم إيمانًا ، وأشدَّهم لله يقينًا ، وأخْوَفَهُم لله ، وأعظمهم غناءً في دين الله عز وجل ، وأحْوَطهم على رسول الله ﷺ ، وأحْدَبهم على الإسلام ، وأحسنهم صُحبةً ، وَأَكْثَرَهُمْ مناقِبَ ، وأفضلهم سوابِقَ ، وأرفعهم درجةً ، وأقربهم وسيلةً ، وأشبههم برسول الله ﷺ هَدْيًا وسَمْتًا ، وأشرفهم منزلة ، وأرفعهم عنده ، وأكرمهم عليه ، فجزاك الله عن رسوله وعن الإسلام أفضل الجزاء . صَدَّقْتَ رسولَ الله حين كَذَّبه الناس ، وكنتَ عنده بمنزلة السمع والبصر ، سمَّاك الله في تنزيله صِدِّيقًا فقال : ﴿ **والذي جاء بالصِّدْق وصدَّق به** ﴾ [الزمر : ٣٣] . وآسَيْتَهُ حين بخلوا ، وقُمتَ معه في المكاره حين قعدوا ، وصحبتَهُ في الشدَّة أكْرَمَ الصُّحبة ، ثاني اثنين ، صاحِبه في الغار ، والمُنزَّل عليه السَّكِينة ، ورفيقه في الهجرة ، وخَلَفْتَهُ في دينِ الله وأُمَّتِهِ أحْسَنَ الخلافة حين ارتدّوا ، فقمتَ بالأمر ما لم يقُم به خليفةُ نبيٍّ ، نهضتَ حين وَهَنَ أصحابُه ، وبرزتَ حين استكانوا ، وقويتَ حين ضعفوا ، ولزمتَ منهاج رسوله إذْ وهنوا ، كنتَ خليفةً حقًّا لن تُنازع ولن تُضارع ، برغم المنافقين وكبْت الحاسدين ، قُمتَ بالأمر حين فشلوا ، فاتَّبعوك فهُدُوا ، وكنتَ أخْفَضَهم صوتًا وأعلاهم فَوْقًا ، وأَقَلَّهُم كلامًا ، وأصدقهم مَنْطِقًا ، وأطولهم صمتًا ، وأبلغهم قولًا وأكرمهم رَأْيًا ، وأشجعهم نفسًا ، وأشرفهم عملًا ، كنت واللهِ للدِّين يَعْسُوبًا[١] ؛ أوَّلًا حين نفرَ عنه الناس ، وآخِرًا حين أقبلوا . كنتَ للمؤمنين أبًا رحيمًا ، صاروا عليك عيالًا ،

(١) أمير النحل .

حملتَ أثقال ما عنه ضَعُفوا ، ورَعَيْتَ ما أهملوا ، وعلمتَ ما جهلوا ، وشمَّرتَ إذ ظلعوا[١] ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركتَ أوتار ما طلبوا ، وراجَعُوا بِرَأْيِكَ رشدهم فظفروا ، ونالوا برأْيك ما لم يحتسبوا . كنتَ على الكافرين عذابًا صبًّا ولَهَبًا ، وللمؤمنين رحمةً وأُنسًا وحِصنًا ، طِرتَ والله بعنائها ، وفُزت بِحِبائها ، وذهبتَ بفضائلها ، وأدركتَ سوابقها ، لم تُفْلَلْ حُجَّتك ، ولم تضعُف بصيرتُك ، ولم تجبُن نَفْسُك ، ولم يزُغ قلبك ، فلذلك كنتَ كالجبال ؛ لا تحرِّكها العواصف ولا تزيلها القواصف ، كنتَ كما قال رسول الله ﷺ ، أمنَّ الناس عليه في صُحبتك وذاتِ يدك ، وكنت - كما قال - ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله تعالى ، متواضعًا في نفسك ، عظيمًا عند الله ، جليلًا في أعيُن الناس ، كبيرًا في أنْفُسهم ، لم يكن لأحدهم فيك مغمز ، ولا لقائلٍ فيك مهمز ، ولا لمخلوقٍ عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك قويٌّ حتى تأخُذ بحقِّه ، القريب والبعيد عندك سواء ، وأقْرَبُ الناس عندك أطْوَعُهم لله عز وجل وأتقاهم ، شأنُك الحقُّ والصِدْقُ والرِّفْقُ ، قولُك حُكم وحَتْم ، وأمرك حِلم وحَزْم ، ورأيك عِلمٌ وعزْم ، اعتدلَ بك الدِّين ، وَقَوِيَ بك الإيمان ، وَظَهَرَ أمر الله ، فسبقتَ والله سَبْقًا بعيدًا ، وأتعبتَ مَنْ بعدك إتعابًا شديدًا ، وفُزت بالخير فوزًا مبينًا ، فَجَلَلْتَ عن البكاء وعظُمت رَزيَّتُك في السماء ، وهدَّتْ مصيبتُك الأنام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله عز وجل قضاءَه وسلَّمْنا له أمره . والله لن يُصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمِثْلك أبدًا ، كنت للدِّين عزًّا وحِرزًا وكهفًا . فألْحَقَك الله عز وجل بنبيك محمدٍ ﷺ ، ولا حَرَمَنَا أجرك ، ولا أضلَّنا بَعْدَكَ .

---

(١) أي ضعفوا .

فسكت الناس حتى قضى كلامه ، ثم بكوْا حتى علت أصواتُهم ، وقالوا : صدقت يا ختن رسول الله ﷺ »[١] .

أبي وما أُبَيَّهْ ! أبي والله لا يُعْطَوْهُ الأَبَد :

ولله دَرُّ أُمِّ المؤمنين عائشة حين تتكلَّم عن أبيها أبي بكر « فقد بلغها أن أقوامًا يتناولون أبا بكر فأرسلت إلى أزْفِلة[٢] منهم ، فلمَّا حضروا أسدلتْ أستارها ، ثم دنتْ فحمدتِ الله تعالى وصلَّتْ على نبيِّه محمد ﷺ وَعَذَلَتْ وقَرَّعَتْ ثم قالت : أبي وما أُبَيَّهْ ! أبي والله لا يُعْطَوْهُ[٣] الأبد ، ذاك طَوْدٌ مُنِيف وفرعٌ مديد ، هيهات ، كذبتِ الظُّنون ! أَنْجَحَ إذ أَكْدَيْتُم[٤] ، وسَبَقَ إذ وَنَيْتُم[٥] ، سبْق الجواد إذا استولى على الأمد[٦] . فتى قريشٍ ناشئًا ، وكهفُها كهلًا ، يفُكُّ عانِيَها ، ويَرِيش مُمْلِقَهَا[٧] ، ويَرْأَب شَعْبَها[٨] حتى حلبتْه قلوبها ، ثم استشرى[٩] في الله ، فما برحتْ شكيمتُه وَحَمِيَّته في ذاتِ الله تعالى ، حتى اتَّخذ بفنائه مسجدًا يُحيي فيه ما أمات المُبطلون . وكان - رحمه الله - غزيرَ الدَّمْعَةِ ، وَقِيذ[١٠] الجوارح ، شجيَّ النَّشيج[١١] ، فانقضَّتْ إليه نسوانُ مكة وولدانُها يسخرون منه ويستهزئون به ﴿ **الله يستهزئ بهم ويمُدُّهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [البقرة : ١٥] فأكبرت ذلك رجالات قريش ، فحَجَنَتْ له قِسِيَّها ، وفوَّقتْ له سهامَها ، وانْتَثَلُوه[١٢] غَرَضًا ، فما فلُّوا[١٣] له

(١) التبصرة ١ / ٤٠١ - ٤٠٣ .
(٢) جماعة .
(٣) ينالوه .
(٤) خِبتم .
(٥) فَتَرْتم .
(٦) الأمد : الغاية .
(٧) المُملِق : الفقير .
(٨) يرأب : يجمع ، وشعبها : مُتفرِّقها .
(٩) احتدَّ وانكمش .
(١٠) الوقيذ : العليل .
(١١) الشجيّ : الحزين .
(١٢) أي جعلوه ومثّلوه غرضًا للرَّمْي .
(١٣) كسروا .

صَفَاةً[١] ولا قصفوا له قناةً ، ومرَّ على سِيسَائِهِ[٢] ، حتى إذا ضرب الدين بجرانِهِ[٣] ، وألقى بَرْكَهُ ، ورستْ أوتادُه ، ودخل الناسُ فيه أفواجًا ومِنْ كلِّ فرقةٍ أرْسالًا وأشتاتًا ، اختار الله لنبيِّه ما عنده ، فلمَّا قبض الله تعالى نبيَّه ﷺ ، نَصَبَ الشيطانُ رُواقَهُ ومدّ طُنُبه ونَصَبَ حبائِلَهُ ، وظن رجالٌ أن قد تحقَّقتْ أطماعُهم ، ولاتَ حين الذي يرجون ، فأنَّى والصِّدِّيق بين أظهُرهم !! فقام حاسِرًا مشمِّرًا ، فجمعَ حاشيَتَهُ ، ورفعَ قُطْرَيْه[٤] فردَّ نَشْز الإسلام على غِرَّةٍ[٥] ، ولمَّ شَعَثَهُ بِطبِّه[٦] ، وأقام أَوْدَهُ[٧] بِثِقَافِهِ[٨] ، فابْذَقَرَّ[٩] النفاق بوَطْأَتِهِ ، وانتاشَ[١٠] الدِّين فَنَعَشَهُ[١١] ، فلمَّا أزاحَ الحقَّ إلى أهله وقرَّر الرءوس على كواهلها ، وحَقَنَ الدماء في أهُبها[١٢] ، أَتَتْهُ مَنِيَّتُه ، فسَدَّ ثُلْمته بنظيره في الرحمة ، وشقيقِهِ في السِّيرة والمَعْدِلة ، ذاك ابنُ الخطَّاب ، لله دَرُّ أُمٍّ حملتْ به ودَرَّتْ عليه ، فقد أَوْحَدَتْ[١٣] به ، فَفَنَخَ[١٤] الكفرةَ ، وديَّخها[١٥] ، وشرد الشِّرْكَ شَذَرَ مَذَر[١٦] ، ونَفَجَ الأرض ، ونَخَعَهَا[١٧] فأقامت أُكُلها[١٨] ، ولقطتْ حبَّها ، تَرْأَمُه[١٩] ويَصْدِف عنها ، وَتَصَدَّى له

---

(١) الصخْرة الملساء .
(٢) أي على حَدِّه .
(٣) الجِرَان : الصَّدْر ، وهو البَرْك .
(٤) أي تحزَّم للأمر وتأهَّب . والقطر : الناحية .
(٥) غِرَّة : ظنة .
(٦) الطِّبّ : الدواء .
(٧) الأَوْد : العَوَج .
(٨) الثِّقاف : تقويم الرِّماح .
(٩) ابْذَقَرَّ : تفرَّق .
(١٠) أزال عنه ما يخاف عليه .
(١١) رفعه .
(١٢) الأُهُب : جمع إهاب ، وهو الجِلْد .
(١٣) أوحدتْ : أي جاءت به منفردًا لا نظير له .
(١٤) أذلَّها .
(١٥) ديَّخها : أي دوَّخها .
(١٦) شَذَر مَذَر : التفريق .
(١٧) نخع ونفج : أي شقَّ .
(١٨) الخير .
(١٩) تَرْأَمُهُ : تعطف عليه .

ويأباها ، ثم زرع فيها وودَّعها كما صحبها ، فأروني ما تَريبون ، أيّ يومٍ تَنْقِمـون : أيوم إقامتِهِ إذْ عَـدَلَ فيكم ؟! أم يوم ظَعْنِه فقـد نَظَرَ لكم ؟! أستغفر الله لي ولكم » .

قال رسول الله ﷺ : « هذانِ السمع والبصر » يعني أبا بكر وعمر(١) .

وقال ﷺ : « هذان سيِّدا كهول أهلِ الجنة ؛ من الأوَّلين والآخِرين إلَّا النبيِّين والمرسلين ، لا تُخْبرهُما يا عليّ » . يعني أبا بكر وعمر(٢) .

أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

إنه الفاروق الذي قال الرسول ﷺ في همَّته وعبقريته : « أُرِيتُ في المنام أني أنْزِعُ بدلو بَكْرَةٍ على قليبٍ ، فجاء أبو بكر فنَزَعَ ذَنُوبًا(٣) أو ذنوبيْن نزعًا ضعيفًا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت(٤) غَرْبًا(٥) ، فلم أَرَ عبقريًّا(٦) يَفْرِي فَرْيَهُ(٧) حتى رَوِيَ الناسُ وضربوا بعَطَن(٨) »(٩) .

---

(١) صحيح رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن عبد الله بن حنطب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٠٤) والصحيحة رقم (٨١٤) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٠٥) والصحيحة رقم (٨٢٢) .

(٣) الذنوب : هي الدلو المملوءة بالماء .

(٤) استحالت : أي صارت وتحوَّلتْ . قاله النووي .

(٥) غَرْبًا: قال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٩) : أي دلوًا عظيمًا .

(٦) العبقري : هو السَّيِّد . قاله النووي (٥ / ٢٥٣) .

(٧) في بعض روايات الصحيح : « فلم أَرَ عبقريًّا ينزع نَزْع عمر » . وهي تفسِّر « يفري فريه » .

(٨) قال النووي : (٥ / ٢٥٣) : ومعنى « ضرب الناس بعطن » : أي أرووا إبلهم ثم آووها إلى عطنها ، وهو الموضع الذي تُساق إليه بعد السقي لتستريح .

(٩) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر .

وهو عمر الذي قال النبي ﷺ في دينه : « بَيْنَا أنا نائمٌ ، رأيتُ الناس عُرِضوا عليّ وعليهم قُمُص ، فمنها ما يبلغ الثُّدْيَ ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ؛ وَعُرِضَ عليَّ عُمَر وعليه قميص اجترَّه »[١]. قالوا : فما أَوَّلته يا رسول الله ؟ قال : « الدِّين »[٢].

إنه عمر عالي الهمَّة الذي يأخذ نفسه بالجدّ دومًا .

قال أسلم : « سألني ابن عمر عن بعض شأنه - يعني عمر - فأخبرته فقال : ما رأيت أحدًا قطُّ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - من حين قُبض - كان أجدَّ وأجْوَد حتى انتهى ؛ من عمر » . رواه البخاري .

إنه عمر الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه »[٣].

إنه عمر عالي الهمَّة الذي يَفْرَق الشيطان منه .

قال رسول الله ﷺ : « إيهًا يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لَقِيَك الشيطان سالكًا فجًا ، إلَّا سَلَكَ فجًّا غير فجِّك »[٤].

وقال فيه : « إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجنّ قد فرُّوا من عمر »[٥].

إنه عمر الذي دعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ربَّه أن يُعزّ

---

(١) ولا يلزم منه أن عمر أفضل من الصِّدّيق ، ويرفع هذا الإشكال تخصيصُ أبي بكر من عموم قوله : « عُرِض عليَّ الناس » .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو يعلى وابن أبي عاصم عن أبي سعيد الخدري .
(٣) صحيح لغيره : رواه الترمذي عن ابن عمر .
(٤) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والنسائي عن سعد بن أبي وقَّاص .
(٥) حسن : جزء من حديث رواه الترمذي عن عائشة .

الإسـلام بـه .

فعن ابن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعِزّ الإسلام بأَحَبِّ هذين الرجُلَيْن إليك ؛ بأبي جهلٍ ، أو بعمر بن الخطاب » . قال : وكان أَحَبّهما إليه عمر[(١)].

إنه عمر الذي قال فيه عبد الله بن مسعود : ما زلنا أعِزَّةً منذ أسلم عمر .

إنه عمر الذي قال فيه ابن عباس : كان وقَّافًا عند كتاب الله .

إنه عمر الذي قالت فيه عائشة رضي الله عنها : إذا شئتم أن يطيب المجلسُ ، فعليكم بذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

تحدَّثْ ولا تخرُجْ بكلِّ عجيبةٍ — عن البحرِ أو تلك الخلالِ الزَّواهِرِ
ولا عيبَ في أخلاقه غَيْرَ أنَّها — فَرائِدُ دُرٍّ ما لها من نظائِرِ
يُقرُّ لها بالفضلِ كلُّ منازِعٍ — إذا قيل يومَ الجَمْعِ هَلْ من مُفَاخِرِ

« قويت شدَّة عمر في الدِّين فصلُبَتْ عزائمُهُ ، فلمَّا حانتِ الهجرةُ ، تسلَّلُوا تسلل القَطَا ، واختال عمر في مِشية الأسد ، فقال عند خروجه : ها أنا أخرُج إلى الهجرة ، فمن أراد لقائي فليَلْقَنِي في بطن هذا الوادي .

لما ولي الخلافة شمَّر عن ساق جِدّه فكَظَمَ على هوى نفسه ، وحملَ في الله فوق طَوْقه .

متيقِّظ العَزَماتِ مُذ نهضتْ به — عَزَمَاتُهُ نحو العُلا لم يقعُدِ
ويكاد من نورِ البصيرةِ أن يَرَى — في يومه فِعْل العواقبِ في غَدِ »[(٢)].

---

(١) صحيح لشواهده : أخرجه الترمذي وأحمد وابن حبان وعبد بن حميد .
(٢) التبصرة ١ / ٤١٩ - ٤٢٠ .

إنه عمر الذي قال له علي رضي الله عنه : « لقد أذللتَ الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين » .

إنه عمر الذي قال : لو مات جَدْيٌ بِطَفٍّ[١] العراق ، لخشيتُ أن يُحاسِبَ الله به عمر .

وقال : والله لئن بقيتُ ، ليأتينَّ الراعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

كلَّ يومٍ مجدٌ وفخرٌ يُشاد وطريفٌ[٢] من المُنَى وتِلادُ
وكرامٌ من المساعي حِسانٌ عجزتْ عن طِلابِها الحُسَّادُ
هِمَمٌ دونَها الكواكبُ تتلو عَزَماتٍ للنار فيها اتِّقادُ
كلَّما قيل قد دَجَا ليلُ خَطْبٍ فَلِرَأْيِ الفاروقِ فيه زِنَادُ
مُغْرَمٌ بالمكارمِ الغُرِّ لَمَّا ضمَّ أبكارَها إليهِ الولادُ
ساهِر العينِ بالعزائم يَقْـ ـظانٌ وقد قَيَّدَ العيونَ الرُّقادُ
قد كفتْهُ المناقِبُ المَدْحَ إلَّا مَدْحنا من صفاتِهِ يُستفادُ

إنه عمر الذي قال فيه طارق بن شهاب : كُنَّا نتحدَّث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه مَلَك[٣].

لله دَرُّه من جبلٍ لا يراه شيطان إلا خرَّ لِمَنْخَرَيْهِ ، المَلَك بين عينيْه ، ورُوح القدس ينطق على لسانه .

إنه عمر الذي قال فيه مجاهد : كُنَّا نتحدَّث - أو نحدَّث - أن

---

(١) الطَّفّ : الشَّطّ .

(٢) الطريف : الجديد . والتلاد : القديم .

(٣) موقوف صحيح : أخرجه أحمد في فضائل الصحابة .

الشياطين كانت مصفَّدة في إمارة عمر ، فلمَّا أُصِيب بُثَّتْ .

إنه عمر الذي حمل الدِّرَّة يؤدِّب بها ، وقيل بعده : لَدِرَّةُ عُمَرَ أَهْيَبُ من سيفِكم .

إنه عمر الذي أذلَّ وديّخ كسرى الفرسِ وهرقل الرومِ ... قال عنه رستم قائد الفرس : « قاتل الله عمر .. لقد أَكَلَ كبدي .. إنه عمر الذي يكلِّم الكلاب فيُعلِّمهم العقل » .. لله ما أحلاها من كلمة .

إنه عمر أبو الفتوح العظيمة « فتح العراق كلَّه ، السَّواد والجبال وأذربيجان وكُور[1] البصرة وأرضها ، وكور الأهواز وفارس ، وكور الشام كلَّها ما خلا أجنادين ، فإنها فُتحت في خلافة أبي بكر ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ، ومصر والإسكندرية ، وقُتل - رضي الله عنه - وخيلُه على الرَّيّ قد فتحوا عامَّتها »[2] .

إنه عمر الذي كانت جيوشه تُديل مظالم الروم والفرس وتدُكُّها دكًّا ، بينما هو يسير في طُرُقات المدينة لابسًا ثوبًا به إحدى وعشرون رقعة ... ويُبطئ عن المسلمين يومًا في صلاة الجمعة ، ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلًا : « حبسني قميصي هذا ؛ لم يكن لي قميصٌ غيره !! » .

إن مسئولياته المباركة دفعتْه إلى نهايات الطُّرُق ، وقمم المُثُل ، فجاءت تصرُّفاتُه كلُّها تمثِّل أقصى ما يستطيع الكمال الإنساني أن يبلُغه .

* * *

---

(١) الكُورَة : المدينة والصُّقْع . جمعه : كُوَر .
(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي صـ ٦١ - ٦٢ تحقيق : د . زينب القاروط - دار الكتب العلمية .

علوّ همَّته في تفقُّده لرعيَّته :

« ثكلتْك أُمُّك يا طلحة ، أعثرات عُمَرَ تتبع ؟! » :

خرج رضي الله عنه في سواد الليل ، فرآه طلحة رضي الله عنه ، فذهب عمر فدخل بيتًا ثم دخل بيتًا آخر ، فلمَّا أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت ، وإذا بعجوزٍ عمياء مُقْعَدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيكِ ؟ قالت : إنه يتعاهدني ، منذ كذا وكذا يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عني الأذى . فقال طلحة : ثكلتك أُمّك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع ؟!

« ماذا تقول لربِّك غدًا ؟ » :

عن الأحنف بن قيس قال : كنت مع عمر بن الخطاب ، فَلَقِيَه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلِقْ معي فأعْدِني على فلانٍ ؛ فقد ظلمني . فرفع عمر دِرَّتَهُ ، وخَفَق بها رأس الرجل ، وقال له : تَدَعُون أمير المؤمنين وهو معرضٌ لكم ، مُقْبِلٌ عليكم ، حتى إذا شُغِلَ بأمرٍ من أُمور المسلمين أتيتموه : أعْدني ، أعدني . فانصرف الرجل غضبان أسفًا ، فقال عمر : عليَّ بالرجل . فلمَّا عاد ناوَلَهُ مخْفقتَهُ وقال له : خُذ واقتصّ لِنَفْسِك مني . قال الرجل : لا واللهِ ، ولكنّي أدَعُها لله . وانصرف ، وعُدتُ مع عمر إلى بيته ، فَصَلَّى ركعتين ثم جلس يُحاسب نفسه : « ابن الخطاب ، كنتَ وضيعًا فرفعك الله ، وكنت ضالًا فهداك الله ، وكنت ذليلًا فأعزَّك الله ، ثم حَمَلَكَ على رقاب الناس ، فجاءك رجلٌ يستعديك ، فضربْتَهُ ، فماذا تقول لربِّك غدًا إذا أتيته ؟! » .

لله دَرُّكَ من إنسانٍ باهرٍ عظيم .

لا تنامُ إلَّا غِبًّا ، ولا تأكل إلَّا تقوُّتًا ، ولا تَلْبَسُ إلَّا خَشِنًا .. يقظان دائمًا .

كان يَنْعَس وهو قاعد ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ألا ترقد ؟ ألا تَنام ؟

قال : « إن نمت بالنهار ضيَّعتُ مصالح الرَّعيَّة ، وإن نمتُ بالليل ضيَّعتُ حظِّي مع الله » .

خرج يومًا إلى السوق ، فرأى إبلًا سِمانًا فقال : إبل مَنْ هذه ؟ قالوا : إبل عبد الله بن عمر . قال : عبد الله بن عمر !! بَخٍ بَخٍ يا ابن أمير المؤمنين . وأرسل في طلبه ، فلمّا أتاه قال له : ما هذه الإبل يا عبد الله ؟ فقال عبد الله : إنها إبل أنضاء اشتريتها بمالي ، وبعثت بها إلى الحِمَى أُتاجِر فيها ، وأبتغي ما يبتغي المسلمون . فقال عمر : ويقول الناس حين يرونها : ارعُوا إبل ابن أمير المؤمنين .. اسْقُوا إبل ابن أمير المؤمنين .. وهكذا تسمنُ إبلُك ، ويربو ربحُك يا ابن أمير المؤمنين . ثم صاح به : يا عبد الله ، خُذ رأس مالك ، واجعل الربح في بيت مال المسلمين .

يا خالق عمر ، سبحانك !!!

يقول لأقاربه : « إني قد نهيْتُ الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإني والله لا أُوتَى برجُلٍ منكم ، وقع فيما نهيتُ الناس عنه ، إلَّا ضاعفتُ له العذاب ؛ لمكانِهِ مني ، فمن شاء منكم فليتقدَّم ، ومن شاء فليتأخَّر » .

رضي الله عنك يا عمر ، تُحمِّل أهلك كلَّ مغارم الحكم ؛ وتحرمهم من كلِّ مغانمه !!

علو همَّة تحيِّر العقول وتَبْهَر الأفئدة :

انظر رحمك الله إلى مسئوليته تجاه مال المسلمين :

قال عبد الله بن عامر بن ربيعة : « صحبتُ عمر بن الخطاب من

المدينة إلى مكة في الحج ، ثم رجعنا ، فما ضُرب له فسطاطٌ ولا خِباء ، ولا كان له بناء يستظلّ به ، إنما يُلقي كساءً على شجرةٍ ، فيستظلّ تحته » .

وقال رضي الله عنه لبشار بن نمير : كم أنفقْنا في حجَّتنا هذه ؟ فقال بشار : خمسة عشر دينارًا . فقال : لقد أسرفنا في هذا المال .

لله دَرُّه .. يذوق وَقْدَة الحرِّ ، وَقَيْظ الجبال المستعرة ، ويُنفق خلال رحلته كلها خمسة عشر دينارًا ، ثم يقول : لقد أسرفنا !! وتحت عتبة خزائنه وُضعت أموال كسرى وقيصر .

وعدا وهَرْوَلَ وراء بعيرٍ أفْلَتَ من مَعْطِنِه ، فَلَقِيَهُ عليٌّ بن أبي طالب فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : بعيرٌ نَدَّ من إبل الصدقة أطْلُبُه . فقال عليٌّ : لقد أتعبتَ الذين سيجيئون من بعدك .

« وقدم الأحنف بن قيس على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في وفدٍ من العراق ، قدموا عليه في يومٍ صائفٍ شديد الحرّ ، وهو مُعتَجِرٌ بعباءةٍ يَهْنَأُ[1] بعيرًا من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ، ضَعْ ثيابك وهَلُمَّ ، فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة ، فيه حقُّ اليتيم والأرملة والمسكين . فقال رجلٌ من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلَّا تأمر عبدًا من عبيد الصدقة فيكفيك ؟ فقال عمر : وأيّ عبدٍ هو أعْبَدُ مني ومن الأحنف ؟! إنه من ولي أمر المسلمين : يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيِّده في النصيحة وأداء الأمانة »[2].

....

(١) الاعتجار : لفُّ العمامة على الرأس . وهَنَأْتُ البعير أهْنَؤُه : إذا طليْتُهُ بِالهِنَاء ، وهو القَطِران .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صـ ٧٣ .

وَقَبَّضَ المَحْـلَ بِبَسْطِ رَاحِـهِ ... أعْـدَى الجَهَـامَ جُودُهَا فَهَتَّنَا[(١)]

أوصافُـه تُمْلي على مُدَّاحِـهِ ... مـا سَطَّـرَ المجـدُ له وَدَوَّنَا

إذا رواهـا الدَّهْـرُ في أبياتِـهِ ... طـرَّبَ إعجابًا بهـا وَلَحَّنَـا

وإنْ بهـا وَرْقَـاء ليلٍ غَـرَّدَتْ ... مـدَّ إليهـا كلُّ غُصْـنٍ فَنَنَـا

عن ابن عمر قال : « قدمت رفقةٌ من التجار ، فنزلوا المصلَّى ، فقال عمر لعبد الرحمٰن بن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرق . فباتا يحرسانهم ويصلِّيان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبيٍّ ، فتوجَّه عمر نحوه ، فقال لأُمّه : اتَّقِ الله وأحْسِنِي إلى صَبِيِّك . ثم عاد إلى مكانه ، فلمَّا كان من آخِرِ الليل ، سمع بكاءَهُ ، فأتى أُمَّه فقال : ويحكِ ، إني لأراكِ أُمَّ سوءٍ ، ما لي أرى ابنك لا يَقَرُّ منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله ، قد أبرمْتَنِي[(٢)] منذ الليلة ، إني أُرِيغُه عن الفِطام . قال : وَلِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يَفْرِض للفطيم . قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهرًا . قال : ويحكِ ، لا تُعجليه . فصلَّى وما يَسْتَبِين الناس قراءته من غَلَبَةِ البكاء ، فلمَّا سلَّم قال : يا بُؤْسا لعمر ، كم قَتَلَ من أولاد المسلمين . ثم أمر مناديًا فنادى : أن لا تُعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولودٍ في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق أن يُفرض لكلِّ مولودٍ في الإسلام »[(٣)].

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجْنا مع عمر بن الخطاب إلى حَرَّةِ واقم[(٤)] ، حتى إذا كنا ....

---

(١) المحل : الجَدْب ، والجَهام : السحاب الذي لا ماء فيه ، وهَتَّنا : انصبَّ ماؤه .

(٢) أي أضجرتني .

(٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

(٤) واقم : أُطْم من آطام المدينة .

بِصِرار[١] إذا نارٌ ، فقال : يا أسلم ، إني أرى هاهنا رَكْبًا قد ضربهم الليل والبرد ، انطلِقْ بنا . فخرجنا نهرول حتى دَنَوْنَا منهم ، فإذا امرأة معها صِبيان ، وَقِدْر منصوبة على نار ، وصبيانها يَتَضَاغَون[٢] ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء . وَكَرِهَ أن يقول : يا أصحاب النار . فقالت : وعليكم السلام . فقال : أدنو ؟ فقالت : ادْنُ بخيرٍ ، أو دَعْ . فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت : ضَرَبَنا الليلُ والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصِّبية يتضاغون . قالت : الجوع . قال : أيّ شيءٍ في هذا القدر ؟ قالت : ماء أُسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . قال : أيْ رحمك الله ، وما يُدري عمر بكم ؟ قالت : يتولّى أمرنا ثم يغفل عنا ؟! قال : فأقبل عليّ ، فقال : انطلِقْ بنا . فخرجْنا نُهَرْوِل ، حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عِدْلًا من دقيق وكُبَّة من شَحْمٍ ، فقال : احْمِلْه عليَّ . فقلت : أنا أحمله عنك . فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟! لا أُمَّ لك . فحملْتُهُ عليه ، فانطَلَقَ وانطلقتُ معه إليها نُهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئًا ، فجعل يقول لها : ذُرِّي عليّ وأنا أُحرِّك لكِ ، وجعل ينفخ تحت القِدْر ، ثم أنزلها . فقال : ابْغِيني شيئًا . فأَتَتْهُ بِصَحْفَةٍ ، فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم . فلم يَزَل حتى شبعوا ، وترك عندها فَضْل ذلك . وقام وقُمتُ معه ، فجعلتْ تقول : جزاك الله خيرًا ، كُنتَ أوْلى بهذا الأمْر من أمير المؤمنين . فيقول : قُولي خيرًا ، إذا جئتِ أميرَ المؤمنين ، وجدْتِنِي هناك إن شاء الله . ثم تنحّى ناحيةً عنها ، ثم استقبلها فَرَبَضَ مَرْبِضًا ، فقلت : لك شأنٌ غير هذا ؟ فلا يكلِّمني ، حتى

---

(١) الصِّرار : الأماكن المرتفعة لا يعلوها الماء . وصرار : اسم جبل .
(٢) التَّضاغي : الصّياح والبكاء .

رأيتُ الصِّبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببتُ أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت[١] .

يا أمير المؤمنين ، بشِّر صاحِبَك :

عن أنس بن مالك قال : بَيْنَا عمر رضوان الله عليه يعسُّ بالمدينة ، إذ مرَّ بَرَحْبَةٍ من رحابها ، فإذا هو ببيتٍ من شعر ، لم يكن بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين امرأةٍ ، ورأى رجلًا قاعدًا ، فدنا منه فسلَّم عليه ثم قال : مَنِ الرَّجُل ؟ فقال : رجل من أهل البادية ، جئتُ إلى أمير المؤمنين أُصيب من فضله . فقال : ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت ؟ فقال : انطلِقْ - رحمك الله - لحاجتك . قال : عليَّ ذلك ، ما هو ؟ قال : امرأةٌ تُمخَّض . قال : هل عندها أحد ؟ قال : لا . قال : فانطَلَقَ حتى أتى منزلَهُ ، فقال لامرأته أُمّ كلثوم بنت علي - رضي الله عنهما - : هل لك في أجرٍ ساقه الله إليكِ ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة غريبة تُمخَّض ، ليس عندها أحد . قالت : نعم ، إن شئتَ . قال : فَخُذِي معكِ ما يُصلِح المرأة لولادتها من الخِرَق والدُّهن ، وجيئيني بِبُرْمَةٍ[٢] وشحمٍ وحبوب . قال : فجاءت به ، فقال لها : انْطَلِقِي . وحمل البُرمة ، ومشتْ خلفه ، حتى انتهى إلى البيت ، فقال لها : ادخُلي إلى المرأة . وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له : أوقِدْ لي نارًا . فأوقَدَ تحت البُرمة حتى أنْضَجَهَا ، وولدت المرأةُ ، فقالت امرأتُه : يا أمير المؤمنين ، بَشِّرْ صاحبَك بغلامٍ . فلمَّا سمع بأمير المؤمنين كأنه هابَه ، فجعل يتنحَّى عنه ، فقال له : مكانَكَ كما أنت . فَحَمَلَ البُرمة فوضعها على الباب ، ثم قال : أشْبِعِيها . ففعلتْ ، ثم أخرجتِ البُرمةَ فوضعتْها على الباب ،

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي صـ ٦٩ - ٧٠ .

(٢) قِدْر من حجارة .

فقام عمر رضي الله عنه ، فأخذها فوضعها بين يدي الرجل ، فقال : كُلْ ويحكَ ؛ فإنك قد سهرتَ من الليل . فَفَعَلَ ، ثم قال لامرأته : اخْرُجِي . وقال للرجل : إذا كان غدًا ، فأتِنَا نأمُر لك بما يُصلحك . ففعل الرجل فأجازَهُ وأعطاه[1] .

إنه العَجَب العُجاب ! أمير المؤمنين الذي تفتَّحتْ لأعلامِهِ الخافقاتِ أقطارُ الدنيا ، واستقبل الناسُ جيوشَهُ كأنها البُشْرَيَات ، تدكُّ جيوشُه معاقل كسرى وقيصر ، ويحرس قافلة ، يُؤرِّقُه بكاءُ طفلٍ ويُزلزله ، حتى يشرق بالدُّموع وهو يُصَلِّي بالناس ، تتولَّى زَوْجُه في الهزيع الأخير من الليل أمر سيِّدةٍ غريبةٍ أدركها المخاضُ ، ويجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها الطعام ويُوقد تحت البُرمة .

هذا عمر ! منارة الله في الدنيا وهديَّتُهُ إلى الحياة .. على مائدة سيرته أطايبُ العَظَمة .. عبقريٌّ صحَّحَ مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نورًا من رُوحه ، وكساها عظمةً من سلوكه ، وكان للمتقين إمامًا .

أعظم آيات التَّفوُّق الإنساني ، ونبوغ النفس ، وبطولة الرُّوح ، وإعجاز السلوك ، وعلوّ الهمّة .. هنا نرى ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعتْ ، ولا يكاد يخطر على قلب بشر .. هنا العظائم تتفوّق على نفسها ، ويَزْحَم بعضُها بعضًا ، هنا : « عمر » .. رضي الله عن عمر .. حاكم يحمل مسئولياته على نمطٍ فذٍّ ، ويُعطي البشرية جميعًا - إلى آخر لحظةٍ في الأبد - درسًا في القُدوة ، أيّ درسٍ .

موقفه من نفسه ، من أهله ، من الضعيف ، من القويّ ، من وُلَاتِهِ ،

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب صـ ٨٤ - ٨٥ .

من أموال الأُمَّة .. مواقفه هذه المُترعة بإجلالٍ منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله وتجاه أمانة الحُكم .

عام الرَّمَادَة .. وعمر الذي أوْحَدَتْ به أُمُّه :

عن أسلم قال : كنا نقول : لو لم يرفع الله سبحانه وتعالى المَحْل[١] عام الرَّمَادَة ، لَظَنَنَّا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين .

وعن أسلم : كان عمر رضي الله عنه يصوم الدهر ، فكان عام الرَّمادة إذا أمسى وأُتي بخُبزٍ ، أثْرَدَ بالزيت ، إلا أنه نحر يومًا من الأيام جَزُورًا ، فأطعمها الناس ، وغرفوا له طَيِّبها ، فأُتي به ، فإذا قَدْر من سَنَامٍ ومن كَبِد ، فقال : أنَّى هذا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، من الجَزُور التي نحَرْنا اليوم . فقال : بَخٍ بَخٍ ، بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيِّبها وأطعمت الناس كراديشها ، ارفع هذه ، هات لنا غير هذا الطعام . فأُتي بخبز وزيت ، فجعل يَكْسِر ويُثْرِد في ذلك الزيت ، قال : ويحك يا يَرْفَأُ[٢] ، احْمِلْ هذه الجَفْنَة حتى تأتي بها أهل بيت بِثَمْغ[٣] ، فإني لم آتِهم منذ ثلاثة أيامٍ ، وأحسبُهم مُقفِرين ، فَضَعْها بين أيديهم .

وقال ابن سعد : نظر عمر عام الرَّمادة إلى بِطِّيخةٍ في يد بعض ولده ، فقال : بَخٍ بَخٍ يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة وأُمَّة محمدٍ هَزْلَى ؟!! فخرج الصبيُّ هاربًا وبكى ، فقالوا : اشتراها بكفٍّ نَوَى .

قال عياض بن خليفة : رأيت عمر عام الرَّمادة ، وهو أسود اللون ،

---

(١) الجدب .

(٢) مولى عمر بن الخطاب .

(٣) بالمدينة .

ولقد كان أبيض ، كان رَجُلًا عربيًّا ، يأكل السمن واللبن ، فلمَّا أمْحَلَ الناسُ ، حرَّمهما ، فأكل الزيت حتى غيَّر لونَهُ ، وجاع فأكثر .

ما أكل السمن في عام الرمادة وقال : ما أنا بذائقه حتى يحْيا الناس .

وفي أيام المجاعة ونقْص اللحم والسمن ، أدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى أَنَّتْ أمعاؤه وقرقرتْ ، وجعل يمسح على بطنه ويقول : « والله لتموتنَّ أيتها البطن على الخبز والزيت ، ما دام السمن يُباع بالأواقي » .

وهكذا يحمل حظَّه من الخَصَاصة والضَّنْك ... عدل في ذُراه العالية التي تتقطّع الأنفاس دون بلوغها .

يُرسل إليه عتبة بن فرقد مع رسولٍ حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، فقال عمر للرسول : أكُلّ المسلمين هناك يَطْعَمون هذا ؟ قال الرجل : لا ، وإنما هو طعامُ الخاصَّة . فقال عمر للرجل : أين بعيرك ؟ خُذ حِمْلك هذا ، وارجع به لعتبة وقل له : عمر يقول لك : اتَّقِ الله ، وأشبع المسلمين ممَّا تشبع منه !!

علوّ همَّته في مُلاحظته لعُمَّاله ووُلَاته :

يُلزمهم صراطًا مستقيمًا أحَدَّ من الشَّفْرة وأدَقَّ من الشَّعْرة .

عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال : كان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، إذا استعمل عاملًا ، كتب عليه كتابًا ، وأشهد عليه رهطًا من الأنصار « أن لا يركب بِرْذَوْنًا ، ولا يأكل نَقِيًّا ، ولا يلبس رقيقًا ، ولا يُغلق بابه دون حاجات المسلمين » ، ثم يقول : اللهم اشهد .

وهو يريد من عُمَّاله أن يتفوّقوا على الناس بأناقة النفس ، لا بأناقة اللباس ، وبمحامد الأفعال لا بالمظاهر الكاذبة ، والغُبار الباطل !!! فيقول :

« أريد رجلًا إذا كان في القوم وليس أميرًا لهم ، بدا وكأنه أميرهم ، وإذا كان فيهم وهو أميرهم ، بدا وكأنه واحدٌ منهم !! » .

يا لبهاء عقلك وذكاء رُوحك .. هذا ما يريده عمر تمامًا : أمراء في أخلاقهم وتواضُعهم ، وليس في تَبَذُّخهم وعلوِّهم .

وفي الحجّ يقف في الناس خطيبًا : « أيـُّها الناس ، إني والله لا أبعث عُمَّالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنْ أبعثهم ليعلِّموكم دينكم وسُنَّة نبيِّكم ، فمن فُعِلَ به سوى ذلك فليرفعْه إليَّ .. فوالذي نفسي بيده لأُمكِّننَّه من القصاص » .

وكان عبد الله بن قرط من خير عُمّاله إلَّا أنه بنى دارًا فارهةً ، فقال له عمر : استعملتُك وشرطت عليك شروطًا ، فتركتَ ما أمرتُك به ، وانتهكتَ ما نهيتُك عنه ، أما والله لأُعاقِبنَّك عقوبةً أبلُغُ إليك فيها ، إيتوني بِدُرَّاعَةٍ من كساءٍ وعصا ، وثلاثمائة شاةٍ من شاءِ الصدقة . ثم قال له : البس هـذه الدّرّاعة ، وقد رأيت أباك ، وهذه خير من دُرّاعته ، وهذه خير من عصاه ، اذهب بهذه الشاءِ ، فارعها في مكان كذا وكذا ، وذلك في يومٍ صائِفٍ ، ولا تمنع السائل من ألبانها شيئًا ، واعلم أنّا آل عمر لم نُصِب من شاء الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئًا . فلمّا أمْعَنَ ردَّه ، قال : أفهمت ما قلت لك ؟ وردَّد عليه الكلام ثلاثًا ، فلمَّا كان في الثالثة ، ضرب بنفسه الأرض بين يديه ، وقال : ما أستطيع ذلك ، فإن شئتَ فاضرب عنقي . قال : فإن رددْتُك فأيّ رجلٍ تكون ؟ قال : لا ترى إلا ما تحبُّ . فردَّه ، فكان خير عاملٍ[1] .

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صـ ١١٩ - ١٢٠ ، و« خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد صـ ١٦٦ .

بل لما وصلتْ إليه شكوى من سعد بن أبي وقّاص ، وهو يتهيَّأ لمُنازلةِ جيوش الفرس في نهاوند ، وأنه قد اتَّخذ دون قصره بابًا ، فيرسل محمد بن مسلمة يطوف بسعد على الناس ، يسألهم رَأْيَهُم فيه ، فلا يقولون إلا خيرًا ، ويحرق محمد بن مسلمة الباب بأمرٍ من عمر حتى لا يحول بين الناس وبين خال النبي ﷺ .

هل ما نسطُر أسطورة .. بل لو كانت أسطورة لَصَعُبَ تصديقُها ، ولكنّ عمر لم يكن أُسطورة ، بل كان حقيقةً ملأتِ الزمان والمكان .. وكان هُدًى من الله ، يقول للناس : هكذا حاوِلُوا أن تكونوا .

عن الحسن البصري قال : « قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : لئن عشتُ إن شاء الله ، لأسيرنَّ في الرَّعيَّة حَوْلًا ، فإني أعلم أن للناس حوائج تُقطع عني ، أمَّا هم فلا يصلون إليَّ ، وأمَّا عُمَّالهم فلا يرفعونها إليَّ ، فأسير إلى الشام ، فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر ، فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأُقيم بها شهرين »[(١)] .

وكان يقول : « لئن سلّمني الله لَأَدَعَنَّ أرامل العراق لا يَحْتَجْنَ إلى رَجُلٍ بعدي »[(٢)] فما أتت عليه رابعة حتى أُصيب .

وإن تَعْجَبْ فاعْجَب « لمَّا طُعن عمر قال لابن عباس : اخْرُج يا ابن عباس ، فَسَلْ : مَنْ قتلني ؟ قال ابن عباس : فخرجت فسألتُ : مَنْ طَعَنَ أمير المؤمنين ؟ قالوا : طَعَنَهُ عدوُّ الله أبو لؤلؤة ، غلامُ المغيرة بن شعبة . قال : فدخلتُ ، فإذا عمر يُبْدي فيّ النظر ، يستأني خبر ما بعثني إليه ،

(١) مناقب عمر صـ ١٢١ .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر صـ ١١٤ .

فقلت : أرسلني أمير المؤمنين لأسأل مَنْ قتلَهُ ، فكلَّمتُ الناس ، فزعموا أنه طعنَهُ عدوّ الله أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طَعَنَ معه رهطًا ، ثم قتل نَفْسَهُ . فقال : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدةٍ سجدها له قطٌّ ، ما كانت العرب لتقتلني »[1] .

هذا عمر الذي لما طُعن ، اجتمع إليه البدريُّون ؛ المهاجرون والأنصار ، فقال لابن عباس : اخرج إليهم فسلهم : عن ملأٍ منكم ومشورةٍ كان هذا الذي أصابني ؟ قال : فخرج ابن عباس ، فسألهم ، فقال القوم : لا والله ، ولَوَدِدْنَا أن الله زاد في عمره من أعمارنا[2] .

هـذا الجبل الذي طلب المـوت وتمنَّى الشهادة خوفَ العجزِ عن الرَّعيَّة ، فقال : « اللهم كبرتْ سِنِّي ، وضعفت قوّتي ، وانتشرتْ رعيَّتي ، فاقبضني إليك غير مضيِّعٍ ولا مُفَرِّطٍ » . قالها لمَّا نفر من مِنى ، فما انسلخ ذو الحجة حتى طُعِنَ فمات .

جزى اللهُ خيرًا من إمامٍ وباركتْ ... يدُ اللهِ في ذاك الأدِيمِ المُمَزَّقِ
قضيتَ أُمُورًا ثم غادرتَ بعدها ... بَـوَائِقَ في أكمامهـا لم تُفَتَّـقِ
وكنتَ تَشُوبُ العَدْلَ بالبِرِّ والتُّقَى ... وكنتَ صَلِيبَ الدِّينِ غيرَ مُزَوَّقِ
فَمَنْ يَسْعَ أو يركبْ جَنَاحَيْ نَعَامَةٍ ... لِيُدْرِكَ ما قـدَّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

ذو النُّورَيْن عثمان ، أميرُ البَرَرَة وقتيل الفَجَرَة :

العظيم الذي حَمَلَ مسئوليته في عزمٍ مجيد ورشيدٍ .. وحين لم يجد ما يحمي به مسئولياته سوى حياته ، جاد بها في سماحٍ منقطع النظير !!

---

(١) مناقب أمير المؤمنين صـ ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢) طبقات ٣ / ٣٤١ ، ومناقب أمير المؤمنين صـ ٢١٦ .

وذات يومٍ ، وقد ضاقت الدنيا لصموده ، امتطتْ رُوحُه زورقَ الأبدِيَّة ، مُبحِرةً إلى ربِّها الودود المجيد ، فوق ثَبَجٍ من دمائه الغالية الزَّكيَّة .

عثمان المهاجر وأوَّل المهاجرين .. مهاجر الهجرتين .. بل المهاجر بقلبه ، وبروحه وبضميره ، حتى اللحظة التي لقي ربَّه صابرًا محتسبًا .

عثمان المعطاء ، والمموِّل الوحيد للأُمَّة الجديدة ، والدِّين الجديد ، وسلُوا جيش العُسْرة ... وسلوا بئر رومة ، واسمعوا دعاء النبي ﷺ له : « غفر الله لك يا عثمان ما أسررتَ وما أعلنت » .

يقوم عثمان بتجهيز جيش العُسرة كلِّه ، حتى لم يتركه بحاجةٍ إلى خِطام أو عِقال . قال ابن شهاب : « قدَّم عثمان لجيش العُسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيرًا وستين فرسًا ، أتمَّ بها الألف » .. إنه عثمان المهاجر من ماله ومن جاهه .. إنه البذْل السَّخيّ والعطاء المِدْرار .

عثمان الزاهد الأوَّاب الرحيم :

قال شرحبيل بن حسنة : كان عثمان يُطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخلَّ والزيت .

وقال الحسن : رأيت عثمان بن عفان يَقِيل في المسجد وهو يومئذٍ خليفةٌ ، ويقوم وأثر الحصى بجَنْبِهِ ، فنقول : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين[1] .

وقال عبد الله بن شدَّاد : « رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوبٌ قيمته أربعة دراهم ، وإنه يومئذٍ لأمير المؤمنين !! » وهو أكثر قومه مالًا وثراءً ونعمةً في الجاهلية والإسلام .

---

(١) التبصرة ١ / ٤٣٠ .

إنه العابد الأوَّاب ، الذي أضْوَى شهوة الطعام لَدَيْهِ حتى « بَشِمَتْ » بالصيام ، ومن أيّ النواحي جئتَهُ ، أَلْفَيْتَ جلال العابد يَبْهَر مُحَيَّاك .

يغضب على خادمٍ له يومًا ، فيَعْرُك أُذُنَه حتى يُوجعه .. ثم سرعان ما يدعو خادمَهُ ، ويأمره أن يقتصَّ منه فيعرك أذنَهُ .. ويأبى الخادم ، ويأمره عثمان في حزمٍ ، فيُطيع : « اشدُدْ يا غلام ، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » .

إنه عثمان الذي يقرأ القرآن في ركعةٍ ، وفيه نزل قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ **أمَّن هو قانتٌ آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربِّه** ... ﴾ الآية [الزمر : ٩] . عبادة صافية مُثابِرة ، أُتْرِعت وازدانت بها حياةُ عثمان منذ عرف الله إلى أن لَقِيَهُ شهيدًا مجيدًا .

عثمان الرحيم الذي تشيع الرحمة في حياته ، وتكون نبراسًا لكلِّ تصرُّفاته العادية ، والتي يتوقَّف عليها أمر الحياة والموت .. كانت الرحمة نبراس هاتيك التَّصرُّفات جميعها .

عثمان الخليفة الطاعن في السِّنّ ، الذي يرفض أن يُوقظ أحدًا من خَدَمِه كي يُعِدّ له وضوءه ، ويتحامل على شيخوخته المجهدة في إحضار الماء وإسباغ الوضوء .

ولما اشتدَّ حصار الثُّوّار لداره ، قال للصحابة الذين تجمَّعُوا حول داره ليُواجهوا الثُّوَّار بالسلاح : « إن أعظمكم عني غَنَاءً ، رجلٌ كفَّ يده وسلاحه !! » .

ويقول لأبي هريرة وقد جاء شاهرًا سلاحه مُدافعًا عنه : « أما إنك والله لو قتلتَ رجلًا واحدًا ، لكأنَّما قتلتَ الناس جميعًا » .

ويقول للحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير ، وشباب الصحابة الذين أخذوا مكانهم لحراسته : « أُناشدُكم الله وأسألكم به ، ألَّا تُراق بسببي مِحْجَمَة دمٍ » .

قال ابن عمر : جاء عليٌّ إلى عثمان يوم الدار ، وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن عليّ وعليه سلاحه ، فقال للحسن : ادخُل إلى أمير المؤمنين ، وأقرئه السلام ، وقُل له : إنما جئتُ لنُصرتك ، فمُرْني بأمرك . فدخل الحسن ثم خرج ، فقال لأبيه : إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام ، ويقول لك : لا حاجة لي في قتالٍ وإهراق الدماء . قال : فنزع عليٌّ عمامةً سوداءَ فرمى بها بين يدي الباب ، وَجَعَلَ يُنادي : ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين** ﴾[1] . [يوسف : ٥٢] .

لله دَرُّكَ يا عثمان .. رحمةٌ جامعة تغطِّي بعطائها المقسط جلائل الأحداث وصغارها ، فللخادم منها حظُّه وحقُّه في أن ينعم براحة النوم ، وإن أضنى الخليفةُ نَفْسَه وشيخوخته في ظُلمة الليل البهيم ... ولقطراتِ الدَّم حظُّها وحقُّها في أن تنعم بالسلام والعافية ، وإن كان بديل ذلك أن تَزْهَق رُوحُ الخليفة الشيخ بيدِ مُعتدٍ أثيم ، وَغَادِرٍ زنيم .. توغَّلتِ الرحمةُ في حياته وفي سلوكه ، حتى اقتضتْهُ آخر الأمر حياتَهُ نَفْسها ، فجاد بها .

ولقد كان من الطبيعيّ لرجلٍ وسعتْ رحمتُه الناس جميعًا ، أن تغطِّي رحمتُه ذوي قُرباه ؛ قال علي رضي الله عنه : « أوْصَلُنا للرَّحِم عثمان » . لقد كان عثمانُ في ذلك نَسِيجَ وَحْدِهِ .

* * *

(١) التبصرة ١ / ٤٣١ .

الفتوح في عهد عثمان كماءٍ منهمر :

لله دَرُّ الخليفة الكهل ، الذي بلغ السابعة والسبعين من عمره ، يوم يُفكِّر ويُقَدِّر ويُخطِّط ، ويعزم ويحزم ، وكأنما قد حلَّ داخل إهابه شبابُ التاريخ !!

هذا الخليفة العظيم الكهل ، الذي يَبْهَر بِمَضَاءِ عزمه ، حتى يجهِّز الجيوش للبحر ، وركبَ جنودُه ثَبَج البحر مِثْل الملوك على الأسِرَّة في غزو قبرص ، وفي غزوة ذات الصَّواري ...

وسارتْ جيوشُ الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان :

فمعاوية يُوغل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب « القسطنطينية » ذاتها . وإلى فارس ، وكرمان ، وسجستان ، ومرو ، يزحف ابنُ عامر ، والأحنفُ بن قيس ، والأقرع بن حابس . ومُهِّدت الأرض لزحف المسلمين ، حتى بلغوا السودان والحبشة في الجنوب ، والهند والصين في المشرق . وخلال عهده رضي الله عنه بلغتِ الفتوحاتُ أبعدَ الآماد ، وأَرْحَبَ الآفاق .

عثمان رضي الله عنه يجمع المسلمين على مصحفٍ واحد :

وأدرك عثمان رضي الله عنه الأُمَّة قبل أن تختلف في كتابها ، كما اختلف الذين من قبلهم في كتبهم ، وجمع الأُمَّةَ على مصحفٍ واحدٍ جامعٍ ، يلتقي المسلمون حول آياته المباركات عبر القرون تلو القرون .

هكذا أعطى عثمان عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام .. وملأ بصدْقه وباقتداره وبإقدامه فراغًا كان يمكن أن يتحوَّل إلى هوَّةٍ فاغرةٍ ، تشدّ إلى قيعانها الغائرة البعيدة ، كثيرًا من مُقدَّرات الدِّين ومصاير المسلمين .

* * *

إن أرادك المنافقون على خَلْع قميصك ، فلا تَخْلَعْه حتى تلقاني :

وَمَنْ للعظائم غيرُ العظيم .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عثمان ، إن الله مُقَمِّصُك قميصًا ، فإن أرادك المنافقون على خَلْعِهِ ، فلا تَخْلَعْهُ حتى تلقاني »(١) .

لله دَرُّه في محنته .. محنةٌ هبطتْ بها شراسةُ المُتآمرين إلى السَّفْح ، وارتفع بها تسامُحُ الخليفة إلى القمَّة .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مشتْ أُمَّتي المُطَيْطَاء ، وَخَدَمَهَا أبناءُ الملوك ؛ أبناء فارس والروم ، سُلِّطَ شرارُها على خيارها »(٢) .

مؤامرة يتولَّاها ويُعدُّ لها النّاقمون على الإسلام كله : الدِّين والدولة والأُمَّة .

لقد سيطر على رُوع الخليفة واجب - وهو يرى المدَّ المتآمر - بدا له - يومئذٍ - أنه أهمّ الواجبات وأقدسها ؛ ذلكم هو « المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها » . فهذه الفتنة المخرِّبة ، والتَّمرُّد الآبِق ، يهدفان إلى هدْم كيانها ودحْر قِيَمِهَا ، واعتصامُ الدولة بكبريائها وسلطانها ، يُصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة . لقد وعى خليفتُنا عهدَ رسول الله إليه ببصرٍ ثاقبٍ ، وَحَمَلَ مسئوليته بعزمٍ مجيدٍ .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد والترمذي ، وابن ماجه والحاكم ، وابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩٤٧ .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٠١ .

من شاء أن يُبصر علوّ الهمَّة في الاستمساك ، في أجلّ وأرْوَعِ وأبهى صُوَرِه ، لا للفوضى ، حتى ولو كان فيها قَتْلُه : تُواتيه فرصة قتال الثُّوّار وقَتْلهم ، فيرفضها .

ومع هذا ، حين أخرج الثُّوّار ورقتهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرهم في جُرأةٍ ضاريةٍ : « إمّا اعتزال عثمان ، وإمّا قَتْلُه » . في ثباتٍ مُذْهِلٍ يرفض الخليفة أن يعتزل .

أيمكن لرجلٍ جاوز الثمانين ، أن يستبدّ به طموحُ المنصب ومجدُه وجاهُه ، والأخطار والمهالك على هذا النحو المُزلزِل الرهيب .

لقد رفض عثمان أن يعتزل ؛ لأنه « رجل مسئوليات » من طرازٍ فريد .

وهذا الخلق كان مخبوءًا تحت ستار تواضُعه وحيائه ، وما كُنّا سنراه متألِّقًا كالشمس في رائعة النهار ، إلَّا في أزمةٍ كهذه .. ومحنةٍ كهذه .. وموقفٍ كهذا الموقف الزاخر العظيم . أفيرضخ ويُسلِّم مصاير الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابةٍ مفتونة ؟ لا ، وألف لا .

قال له ابن عمر : « لا تَسُنّ هذه السُّنَّة في الإسلام ، ولا تخلع قميصًا ألبسكه الله » .

منعوه زُوَّارَهُ ، ومنعوه الماء .. الذي تتفجَّر به بئر رومة التي اشتراها من خالص ماله وأهداها للمسلمين .

سبحان الله ! ما أعلى هذه الهمة ... صبر على حقن الدماء ولو سالت دماؤه ... وحفاظ على هيبة الدولة ولو ذُبح .

حاصروه أربعين يومًا ، وعنده في الدار من المهاجرين والأنصار قريبٌ من سبعمائة ، وخَلْقٌ من مواليه ، ولو تَرَكَهُم لَمَنَعُوه ، فقال لهم : أُقسِم

على مَن لي عليه حقّ ، أن يَكُفَّ يده ، وأن ينطلق إلى منزله . وقال لرقيقه : مَنْ أَغْمَدَ سيفَهُ فهو حُرّ .

عن نافع عن ابن عمر ، أن عثمان رضي الله عنه أصبح يحدِّث الناس ، قال : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال : « يا عثمان ، أفطِرْ عندنا » . فأصبح صائمًا وقُتل من يومه[1] .

واستسلم عثمان لأمر الله رجاءَ موعوده ، وشوقًا إلى رسوله ﷺ ، ليكون خيرَ ابْنَيْ آدم : ﴿ **إني أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** ﴾ . [المائدة : ٢٩] .

كان عثمان أكثر الناس يقينًا بصدْق رؤياه .. سينطلق في عُرسه العظيم إلى رحاب الله وجوار محمدٍ ﷺ ورحلة الخلود .

ولما أصابوا كَفَّهُ قال : « والله إنها لأول يدٍ خطَّتِ المُفصَّل وكتبتْ آيَ القرآنِ » .. وسال الدم على قوله تعالى : ﴿ **فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾ . [البقرة : ١٣٧] .

لقد كان همُّه ألا تسقط راية الخلافة من يمينه .. وألا يلقى الله – حين يلقاه – وعلى يديه قطرةٌ واحدة من دماء مسلمة .

وحين تمدَّد جثمانُهُ الطّهور ، كان كتاب الله لصيقَهُ وصديقَهُ .. ومَنْ أولى بذلك منه ؟! وهو الذي وحَّده ، وحفظه وافتداه .

ضَحَّوْا بأشْمَطَ عنوانُ السجودِ به يُقَطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقُرآنَا

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ١٩٠ .

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه :

إن حياة أبي السِّبطيْن وأبي تراب عليٍّ بن أبي طالبٍ ، تتفجَّر عظمةً وجلالًا وإعجازًا ، فمن عظمة نفسه وعلوّ همَّته ، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد ، تتلألأ عليها بطولاتٌ وتضحيات ، عظائمُ وأمجاد ، تكاد تحسبها - لولا صِدْق التاريخ - أحلامًا وأساطير .. مسلم عظيم ، يفجّرُ الدنيا من حواليه ذمَّةً ، واستقامةً ، وطُهرًا ، وذُرًا سامقة وغاياتٍ بعيدة . عظمة لن تكُفَّ عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًّا ، يُمارس العظائم ، ويصوغ المَكْرمَات .

يقول ضرار بن ضمرة الكناني في وصف عليٍّ : « كان بعيدَ المَدَى ، شديد القُوَى ... يقول فَصْلا ، ويحكُم عدلًا ... يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ... كان غزير الدمعة ، طويل الفِكرة ، يقلِّب كَفَّيْهِ ويُخاطب نفسه ، يُعجبه من اللباس ما خشُن ، ومن الطعام ما جشب .. لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيفُ من عدله .. وأشهد ، لقد رأيتُه في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليلُ سُدُولَه ، وغارتْ نجومُه ، وقد مَثَل في محرابه ، قابضًا على لحيته ، يتململ تململُ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا ، يا دنيا ، إليَّ تعرَّضتِ ، أم إليّ تشوَّقْتِ ؟ هيهات هيهات غُرِّي غيري ، قد أَبَنْتُكِ ثلاثًا لا رجعة فيها !! فعمرُكِ قصير ، وعيشُكِ حقير ، وخَطَرُكِ كبير ، آهٍ من قلة الزّاد وبُعد السفر ، ووحشة الطريق » .

كان رضي الله عنه يُخرج كلَّ ما كان في بيت المال لمستحِقِّيه ، حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمامُ أن تُنضح أرضُه ويُغسَل بالماء ، حتى إذا تمَّ ذلك ، قام فصلَّى فوق أرضه المغسولة ركعتين !!

كانت هذه الصلاة في بيت المال ، بعد أن نضح أرضه بالماء ، رمزًا

لمعنًى جليل ، كان إيذانًا بعهدٍ جديدٍ ، تُسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويستردّ الورع والتُّقى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعًا .

دُعِيَ لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامتُه في شموخٍ وفتنة .. فلا يكاد يُبصره حتى يولّي مدبرًا وهو يقول : « قصر الخَبَال هذا ، لا أسكنه أبدًا » .

ويرتدي جلبابًا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم ، ويركب حمارًا ويقول : « دَعُوني أُهِن الدنيا » .

« خطب رضي الله عنه الناس فقال : أيها الناس ، والله الذي لا إلٰه إلا هو ، ما زريتُ من مالكم قليلًا ولا كثيرًا ، إلَّا هذه . وأخرج قارورةً من كُمِّ قميصه فيها طيب ، فقال : أهداها إليَّ الدُّهْقان . ثم أتى بيت المال فقال : خذوا . وأنشأ يقول :

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ له قَوْصَرَهْ[1] ... يأكُلُ منهــا كلَّ يومٍ تمــرهْ

لله دَرُّه وهو يقول : « أأقنع من نفسي بأن يُقال : أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين في مَكَارِهِ الزمان ؟! والله لو شئتُ لكان لي من صفْو هذا العسل ، ولباب هذا البُرِّ ، ومناعم هذه الثياب ، ولكنْ هيهات أن يغلبني الهوى ، فأبيت مِبطانًا وحولي بطونٌ غَرْثَى وأكبادٌ حرَّى » .

فعليٌّ رضي الله عنه مقيمٌ لم يرحل .

يجد عصرنا هذا في نهجه وحُكمه أستاذًا ومعلِّمًا وهاديًا .. يعلِّم الحُكّام في كلِّ جيلٍ وعصرٍ أن الولاء للحقّ يعني رَفْض إغراء الدنيا ، ورفض

---

(١) وعاء من قصب يُجعل فيه التمر .

غرور السلطان .

قال الإمام أحمد بن حنبل : إن عليًّا ما زانَتْهُ الخلافةُ ، ولكنْ هو زانَها .

ما زانه المُلْكُ إذ حواه ... بل كلُّ شيءٍ به يُزانْ
جرى ففاتَ الملوكَ سَبْقًا ... فليس قُدّامَهُ عَنَّانْ
نالتْ يَدَاهُ ذُرا مَعالٍ ... يعجِزُ عن مِثْلِهَا العِيانْ

رضي الله عن أبي ترابٍ :

ولم يَرَ إلَّا الكدَّ راحةَ نَفْسِهِ ... وَنَيْل المُنى يُنسي الفتى تَعَبَ الكَدِّ
إذا لاحَظَ الغاياتِ عادتْ فريسةً ... مقيَّدةً من ناظِرِ الأسدِ الوَرْدِ

رضي الله عنه :

ما باتَ إلَّا على هَمٍّ ولا اغْتَمَضَتْ ... عيناهُ إلَّا على عَزْمٍ وإزْمَاعِ
يذوقُ بالعينِ طَعْمَ النَّوْمِ مضمضةً ... إذا الجبانُ ملا عينًا بِتَهْجَاعِ

منازل عُلا في الزهد يُحلِّق فيها البطل الزاهد الأوَّاب ، لقد كانت هوايته الكبرى : إهانة الدنيا وإذلال مغرياتها الهائلة ؛ بأن يرفع في وجهها يدًا لا تهتزُّ ولا تختلِج ، تقول لتلك المغريات : لا .

قال سفيان الثوريُّ : ما بنى عليٌّ لَبِنَةً ، ولا قَصَبَةً على لبنةٍ ، وإن كان لَيُؤتى بحبوبه من المدينة في جِرابٍ .

وعن مجمع بن سمعان التيمي قال : خرج علي بن أبي طالب بسيفه إلى السوق ، فقال : من يشتري مني سيفي هذا ؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزارًا ، ما بِعْتُه .

وكان – رضي الله عنه – معه دِرَّةٌ له ، يمشي بها في الأسواق ،

ويأمر الناس بتقـوى الله وحُسن البيع ، ويقول : أوفُوا الكيْل والميزان . ويقول : لا تنفخوا اللحم .

وخرج ذات يومٍ وعليه بُرْدان ، مُتَّزِرٌ بأحدهما ، مُرْتَدٍ بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانبًا ، وقال : إنما ألبس هذيْن الثوبيْن ليكونا أبعد لي من الزَّهْو ، وخيرًا لي في صلاتي ، وسُنَّة للمؤمن .

قال عمر بن عبد العزيز : أزهدُ الناس في الدنيا عليٌّ بن أبي طالب .

وقال الحسن : رَحِمَ اللهُ عليًّا ، إن عليًّا كان سهمًا لله صائبًا في أعدائه ، وكان في مَحَلَّةِ العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ ، وكان رَهْبانيّ هذه الأُمَّة ، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقَة ، ولا في أمر الله بالنُّوَمَة ، أعطى القرآن عزائِمَهُ وعملَهُ وعِلْمَهُ ، فكان منه في رياضٍ مُونِقَةٍ ، وأعلامٍ بيِّنة ، ذاك عليّ بن أبي طالب .

علوّ همَّةِ عليٍّ - رضي الله عنه - للمُتأَوِّلين والمارقين من الخوارج :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : كُنَّا جلوسًا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج علينا من بعض بيوت نسائه . قال : فقُمنا معه ، فانقطعت نعلُه ، فتخلَّف عليها عليٌّ يخصفها . فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومضيْنا معه ، ثم قام ينتظره وقمنا معه ، فقال : « إن منكم من يُقاتل على تأويل هذا القرآن ، كما قاتلت على تنزيله » . فاستشرفْنا ، وفينا أبو بكر وعمر ، فقال : « لا ، ولكنَّه خاصِف النَّعْل » . قال : فجئنا نبشِّره . قال : وكأنَّه قد سَمِعَهُ[1] .

وقال علي رضي الله عنه في الخوارج : « لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم

---

(١) حديث حسن : رواه أحمد في المسند .

ما قُضي لهم على لسان نبيِّهم صلى الله عليه وآله وسلم ، لاتَّكَلُوا عن العمل » .
رواه مسلم .

وقال فيهم علي رضي الله عنه : « فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتْلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة » . رواه البخاري .

الحسن بن عليّ ، السيِّد الذي أصلح اللهُ به بين طائفتيْن :

الحسن بن علي رضي الله عنه : سِبْط النبي ﷺ ، وريحانتُهُ ، وآخِر الخلفاءِ بنصِّه ﷺ .

أخرج البخاري عن أبي بكرة قال : سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنْبه ، ينظر إلى الناس مرَّة وإليه مرَّة ، ويقول : « إن ابني هذا سَيِّدٌ ، ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتيْن من المسلمين » .

خرج - رضي الله عنه - عن ماله لله مرَّتيْن ، وقاسم الله ماله ثلاث مرّات ، حتى إنه كان يُعطي نعلًا ويُمسِك نعلًا ، ويُعطي خُفًّا ويُمسك خُفًّا .

وروى الحاكم بسنده ، عن جبير بن نفير قال : قلتُ للحسن : إن الناس يقولون : أنَّك تريد الخلافة . فقال : قد كان جماجم العرب في يدي يُحاربون مَنْ حاربتُ ، ويُسالمون من سالمتُ ، فتركتُها ابتغاءَ وجهِ الله وحقْن دماءِ أُمّةِ محمدٍ ﷺ ، ثم ابتزَّها بأتياس أهل الحجاز .

رضي الله عن ذلكم السيد الذي يتنازل عن الخلافة لحقْن دماء المسلمين ... وهذه والله همَّةٌ تتقاصرُ دونها الهمَم .

لمَّا مات رضي الله عنه ، بكى مروان في جنازته ، فقال له الحسين : أتبكيه وقد كنت تُجرِّعه ما تجرِّعه ؟ فقال : إني كنت أفعل ذلك إلى أحْلَمَ

من هذا . وأشار بيده إلى الجبل .

أمير المؤمنين ملك الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، أعْدَل الملوك وأحْلَمُهم ، خالُ المؤمنين وكاتب وحي ربِّ العالمين :

قال الذهبي في السير (٣ / ١٥٩) : ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عَدْلُهم على ظُلمهم ، وما هو ببريءٍ من الهنات ، والله يعفو عنه .

قال أبو إسحاق السَّبيعي : كان معاوية ، وما رأينا بعده مِثْله .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقْضَى بحقٍّ من صاحب هذا الباب ؛ يعني معاوية .

قال المدائني : كان عمر إذا نظر إلى معاوية ، قال : هذا كسرى العرب .

قال رضي الله عنه على المنبر : « لقد أردتُ نفسي على عمل أبي بكرٍ وعمر ، فلم أجِدْها تقوم بذلك ، ووجدتُها عن عمل عمر أشدَّ نفورًا ، وحاولتها على مِثْل سُنَيّات عثمان ، فأبتْ عليّ ، وأين مثل هؤلاء ؟! هيهات أن يُدْرَك فضلُهم ... فإن لم تجدوني خَيْرَكم ، فأنا خيرٌ لكم ، والله لا أحمل السيف على مَنْ لا سيف له » .

وقال رضي الله عنه : « إني لستُ بِخَيْرِكم ، وإن فيكم مَنْ هو خيرٌ مني : ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو وغيرهما ، ولكنّي عسيتُ أن أكون أنكاكم في عدوِّكم ، وأنْعَمكم لكم ولايةً ، وأحْسَنكم خُلُقًا » .

قال ابن عمر : ما رأيتُ أحدًا أسْوَدَ من معاوية .

وقال ابن عباس : ما رأيتُ رجلًا كان أخْلَقَ للمُلْك من معاوية ، كان الناس يَرِدُون منه على أرجاءِ وادٍ رَحْبٍ ، لم يكن بالضَّيِّق العُصْعُص[1]

(١) أي الصعب الأخلاق .

المتغضِّب . يعني ابن الزبير .

وقال كعب بن مالك : لن يملك أحدٌ هذه الأُمَّة ما مَلَكَ معاوية .

ولله دَرُّه وعلوّ همَّته في التَّحلِّي بمكارم الأخلاق ، وكان حلمه يُضرب به المَثَل .

عن قبيصة بن جابر قال : صحبتُ معاوية ، فما رأيتُ رجُلًا أثْقَلَ حِلمًا ، ولا أبْطأَ جهلًا ، ولا أبْعَدَ أناةً منه .

قال رحمه الله : « إني لأرفع نَفْسي أن يكون ذنبٌ أوْزَنَ من حِلْمي » .

لله دَرُّكَ ، ورضي الله عنك .

قال ابن عون : كان الرجل يقول لمعاوية : والله لتستقيمنَّ بنا يا معاوية ، أوْ لنُقَوِّمَنَّك ، فيقول : بماذا ؟ فيقولون : بالخُشُب[1] . فيقول : إذن أستقيم .

قال عروة : أخبرني المسور بن مخرمة أنه وَفَدَ على معاوية ، فقضى حاجته ، ثم خلا به ، فقال : يا مِسْوَر ، ما فعل طَعْنُك على الأئمة ؟ قال : دَعْنا من هذا ، وأحْسِن . قال : لا ، والله لَتُكَلِّمني بذات نَفسِك بالذي تعيب عليَّ . قال مسور : فلم أترُك شيئًا أعِيبُهُ عليه إلا بيَّنتُ له . فقال : لا أبرأ من الذنب ، فهل تعدُّ لنا يا مسور ما نَلِي من الإصلاح في أمر العامَّة ، فإن الحسنة بعشرِ أمثالها ، أم تعدّ الذنوب ، وتترك الإحسان ؟! قال : ما تُذكر إلا الذنوب . قال معاوية : فإنا نعترف لله بكل ذنبٍ أذنبناه ، فهل لك يا مسور ذنوبٌ في خاصَّتك تخشى أن تُهْلِكَك إن لم تُغفر ؟ قال :

---

(١) ابن عساكر ١٦ / ٣٦٨ / ب . والخُشُب جمع خَشيب : وهو السيف الصقيل .

نعـم . قال : فما يجعلك لله برجاء المغفرة أحقّ منّي ، فوالله ما ألـي مـن الإصلاح أكْثَر ممَّا تلي ، ولكنْ والله ، لا أُخَيَّر بين أمرَيْن ؛ بين الله وبين غيره ، إلا اخترتُ الله على ما سواه ، وإني لعلى دينٍ يُقبل فيه العمل ، ويُجزى فيه بالحسنات ، ويُجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها . قال : فخَصَمَني . قال عروة : فلم أسمع المِسْور ذَكَرَ معاوية ، إلَّا صلَّى عليه[1].

قال رضي الله عنه : « رَحِمَ الله مَنْ دعا لي بالعافية ، فوالله لئن عتبَ عليَّ بعضُ خاصَّتكم ، لقد كنت حَدِبًا على عامَّتكم » .

ولما احْتُضِرَ رحمه الله ، قال : « اللهم أَقِلِ العَثْرة ، واعْفُ عن الزَّلَّة ، وتجاوز بحِلْمِك عن جَهْل من لم يَرْجُ غَيْرَك ، فما وراءك مذهبٌ » .

ولقد بلغ معاويةُ الغاية من الحِلْم ، وعَلَتْ به همَّتُه في هذا الخُلُق ، فقد خاطر رجلٌ رجلًا أن يقوم إلى معاوية إذا سجد ، فيضع يَدَهُ على كَفَلِهِ ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، ما أشْبَهَ عجيزتَك بعجيزة أُمِّك هند . فَفَعَلَ ذلك ، فلمَّا انْفَتَلَ معاويةُ عن صلاته قال : لا يا ابن أخي ، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أمْيَل ، فَخُذ ما جعلوا لك . فأخَذَهُ[2].

رضي الله عن معاوية ، قال فيه أبو الجهم العدوي :

ونُغضِبُـه لنَخْـبُرَ حالَتَيْـهِ فَنُخْـبَرَ منهمـا كـرمًا ولِينَـا
نمِـيلُ على جوانبـه كأنَّا نَمِيلُ إذا نَمِيلُ علـى أبِينَـا

قال رحمه الله ورضي عنه : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أنَّ بيني وبين الناس شعرةً ،

---

(١) رجاله ثقات . وهو في المصنف (٢٠٧١٧) ، وتاريخ بغداد ١ / ٢٠٨ .

(٢) العقد الفريد ١ / ٥٣ .

ما انقطعت أبدًا . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنتُ إذا مدُّوها أرخَيْتُها ، وإذا أرْخَوْها مَدَدْتُهَا[(١)] .

ولله ما أحْلَى كلمته في كراهته للظُّلم : « إني لأستحي أن أظْلِمَ مَنْ لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله »[(٢)] .

وقال رضي الله عنه : إني لأستحيي أن يكون ذنبٌ أعْظَمَ من عَفْوي ، أو جهلٌ أكْبَر من حِلْمي ، أو أن تكون عورةٌ لا أُواريها بستْري .

وقال رضي الله عنه : ما يسرُّني بذلِّ الكَرَم حُمْر النَّعَم . وقال : ما يسرني بذُلِّ الحِلْمِ عزّ النصر . وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرَّأْي حتى يغلب حِلْمُه جهلَهُ ، وصبرُه شهوتَهُ .

وقال فيه عبد الله بن الزبير : « لله دَرُّ ابن هندٍ ، إن كُنّا لَنُفْرِقه وما اللَّيثُ على براثنه بأجرأ منه ، فيتفارق لنا ، وإن كُنَّا لَنَخْدَعُه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدْهَى منه ، فيتخادع لنا ، والله لَوددتُ أنَّا مُتِّعنا به ما دام في هذا الجبل حَجَر »[(٣)] .

قال سعيد بن عبد العزيز : لَمَّا قُتل عثمان ، لم يكن للناس غازيةٌ تغزو ، حتى كان عام الجماعة فأغْزَى معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سريَّةٌ في الصيف ويُشَتُّوا بأرض الروم ، ثم تَقْفِل[(٤)] وتُعقبها أُخرى ، وكان في جملة مَن أغزى ابنُهُ يزيد ، ومعه خلْق من الصحابة ،

---

(١) العقد الفريد ١ / ٢٥ .
(٢) العقد الفريد ١ / ٣١ .
(٣) البداية والنهاية ٨ / ١٣٨ - ١٣٩ .
(٤) ترجع .

فجاز بهم الخليج ، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها ، ثم قفل بهم راجعًا إلى الشام ، وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال : شدّ خِناق الروم .

قد كان عليٌّ أقْرَب إلى الحقِّ من معاوية .. قال أبو زرعة لرجلٍ قال له : إني أبغض معاوية لأنه قاتل عليًّا ، فقال له أبو زرعة : « ويحك ! إن ربَّ معاوية رحيم ، وخَصْم معاوية خصمٌ كريم ، فأيش دخولك بينهما ؟! رضي الله عنهما » . قال تعالى : ﴿ **تلك أُمَّةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عمَّا كانوا يعملون** ﴾ . [البقرة : ١٣٤] .

الوليد بن عبد الملك ، فُتِحت الفتوحاتُ العظيمة في عهده كأيَّام عمر بن الخطاب :

قال السيوطي : « أقام الجهادَ في أيامه ، وفُتحت في خلافته فتوحات عظيمة ، وكان مع ذلك يختن الأيتام ، ويُرتِّب لهم المؤدِّبين ، ويرتِّب للزَّمْنَى مَنْ يخدمهم ، وللأضِرَّاء من يقودهم ، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء ، وحرَّم عليهم سؤال الناس ، وفَرَضَ لهم ما يكفيهم ، وضبطَ الأُمورَ أتمَّ ضَبْطٍ .

قال ابن أبي عبلة : رحم الله الوليد ، وأين مثل الوليد ؟! افتتح الهند والأندلس ، وكان يُعطيني النفقة [قصاع الفضة] أُقسِّمها على قُرَّاء مسجد بيت المقدس » .

فُتحت في عهده سنة ٨٧هـ : بيكند ، وبُخارى ، وسردانية ، ومطمورة ، وقميقم ، وبحيرة الفرسان عنوة .

وفي سنة ٨٨هـ فُتحت جرثومة وطوانة . وفي ٨٩هـ فُتحت جزيرتا منورقة وميورقة . وفي ٩١هـ : نسف وكش وشومان ومدائن دهون من أذربيجان . وفي ٩٢هـ فتح إقليم الأندلس بأسره ، ومدينة أرماييل وقتربون .

وفي سنة ٩٣هـ فُتحت الديبل وغيرها ، ثم الكرخ وبرهم ، وباجة والبيضاء وخوارزم وسمرقند والصغد . وفي سنة ٩٤ : كابل وفرغانة والشاش . وفي سنة ٩٥ : الموقان ومدينة الباب . وفي سنة ٩٦ : طوس .

قال الذهبي : أقام الجهاد في أيامه ، وفُتحت الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب[1] .

قال إبراهيم بن أبي عبلة : قال لي الوليد بن عبد الملك يومًا : في كم تختم القرآن ؟ قلت : في كذا وكذا . فقال : أمير المؤمنين على شُغله ، يختمه في كلِّ ثلاثٍ . قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة .

قال رحمه الله : لولا أن الله ذَكَرَ قوم لوطٍ في القرآن ، ما ظننتُ أن ذَكَرًا يفعل هذا بذكرٍ .

قال ابن كثير : « كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجدَ بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لهم : لا تسألوا الناس . وأعطى كلَّ مقعدٍ خادمًا ، وكُلَّ ضريرٍ قائدًا ، وَفَتَحَ في ولايته فتوحاتٍ كثيرة عظامًا ، وكان يُرسل بنيه في كلِّ غزوةٍ إلى بلاد الروم ، ففتح الهند والسند والأندلس وأقاليم بلاد العجم حتى دخلت جيوشه إلى الصين ، وكان مع هذا يمرُّ بالبقال ، فيأخذ حزمة البقْل بيده ويقول : بكم تبيع هذه ؟ فيقول : بفلس . فيقول : زِدْ فيها فإنك تربح . وكان يبرُّ حَمَلَة القرآن ، ويكرمهم ، ويقضي عنهم ديونهم . قالوا : وكانت همَّة الوليد في البناء ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرَّجُلُ الرجلَ فيقول : ماذا بنيتَ ؟ ماذا عمَّرتَ ؟ وكانت همَّة أخيه سليمان

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٣ - ٢٢٥ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة .

في النساء ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول : كم تزوَّجت ؟ ماذا عندك من السَّرارِي ؟ وكانت همَّة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن ، وفي الصلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول : كم وِرْدُك ؟ كم تقرأ كلَّ يومٍ ؟ ماذا صلَّيْت البارحَةَ ؟ والناس يقولون : الناس على دين مليكهم »[1] .

أنا أُحبّ أن أُجَنَّ في الله :

ومن محاسن الوليد بناؤه المسجد الأموي بدمشق ، ولم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ولا أجمل .

واستعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلْقًا كثيرًا من المهندسين والصُّنَّاع والفَعَلَة ، وبعث الوليد إلى ملك الروم يطلب منه صُنَّاعًا في الرخام وغير ذلك ؛ ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد ، وأرسل يتوعَّده لئن لم يفعل ليَغْزُوَنَّ بلادَهُ بالجيوش ، وليخربنَّ كلَّ كنيسةٍ في بلاده ، وكان موضع المسجد مما فتحه المسلمون عنوةً ، وقد بُنِيت على جزءٍ منه كنيسةٌ ، والجزء الآخر كان مسجدًا ، وتأذَّى الوليد من وجود النواقيس بجوار الأذان ، فأرسل إليهم عِوَضًا عن الكنيسة الأموالَ ، فأبى النصارى ، ولمَّا مسحوا الأرض التي فُتحت عَنْوَةً ، وجدوا أن الكنيسة من هذه الأرض ، فلم يتركها لهم ، وأمر الوليد بإحضار آلات الهدْم ، وجاء إليه الأساقفة والقساوسة فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنا نجد في كُتُبنا : أنَّ مَنْ يهدم هذه الكنيسة يُجَنّ . فقال الوليد : أنا أحب أن أُجَنّ في الله ، ووالله لا يهدمُ فيها أحدٌ شيئًا قبلي . ثم صَعِدَ المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالنزول منها ، فأكْبَرَ الراهبُ ذلك ،

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧١ - ١٧٢ .

فأخذ الوليد بقفاه ، فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صَعِدَ الوليد على أعلى مكان في الكنيسة ، فوق المذبح الأكبر منها ، الذي يسمُّونه الشاهد ، وهو تمثال في أعلى الكنيسة ، فقال له الرُّهبان : احذر الشاهد . فقال : أنا أوَّل ما أضع فأسي في رأس الشاهد . ثم كَبَّر وضَرَبَهُ فهدَمَهُ ، وتبادر الأمراء إلى الهدْم ، وكبَّر المسلمون ثلاث تكبيراتٍ ، وصرخت النصارى بالعويل . ثم شرع في بناء المسجد . وأرسل إليه ملكُ الروم مائتي صانع ، وكتبَ إليه : إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعُهُ وَتَرَكَهُ ، فإنه لَوصْمَةٌ عليك ، وإن لم يكن فَهِمَهُ وفهمتَ أنت ، لوصمةٌ عليه . فردَّ عليه الفرزدق :

فرَّقتَ بين النصارى في كنائسهم	والعابدين مع الأسحار والعَتَمِ
وهم جميعًا إذا صلَّوْا وأوْجُهُهُم	شَتَّى إذا سجدوا للهِ والصَّنَمِ
وكيف يجتمع الناقوس يضربُهُ	أهلُ الصليبِ مع القُرّاء لم تَنَمِ
فهمتَ تحويلها عنهم كما فَهِمَا	إذ يحكُمان[1] لهم في الحَرْثِ والغَنَمِ
فهَّمكَ اللهُ تحويلًا لِبَيْعَتِهِم	عن مسجدٍ فيه يُتلى طيِّبُ الكَلِمِ

ولمَّا قال الناسُ : أنْفَقَ أميرُ المؤمنين بيوتَ الأموال في غير حقِّها . نودي في الناس : الصلاة جامعة . وقال : إنه بلغني عنكم أنكم قُلتم : أنفقَ الوليدُ بيوت الأموال في غير حقِّها . ثم قال : يا عمرو بن مهاجر ، قُمْ فأحضر أموال بيت المال . فَحُمِلَتْ على البغال إلى الجامع ، ثم بُسط لها الأنطاع تحت قبَّة النّسر ، ثم أُفرغ عليها المال ذهبًا صبيبًا ، وفضة خالصة حتى صارت كومًا ، حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجُلَ من الجانبِ الآخر ، وهذا شيءٌ كثير ، ثم جِيءَ بالقبَّانين ، فوُزِنَتِ الأموال ، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة - وفي رواية : ست

---

(١) أي داود وسليمان عليهما السلام .

عشرة سنة مستقبلة - لو لم يدخُل للناس شيءٌ بالكليَّة ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقتُ في عمارة هذا المسجد درهمًا من بيوت المال ، وإنما هذا كلُّه من مالي ، لم أَرْزَأْكُم من أموالكم شيئًا[1] .

سليمان بن عبد الملك ، افتتح خلافته بإحياء الصلاة لمواقيتها ، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز :

قال عنه الذهبي في « السير » (٥ / ١١١ - ١١٢) : « كان ديِّنًا فصيحًا مفوَّهًا عادلًا محبًّا للغزو . وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز ، وَعَـزَلَ عُمَّال الحجّاج ، وكتب : إن الصـلاة كانت قد أُميتت ، فأَحْيُوها بوقتها .

وعن ابن سـيرين قال : يرحم الله سليمان ، افتتح خلافتَـهُ بإحياء الصلاة ، واختتمها باستخلافه عمر .

وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء » . رَحِمَ الله سليمانَ الخير .

وقال أيضًا في (٥ / ١٢٥) : « قد كان سليمان بن عبد الملك من أمْثَلِ الخلفاء ، نشـرَ علم الجهاد ، وجهَّـز مائة ألف برًّا وبحـرًا ، فنازلوا القسطنطينية ، واشتدّ القتال والحصار عليها » .

وقال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : « كان من خيار ملوك بني أُمية ، وكان مُؤْثِرًا للعدْل محبًّا للغزو » .

وقـال ابن كثـير في البـداية والنهاية (٩/١٩١) : « كـان فصيحـًا بليغًا ، يُحسن العربية ، ويرجع إلى دينٍ وخير ومحبَّة للحقِّ وأهله ، واتِّباع القرآن والسُّنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية ، رحمه الله . وقد كان آلى على

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٥٥ - ١٥٦ .

نَفْسِهِ حين خرج من دمشق إلى مرج دابق ، لمَّا جهَّز الجيوش إلى مدينة الروم العُظمى المسمَّاة بالقسطنطينية ، أن لا يرجع إلى دمشق حتى يفتح أو يموت ، فمات هنالك فحصل له بهذه النِّيَّة أجْرُ الرّباط في سبيل الله ، فهو إن شاء الله ممَّن يُجرى له ثوابه إلى يوم القيامة ، رحمه الله »[١].

هارون الرشيد ، الخليفة المُفْتَرَى عليه : سَلُوا عنه « نقفور » كَلْبَ الروم :

هارون الرشيد أمير المؤمنين « كان من أنبل الخلفاء وأحْشَم الملوك ، ذا حجٍّ وجهاد وغزوٍ ، وشجاعةٍ وَرَأْيٍ »[٢].

« لما أفضتْ إليه الخلافة في سنة سبعين ، كان من أحسن الناس سيرةً ، وأكثرهم غزوًا وحجًّا ، ولهذا قال فيه أبو السعلي :

فمــن يطلُبْ لقــاءَك أو يُرِدْهُ ... فبالحَرَمَيْنِ أو أقصى الثُّغُــورِ
ففـي أرضِ العــدوِّ على طِمِـرٍّ ... وفي أرضِ التَّرَفُّهِ فوق كُورِ[٣]
وما حــازَ الثُّغُورَ ســواك خَلْقٌ ... مـن المتخلِّفــين عــلى الأُمــورِ

وكان يتصدَّق من صُلب ماله كلَّ يومٍ بألف درهم ، وإذا حجَّ أَحَجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يَحُجّ أَحَجَّ ثلاثمائة بالنفقة السَّابغة والكسوة التامَّة .

وكان يصلِّي في كلّ يومٍ مائة ركعة تطوُّعًا إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علَّةٌ »[٤].

---

(١) سنختم هذا الفصل بمسك الختام ، بعلوّ همَّة عمر بن عبد العزيز .
(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٨٧ .
(٣) الطِّمِرّ : الفَرَس الجواد الشديد العَدْو . والكُور : الرَّحْل ، أو الرَّحْل بأداته .
(٤) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٢ - ٢٢٣ .

الرشيد يحب العلماء ويُعظِّم حرماتِ الدين ويبغض الجدال :

« كانت أيام الرشيد كلّها خيرًا ، كأنها من حُسْنِهَا أعراسٌ »[1].

كان رحمه الله يحبُّ العلماء ، ويعظِّم حرمات الدين ، ويبغض الجدال والكلام ، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه ، لا سيّما إذا وُعِظ .

بلغه عن بشر المريسي القَوْل بخَلْق القرآن فقال : لَئِن ظفرتُ به ، لأضربنَّ عُنُقَهُ .

وَلَمَّا بَلَغَهُ موتُ ابن المبارك ، حزنَ عليه ، وجلس للعزاء ، فعزَّاه الأكابر .

قال أبو معاوية الضرير « محمد بن حازم » : ما ذكرتُ النبي ﷺ بين يَدَي الرشيد ، إلّا قال : صلى الله على سيِّدي . ورويتُ له حديثه : « وددت أني أُقاتل في سبيل الله ، فأُقتَل ، ثُمَّ أحيا ، ثم أُقْتَل »[2] . فبكى حتى انتحب .

حدَّث أبو معاوية الرشيدَ بحديث : « احتجَّ آدمُ وموسى »[3] وعنده رجل من وجوه قريش ، فقال القرشي : فأين لَقِيَهُ ؟ فغضب الرشيد وقال : النِّطْع والسيف ؛ زنديقٌ يطعن في الحديث . فما زال أبو معاوية يُسكِّنه ويقول : بادرةٌ منه يا أمير المؤمنين ؛ حتى سَكَنَ[4].

وعند ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠ / ٢٢٤) : « فقال عمُّ الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا وقال : أتعترض على الحديث ؟ عليَّ بالنِّطْع والسيف . فأُحضر ذلك ، فقام

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٨٤ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي من طريق أبي هريرة .

(٤) تاريخ بغداد ١٤ / ٧ - ٨ ، و« المعرفة والتاريخ » للفسوي ، والبداية والنهاية ، والسير ، وتاريخ الخلفاء .

الناس يشفعون فيه ، فقال الرشيد : هذه زندقةٌ . ثم أمر بسجنه ، وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني مَنْ ألقى إليه هذا ، فأقْسَمَ عمُّه بالأيْمان المغلَّظة ؛ ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطْلَقَهُ » .

وقال بعضُهم : دخلتُ على الرشيد وبين يديه رجلٌ مضروب العنق ، والسَّيَّاف يمسح سيفَهُ في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلْتُهُ ؛ لأنه قال : القرآن مخلوقٌ ، فقتلتُهُ على ذلك قُربةً إلى الله عز وجل .

وفي مرض موته ، حُمِل إليه الزنديق الثائر رافع بن الليث ، فقال الرشيد : « والله لو لم يَبْقَ من أجلي إلّا أن أُحَرِّكَ شفتي بكلمةٍ ، لقلتُ : اقتلوه » . ثم دعا بقصَّاب ، فقال : « لا تَشْحَذ مُداك ، اتركها على حالها ، وفصِّل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجِّل ، لا يحضُرنَّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه » . ففصلت حتى جَعَلَهُ أشلاء ، فقال : « عُدَّ أعضاءه » . فعدُّوا له أعضاءَهُ ، فإذا هي أربعة عشر عضوًا ، فرفع يديه إلى السماء ، فقال : « اللهمَّ كما مكَّنْتني من ثأرك وعدوِّك ، فبلغتُ فيه رضاك ، فمكِّنِّي من أخيه » . ثم أُغمي عليه وتفرَّق مَنْ حضره[1] .

وأخرج ابن عساكر قال : « أخذ هارونُ الرشيد زنديقًا ، فأمر بضرْب عنقه ، فقال له الزنديق : لم تضربُ عنقي ؟ قال له : أُريح العباد منك . قال : فأين أنت من ألفِ حديثٍ وضعتُها على رسول الله ﷺ ، كلُّها ما فيها حرفٌ نَطَقَ به ؟ قال : فأين أنت يا عدوّ الله من أبي إسحاق الفزاري

(١) الرشيد القائد صـ ١٢٢ لبسام العسيلي - دار النفائس .

وعبد الله بن المبارك ، ينخُلانها فيُخرجانها حرفًا حرفًا »[١].

وعن أبي معاوية الضرير قال : صَبَّ على يديَّ بعد الأكْل شخصٌ لا أعرفه ، فقال الرشيد : تدري مَنْ يَصُبُّ عليك ؟ قلت : لا . قال : أنا ، إجلالًا للعِلْم .

وقد كان الفُضَيْل يعظ الرشيد ويُبَكّيه حتى يُغشى عليه ، وكان الرشيد يمشي إلى بيت الفُضيل ، وكان الفُضيل يُجِلُّ الرشيد لشدَّته على أهل البِدَع والزندقة : « فعن عبد الرزاق قال : كنت مع الفضيل بمكة ، فمرَّ هارون ، فقال الفضيل : الناس يكرهون هذا ، وما في الأرض أعزّ عليَّ منه ، لو مات لرأيت أُمورًا عظامًا .

وقال عمار بن ليث الواسطي : سمعت الفضيل بن عياض يقول : ما من نفسٍ تموت ، أشدّ عليَّ موتًا من أمير المؤمنين هارون ، ولوددتُ أن الله زاد من عمري في عمره . قال : فكَبُرَ ذلك علينا ، فلمَّا مات هارون ، وظهرتِ الفِتَنُ ، وكان من المأمون ما حَمَلَ الناس على خلْق القرآن ، قُلنا : الشيخ كان أعْلَمَ بما تكلَّم »[٢].

هارون الرشيد البَكَّاء :

قال منصور بن عمَّار : ما رأيتُ أغْزَرَ دمعًا عند الذِّكْر من ثلاثة : الفُضَيْل بن عياض ، وهارون الرشيد ، وآخر[٣].

« دخل عليه مرَّةً ابنُ السَّمَّاك الواعظ ، فبالَغَ في إجلالِهِ فقال : تواضُعك

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٨٥ .
(٢) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٢ ، والسير ٩ / ٢٨٩ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٨٥ .

في شَرَفِكَ ، أشرفُ من شرفِك . ثم وَعَظَهُ فأبكاه .

ووعظه الفُضَيْل مرَّةً حتى شهق في بكائه »[١].

قال أبو معاوية الضرير عن الرشيد : كان إذا سمع موعظةً ، بكى حتى يبلّ الثَّرى[٢].

وكم من مرَّاتٍ ومرَّاتٍ يعظه العمريُّ والبهلول المجنون حتى يُغشى عليه .

« وروى ابن عساكر قال : قال إبراهيم المهدي : كنت يومًا عند الرشيد ، فدعا طبَّاخَهُ فقال : أعندك في الطعام لحم جَزُورٍ ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضِرْهُ مع الطعام . فلمَّا وُضِع بين يديه ، أخَذَ لقمةً منه فوضعها في فيه ، فضحك جعفرٌ البرمكيُّ ، فترك الرشيد مَضْغَ اللقمة ، وسأل البرمكيَّ عن سرِّ ضحكه فقال : يا أمير المؤمنين ، بكم تقول : إن هذا الطعام من لحم الجزُور يقوِّم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طبّاخك لحم جَزُورٍ قبل هذا اليوم بمدَّةٍ طويلة ، فلم يُوجَد عنده ، فقلت : لا يخلُونَّ المطبخ من لحم جزُورٍ ، فنحن ننحر كلَّ يومٍ جزورًا لأجْلِ مطبخ أمير المؤمنين ؛ لأنّا لا نشتري من السوق لحم جزورٍ ، فصُرِفَ في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلُب أمير المؤمنين لحم جزورٍ إلَّا هذا اليوم . قال : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك : هذه اللقمة ، فهي على أمير المؤمنين

---

(١) السِّير ٩ / ٢٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٣ .

بأربعمائة ألف . قال : فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، وأمر برفْع السِّماط من بين يديه ، وأقْبَلَ على نفسه يوبِّخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذِّنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلَّى بالناس ثم رجع يبكي ، حتى آذَنَهُ المؤذِّنون بصلاة العصر ، وقد أمَرَ بألفَيْ ألفٍ تُصرَف إلى فقراء الحرمين : في كلِّ حرمٍ ألف ألف صدقة ، وأمر بألفَيْ ألفٍ يُتصدَّق بها في جانبَيْ بغداد الغربي والشرقي ، وبألفَيْ ألفٍ يتصدَّق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج إلى صلاة العصر ، ثم رجع يبكي حتى صلَّى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيًا في هذا اليوم ؟ فذكر أمْرَهُ ، وما صَرَفَ من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ما تذبحونه من الجُزُر يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفتَهُ من المال الذي أكَلَه المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسَّره الله عليك من الصَّدَقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنتان** ﴾ . [الرحمن : ٤٦] . فأمر الرشيد له بأربعمائة ألف ، ثم استدعى بطعامٍ ، فكان غداؤه في هذا اليوم عشاءً »[١] .

هـذا هو الخليفة المُفـتَرَى عليه .. الخليفة البكَّاء الذي يدخل عليه أبو العتاهية فيقول له :

لا تأمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَس ... ولوْ تمنَّعْتَ بالحُجَّاب والحَـرَسِ
ترجو النجاةَ و لم تسلُكْ مسالكَهَا ... إن السَّفينةَ لا تجـري على اليَبَسِ

فخرَّ الرشيد مغشيًّا.......................

---

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٤ - ٢٢٥ .

عليـه[١].

وقد حبس الرشيد مرَّةً أبا العتاهية ، وأرْصَدَ عليه مَنْ يأتيه بما يقول ، فكتب مرةً على جدار الحبس :

أمَـا واللهِ إن الظُّـلْمَ شُـومُ وما زال المسيءُ هـو الظَّلُـومُ
إلى ديَّـانِ يومِ الدِّينِ نمضـي وعنـد اللهِ تجتمـعُ الخُصُـومُ

قال : فاستدعاه واستعجلَهُ في حلٍّ ، ووهبَهُ ألف دينارٍ وأطلقَهُ .

ودخل عليه سفيان بن عيينة ، فقال له الرشيد : ما خَبَرُكَ ؟ فقال :

بعـينِ اللهِ ما تُخفـي البيـوتُ فقـد طال التَّحمُّـلُ والسُّكـوتُ

فقال : يا فلان ، مائة ألفٍ لابن عيينة تُغنيه وتُغني عَقِبَهُ ، ولا تضرُّ الرشيد شيئًا .

هذا هو الرشيد ... أعطى أبا بكر بن عيّاش ستة آلافِ درهمٍ .

هذا هو الرشيد : « بينا هو في طريق الحجِّ ، يمرُّ على وادٍ فإذا امرأةٌ بين يديها قصعةٌ ، وهي تسأل وتقول :

مَـنْ رَآني فقـد رآني وَرَحْـلي فارحمـوا غُـربتي وذُلَّ مقـامي

فأمر مسرورًا الخادم أن يملأ قصعتها ذهبًا »[٢].

جوادٌ يسابق الريح في كرمه ، وشديد البأس ؛ إذا أعْطَى أغْنَى ، وإذا حاربَ أفْنَى .

* * *

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٦ – ٢٢٧ .
(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٧ .

الرشيد يقضي على البرامكة وأتباعهم الزنادقة :

لَمَّا وجد الزنادقةُ والملحدون في مظلَّةِ البرامكة حمايةً لهم ، كان هذا عاملًا أساسيا وحاسمًا في قتْل الرشيد للبرامكة ونَكْبَتهم ، وتتبُّع الزنادقة ومطاردتهم في خراسان وفي أقاليم المشرق .. إنه الغضب لله .. فللَّه دَرُّهُ .

كان أنس بن أبي شيخ أحد أصحاب البرامكة ، وكان الرشيد قد علم أنه على الزندقة ، فلمَّا كان صُبْح الليلة التي قُتل فيها جعفر بن يحيى ، أَحْضَرَهُ الرشيد ، فدار بينهما حديثٌ ، تأكَّد فيه الرشيد من زندقة أنس بن أبي شيخ ، فأخرج سيفًا من تحت فراشه ، وأمر أن تُضرب به عنقُه ، وتمثَّل الرشيد عندما أخرج السيف لقتْل أنسٍ :

تَلَمَّظَ السيفُ من شوقٍ إلى أنسٍ   فالسيفُ يَلْحَظُ والأقدارُ تنتظرُ

فضَرَبَ عنقَهُ ، فسَبَقَ السيف الدَّم ، فقال الرشيد : « رحم الله عبدَ الله ابن مصعب » . وكان هو الذي أعْلَمَ الرشيدَ بزندقةِ أنسٍ ، وكان السيف الذي أخْرَجَهُ الرشيد هو سيف الزبير بن العوام[1] .

هارون يفتدي أسرى المسلمين ولا يُبقي منهم أسيرًا واحدًا :

نظَّم الرشيد أوَّل عملية فِداءٍ بين الروم والمسلمين سنة ١٨١هـ ، ففُودي بكلِّ أسيرٍ في بلاد الروم ، وكان عدَّة الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة .

ثم أُعيدت عمليّة الفداء ثانيةً سنة ١٩٢هـ بين المسلمين والروم ، وكان عدَّةُ الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير : فكانت عملية الفداء الأُولى ثم الثانية هما أُولَى عمليّات الفداء أيام بني العبّاس ، وَنَجَمَ عن عمليّة الفداء أنه لم يَبْقَ مسلمٌ أسيرٌ في بلاد الروم .. فللَّه دَرُّ الرشيد .

---

(١) الرشيد القائد صـ ٩٩ - ١٠٠ ، تاريخ الطبري ٨ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وفُكَّتْ بك الأسرى التي شُيِّدَتْ لها ... مجالسُ ما فيها حميمٌ يزورها
على حين أعْيَا المسلمين فِكاكُها ... وقالوا سجونُ المسلمين قبورُها[1]

فتح حصن الصَّفْصَاف عَنْوَةً سنة ١٨١هـ :

حاولَ ملكُ الروم قسطنطين بن ليون تحدِّي سلطان المسلمين ، فسار إليه الرشيدُ بنفسه ، وقاد جيشًا قويًّا انتصر به على الروم ، وافتتح (حِصْن الصَّفْصاف) عَنوةً ، ودمَّره مع حاميته .

ثم وجَّه الرشيدُ مجموعةً قتاليَّةً بقيادة عبد الملك بن صالح ، فأوْغَلَ في بلاد الروم حتى بلغَ أنقرة ، وافتتح مطمورة ، وعاد الرشيد ظافرًا .

إن أمــير المؤمنــين المصطفــى ... قد تَرَكَ الصَّفْصَافَ قاعًا صَفْصَفَا

هارون يقول لنقفور : « الجواب ما تراهُ دُونَ ما تسمعُ » ويفتح هرقلة :

لمَّا انتصر الرشيد على ملك الروم ، ثار الرومُ على ملكهم قسطنطين ، وسَمَلُوا عينيْه ، ونصبوا مكانه أُمَّه « ريني » - أو : « رينيه » - ومنحوها لقب « أوغسطه » ، غير أن هذه كانت أعْجَزَ من أن تتصدَّى للرشيد ، فقرَّرَتْ مصالحة الرشيد على جزيةٍ معلومة تُؤدِّيها له في كلِّ سنةٍ ، وغضب الرومُ ، واتَّهموا ملكتهم بالضَّعف ، وثاروا ضدَّها وعزلوها ، ونصبوا مكانها ملكًا اسمه « نقفور » ، فلمَّا مَلَك ، ودان له الروم بالطاعة ، كتب إلى الرشيد : (من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب . أمَّا بعدُ ، فإن الملكة التي كانت قبلي ، أقامتْك مقام الرَّخِّ ، وأقامت نفسها مقام البَيْدَق ، فحملتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقًا بحمْلِ أمثالها إليها ، ولكنَّ ذاك ضعفُ النساء وحُمْقُهنّ ، فإذا قرأتَ كتابي ، فارْدُدْ ما حَصَلَ قِبَلَكَ من أموالها ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥ / ١٢٢ ، والرشيد القائد صـ ٣٣ - ٣٤ .

وافْتَد نَفْسَكَ بما يقع به المصادرةُ لك ، وإلَّا فالسيفُ بيننا وبينك) . ولمَّا قرأ الرشيدُ الكتابَ ، استفزَّه الغضب ، حتى لم يُمكِّن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، واستعجَمَ الرَّأْيُ على الوزير ، ودعا الرشيد بدواةٍ ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمٰن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأتُ كتابَكَ يا ابنَ الكافرةِ ، والجوابُ ما تراه دُونَ أن تسمَعَهُ . والسلام »[1]. وَشَخَصَ الرشيدُ من يومه ، وسار حتى نزل باب هِرَقْلَةَ ، فَفَتَحَ وَغَنَمَ ، واصطفى وأفاد ، وخرب وحرق ، فطلب نقفور الموادعةَ على خراجٍ يُؤدِّيه في كلِّ سنةٍ ، فأجابَهُ إلى ذلك ، فلمَّا رجعَ من غزوته وصار بالرَّقَّة ، نَقَضَ نقفور العهدَ ، وحان الميثاق ، وكان البرد شديدًا ، فيَئِسَ نقفور من رجْعته إليه ، وجاء الخبر بارتداده عمَّا أُخذ عليه ، فلمَّا علم الرشيد بذلك كرَّ راجعًا في أشدِّ محنةٍ وأعْظَمِ كُلْفَةٍ ، وبثَّ الجيوش والسرايا بأرض الروم ، وكان جيش الرشيد يضمُّ مائة ألفٍ وخمسةً وثلاثين ألف مُرْتَزِقٍ ، سوى الأتباع ، وسوى المطوّعة ، وسوى مَنْ لا ديوانَ له . وأنزل عبد الله بن مالك لحصار « ذي الكلاع » ، ووجّه قوةً من سبعين ألفًا بقيادة « داود بن عيسى » بمهمَّة اجتياح بلاد الروم ، وتدمير كلِّ ما تُصادفه ، وافتتَح شراحبيل بن معن بن زائدة حصنَ الصقالبة ودبسة ، وافتتح يزيد بن مخلد الصّفصافَ ومطقوبية ، وأقام الرشيد على هرقلة ثلاثين يومًا حتى أمكن له فَتْحُها ، فسَبَى أهلَها ، ودمَّر حصونها . وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه ووليِّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه (إستبراق) دينارين ، وعاد الرشيد بجيشه الظافر إلى بغداد .

---

(١) الكامل لابن الأثير : أحداث سنة ١٨٧هـ . وتاريخ الطبري : أحداث سنة ١٨٧ ، ١٩٠هـ .

وكان الرشيد قد اشترط على نقفور ألا يَعْمُرَ هرقلةَ ، وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة ألف دينار .

ألا نادتْ هِـرَقْلَةُ بالخَـرَابِ — من المَلِكِ الموفَّقِ بالصَّوابِ
غـدا هارونُ يَرْعَـدُ بالمنايا — ويَبْرُقُ بالمُذَكَّـرَة القَضَابِ
وراياتٍ يحـلُّ النصـرُ فيها — تمـرُّ كأنَّها قِطَعُ السَّحابِ

لله دَرُّكَ يا هارون .

كفاكَ كَفٌّ ما تليقُ دِرْهما — جُودًا وأُخرى تُعطي بالسيفِ الدَّمَا

لله دَرُّكَ يا هارون :

ملكٌ مجرَّدُ للجهادِ بنَفْسِهِ — فَعَـدُوُّهُ أبدًا به مقهـورُ
نَقَضَ الذي أعطيتَهُ نقفُورُ — وعليـه دائرةُ البـوارِ تَدُورُ
أعطاك جِزْيَتَهُ وَطَأْطَأَ خَدَّهُ — حَذَرَ الصّوارِمِ والرَّدَى مَحْذُورُ

لله دَرُّكَ يا هارون ، وما أعْظَمَ أيّامَكَ وفتوحاتِك .

في سنة ١٨٨هـ غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة ، فدخَلَ بلاد الروم ، فخرج نقفور للقائه ، فجُرح النقفور ثلاث جراحٍ ، وانهزم ، وقُتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفا ، وغنموا أكثر من أربعة آلاف دابَّة .

وفي سنة ١٩١هـ ألزمَ الرشيد أهلَ الذِّمَّة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلاد .

وأرسل حميد بن معيوف إلى سواحل الشام ومصر ، فدخل جزيرة قبرص ، فَسَبَى أهلها ، وَحَمَلَهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار ، باعهم أبو البختريّ القاضي . فللّه دَرُّكَ يا هارون ، لقد كنتَ منارةً للهمَّة الرفيعة .

« قال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ما أعلمُ أن لملكٍ رحلةً

قطٌّ في طلب العلم إلَّا للرشيد ، فإنه رحل بولديْه : الأمين والمأمون لسماع الموطَّأ على مالكٍ رحمه الله . قال : وكان أصل الموطّأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين . قال : ثم رحل لسماعه السلطانُ صلاح الدين بن أيّوب إلى الإسكندرية ، فسمَّعه علي بن طاهر بن عوف ، ولا أعلم لهما ثالثًا »[1].

قال ابن حزم : أُراه كان يشرب النبيذ المختَلَف فيه ، لا الخمر المتَّفَق على حُرمتها[2].

ومن العجائب أن هذا الملك الذي مَلَكَ الدنيا كان له ولدٌ يُسمَّى أحمد السّبتي ؛ أحمد بن هارون « كان زاهدًا عابدًا قد تنسَّك ، وكان لا يأكل إلَّا من عَمَل يده في الطين ، كان يعمل فاعلًا فيه ، وليس يملك إلَّا مروًا وزنبيلًا - أي مجرفة وقُفَّة - وكان يعمل في كلِّ جمعةٍ بدرهمٍ ودانقٍ ، يتقوَّتُ بهما من الجمعة إلى الجمعة ، وكان لا يعمل إلَّا في يوم السبت فقط ، ثم يُقبل على العبادة بقيَّة أيام الجمعة ، وكان من امرأةٍ كان الرشيد قد أحبَّها فتزوَّجها فحملتْ منه بهذا الغلام ، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاها خاتمًا من ياقوتٍ أحمر ، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضتْ إليه الخلافةُ ، أن تأتِيَهُ ، فلمَّا صارتِ الخلافة إليه ، لم تأْتِهِ ولا ولدُها ، بل اختفيا ، وبلغَهُ أنهما ماتا ، ولم يكُن الأمر كذلك ، وفحص عنهما فلم يطَّلِع لهما على خبرٍ ، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكُل من كدِّها ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يعمل في الطين ويأكُل ، هذا وهو ابن أمير

---

(١) تاريخ الخلفاء صـ ٢٩٤ للسيوطي - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة .

(٢) السير ٩ / ٢٩٠ .

المؤمنين ، ولا يذكر للناس مَنْ هو ، إلى أن اتَّفق مرضُهُ في دارِ مَنْ كان يستعمله في الطين ، فمرض عنده ، فلمَّا احْتُضِر ، أخرج الخاتمَ وقال لصاحب المنزل : اذهب بهذا إلى الرشيد ، وقُل له : صاحب هذا الخاتم يقول لك : إياك أن تموت في سكرتك هذه ، فتندم حيث لا ينفع نادمًا ندمُهُ ، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين ، وأن يكون آخر العهد بك ، فإن ما أنت فيه لو دامَ لغيرك لم يصل إليك ، وسيصير إلى غيرك ، وقد بَلَغَكَ أخبار مَنْ مضى »[1] .

ولما أخبر الرجلُ الرشيدَ بعد أن وصل إليه بكلام أحمد « قام فَضَرَبَ بِنَفْسِهِ الأرض ، وجعل يتمرَّغ ويتقلَّب ظهرًا لبطنٍ ويقول : والله لقد نصحتني يا بُنَيَّ » . ثم بكى ووقف على قبره ، فلم يزل يبكي حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم ، وكتب له ولعياله رزقًا .

ثم تملأُ مسامعَ الأرضِ شَدْوًا	دولةُ العِزِّ والعُلا العامراتُ
مِنْبَرٌ في سماءِ بغدادَ يعلو	بالأماجيدِ دُونَهُ مُرْهَفَاتُ
قِفْ بِبَغْدَادَ وَهْيَ فوقَ الرَّوابِي	تَخْتَلِسُ فوقَ رَوْضِهَا الوطئاتُ
ذاك هارونُ قِفْ وَحَيِّ مَلِيًّا	هو عِقْدٌ تَزْهُو به حلقاتُ
زَلْزَلَ الرُّومَ بالهزائِمِ حتى	زهدُوا من جوارِيهِ حيث باتوا
مُشْرَئِبًّا إلى انتصارٍ جديدٍ	والعوالي في نَصْرِهِ مُعْلَنَاتُ
كُلَّما أمَّ وِجهةً بِخَمِيسٍ	رحَّبتْ كي يزورهُنَّ جِهاتُ
قد تحدَّى الغَمامَ في الجوِّ يسعى	ظنَّ أن البعيرَ عنه فَواتُ
قالوا هوِّنْ فسوف تنزلُ فينا	فلنا البحرُ والفَضَا والفَلَاةُ
دَوْحَةَ العزِّ قد سَقَتْكِ الغَوَادِي	فوق أوراقِكِ الدُّمَى هامِعاتُ

---

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٩١ .

فَلَكَمْ قـد جَنَـاكِ دينٌ ودنيا　　حيث طـابتْ أبناؤهـا والبنـاتُ
يا قصيدَ الإسلامِ ردِّدْ لُحُونًا　　تتغـنَّى بِلَحْنِهَـا الأبيـاتُ

الخليفة المعتصم : فاتح عمورية :

قال السيوطي : كان المعتصم ذا شجاعةٍ وقوَّةٍ وهمَّةٍ .

وقال الذهبي : كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم ، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخَلْق القرآن .

أمَا سمعتَ بأرض الرُّومَ مسلمةً　　تشكو « لمعتصمٍ » ظُلْمَ المُغيرينَا
فتسبِقُ الخيلَ أصواتَ استغاثتها　　وتملأُ الكونَ صيحاتُ المُلَبِّينَا
وتصـرخُ اليـومَ آلافٌ مُؤَلَّفـةٌ　　فهل سمعتَ سوى أحزانِ باكينَا
ونحن نسمعُ أصواتَ استغاثَتِهَا　　وليس نسمِعُهَـا إلَّا أغانينَـا
« خُضْرٌ مَرَابِعُنَا بِيضٌ صنائِعُنَا　　سُودٌ وقائِعُنَا حُمْـرٌ مواضِينَا »
وَيَسْبَحُ الطُّهْرُ - طُهْرُ البِكْرِ - في دَمِهِ　　ونحنُ نسبحُ في أحلامِ ماضِينَا

في سنة ٢٢٣هـ أوقع ملكُ الروم توفيل بن مخائيل بأهـل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمةً عظيمةً ، قتل فيها خَلْقًا كثيرًا من المسلمين ، وأسَرَ ما لا يحصون كثرةً ، ومثَّل بِمَنْ وَقَعَ في أسْرِهِ من المسلمين ، فقطع آذانهم وأُنوفهم وَسَمَلَ أعيُنَهم ، قبَّحه الله ، وكان جملة مَنْ أسَرَ ألف امرأةٍ من المسلمات .

فلمَّا سمع بذلك المعتصمُ ، انزعج لذلك جدًّا ، وصرخ في قصره بالنَّفير ، ثم نهض من فوره ، وأمَرَ بتعبئة الجيوش ، واستدعى القاضيَ والشُّهود ، فأشهدهم أن ما يملكه من الضِّياع : ثُلُثُه صَدَقَةٌ ، وثلثه لِوَلَدِهِ ، وثلثه لمواليه . وقال للأمراء : أيّ بلادِ الرومِ أمْنَعُ ؟ قالوا : عمورية ، لم يعرِض لها أحدٌ مذ كان الإسلام ، وهي أشرفُ عندهم من القسطنطينية . فاستدعى الجيوش

بين يديه ، وتجهَّز جهازًا لم يجهِّزه أحدٌ كان قبْلَهُ من الخلفاء ، وأَخَذَ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقِرَب والدَّوابِّ والنِّفْط والخيل والبغال ، شيئًا لم يُسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال ، فأنكاهم نكايةً عظيمةً لم يُسمع بمثلها لخليفةٍ ، وقتل منهم ثلاثين ألفًا وسَبَى مِثْلَهم .

رُبَّ وامُعْتَصِمَاهُ انطلقتْ ... مِلْءَ أفواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَهُمْ لكنَّها ... لم تُصادِفْ نخْوةَ المُعْتَصِمِ

عفا الله عن المعتصم .

عفا عنه ابنُ حنبلٍ يومَ فتْحه لعمورية .

قال السيوطي عن المعتصم : « لم يجتمع الملوك بباب أحدٍ قطُّ اجتماعَها بباب المعتصم ، ولا ظَفِرَ مَلِكٌ قطُّ كَظَفَرِهِ ؛ أسَرَ مَلِكَ أذربيجان ، وملكَ طبرستان ، وملكَ استيسان وملكَ الشياصح ، وملكَ فرغانة ، وملكَ طخارستانَ ، وملكَ الصّفة ، وملكَ كابِل » .

تحكي أفاعيلَهُ في كلِّ نائبةٍ ... اللَّيْثُ والغَيْثُ والصَّمْصَامَةُ الذَّكَرُ

المتوكِّل ونصْرُه للسُّنَّة :

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠ / ٣٦٥ - ٣٦٦) : « كان المتوكّل مُحبَّبًا إلى رعيَّته ، قائمًا في نُصرة أهل السُّنَّة ، وقد شبَّهه بعضُهم بالصِّدِّيق في قتْله أهل الرِّدَّة ؛ لأنه نَصَرَ الحَقَّ وردّه عليهم ، حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بني أُميَّة ، وقد أظهر السُّنَّةَ بعد البدعة ، وأخْمَدَ أهلَ البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها ، فرحمه الله . وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نورٍ ، قال : فقلت : المتوكِّل ؟ قال : المتوكِّل . قلتُ : فما فَعَلَ بِكَ رَبُّك ؟ قال : غَفَرَ

لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليلٍ من السُّنَّة أحييتُها » .

قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » صـ ٣٤٦ : « أظْهَرَ الميلَ إلى السُّنَّة ، ونَصَرَ أهلها ، وَرَفَعَ المحنةَ ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وذلك في سنة أربع وثلاثين ، واستقدم المحدِّثين إلى سامرّا ، وأجْزَلَ عطاياهم وأكرمهم ، وأمرهم أن يحدِّثوا بأحاديث الصِّفات والرُّؤْية ، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرّصافة ، فاجتمع إليه نحوٌ من ثلاثين ألف نفس ، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور ، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس ، وتوفَّر دعاء الخلْق للمتوكِّل ، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له ، حتى قال قائلُهم : الخلفاءُ ثلاثةٌ : أبو بكر - رضي الله عنه - في قَتْل أهـل الرِّدَّة ، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم ، والمتوكِّل في إحياء السُّنَّة وإماتة التَّجهُّم » .

بعثَ رحمه الله إلى نائب مصر ، أن يحلق لحيةَ قاضي القضاة بمصر أبي بكر محمد بن أبي الليث ، وأن يضربه ، ويطوف به على حمارٍ ، ونِعْمَ ما فَعَلَ ؛ فإنه كان ظالمًا من رؤوس الجَهْمِيَّة .

قال أبو بكر بن الخبازة :

وبعدُ فإن السُّنَّةَ اليومَ أصبحتْ مُعَـزَّزَةً حـتى كأنْ لمْ تُـذَلَّلِ
تصُولُ وتسطُو إذْ أُقيمَ منارُها وحُطَّ منارُ الإفك والزُّورِ من عَلِ
وَوَلَّى أخو الإبداع في الدِّينِ هاربًا إلى النارِ يهوي مُدبرًا غَيْرَ مُقبِلِ
شَفَى الله منهمْ بالخليفةِ جعفرٍ خليفتِـهِ ذي السُّـنَّةِ المتوكِّـلِ
وجامِعِ شَمْلِ الدِّينِ بعدَ تشتُّتٍ وفاري رؤوس المارقين بِمُنْصُلِ
أطـالَ لنـا ربُّ العبـادِ بقـاءَهُ سليمًا من الأهوالِ غَيْرَ مبدَّلِ
وبـوَّأهُ بالنصـرِ للدِّينِ جَنَّـةً يُجَاوِرُ في روضاتها خَيْرَ مُرْسَلِ[1]

---

(١) تاريخ الخلفاء صـ ٣٤٦ - ٣٤٧ .

قال الذهبي في « السير » (١٢ / ٣١ - ٣٤) : « قال خليفة بن خياط : استُخْلِفَ المتوكِّل ، فأظهر السُّنَّة ، وتكلَّم بها في مجلسه ، وكتب إلى الآفاق برفْع المحنة ، وبسْط السُّنَّة ونصْر أهلها » .

« وكان قاضي البصرة إبراهيم بن محمد التيمي يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر يومَ الرِّدَّة ، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم من بني أُميَّة ، والمتوكِّل في مَحْوِ البدع وإظهار السُّنَّة »[١] .

وغضب المتوكِّلُ على أحمد بن أبي دُؤَاد ، وصادرَهُ ، وسجَنَ أصحابَهُ .

وقال يزيد بن محمد المهلبي : قال لي المتوكِّل : إن الخلفاء كانت تتصعَّب على الناس ليُطيعوهم ، وأنا ألين لهم ليُحبُّوني ويُطيعوني .

وفي سنة ٢٣٥هـ ألزم المتوكِّل النصارى بلُبْس العَسَليّ .

وفي الكامل لابن الأثير : « ألزَمَ النصارى بلُبْس الطَّيالسة العَسَليَّة ، وشدِّ الزَّنانير ، وركوب السُّروج بالرُّكُب الخَشَب ، وعَمَلِ كرتين في مؤخّر السُّروج »[٢] .

الخليفة المهتدي بأمر الله : من أحسن الخلفاء وَرَعًا وعبادة :

كان وَرِعًا صالحًا متعبِّدًا بطلًا شجاعًا ، قويًّا في أمر الله ، خليقًا للإمارة ، لكنَّه لم يَجِدْ مُعينًا ولا ناصرًا ، والوقتُ قابلٌ للإدبار .

نَقَلَ الخطيبُ عن أبي موسى العباسي : أنه ما زالَ صائمًا منذ استُخْلِفَ إلى أن قُتل[٣] .

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٢٩٠ ، والنجوم الزاهرة ٢ / ٣٧٥ .

(٢) الكامل ٧ / ٥٢ .

(٣) تاريخ بغداد ٣ / ٣٤٩ ، وتاريخ الخلفاء ٣٦١ .

وقال أبو العبّاس هاشمُ بن القاسم : كنتُ عند المهتدي عَشِيَّةً في رمضان ، فقمتُ لأنصرف ، فقال : اجلسْ . فجلستُ ، فصلَّى بنا ، ودعا بالطعام ، فأحضر طَبَقَ خِلافٍ[1] عليه أرغفةٌ ، وآنيةً فيها ملحٌ وزيتٌ وَخَلٌّ ، فدعاني إلى الأكل ، فأكلتُ أكْلَ مَنْ ينتظر الطبيخَ . فقال : ألم تكُن صائمًا ؟ قلتُ : بلى . قال : فكُلْ واسْتَوْفِ ، فليس هنا غيرُ ما ترى ؟! فعجبتُ ، ثم قلتُ : ولِمَ يا أمير المؤمنين ، وقد أنعم اللهُ عليك ؟! قال : إني فكَّرْتُ أنَّه كان في بني أُميَّة عُمر بن عبد العزيز ، فغِرْتُ على بني هاشمٍ ، وأخذتُ نفسي بما رأيتَ[2] .

قال جعفر بن عبد الواحد : ذاكرتُ المهتديَ بشيءٍ ، فقلتُ له : كان أحمدُ بن حنبل يقولُ به ، ولكنَّه كان يُخالفُ . كأنِّي أشرتُ إلى آبائه ، فقال : رَحِمَ اللهُ أحمدَ بن حنبل ، لو جاز لي لَتبَرَّأْتُ من أبي ، تَكَلَّمْ بالحقِّ وَقُلْ به ، فإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالحقِّ ، فَيَنْبُلُ في عيني[3] .

قال نِفطويه : أَخْبَرَنَا بعضُ الهاشميِّين أنه وُجِد للمهتدي صَفَطٌ فيه جُبَّةُ صوفٍ ، وكساء كان يلبسه في الليل ، ويُصَلِّي فيه ، وكان قد اطَّرح الملاهي ، وحرَّم الغناءَ ، وحَسَمَ أصحابَ السُّلطان عن الظُّلم ، وكان شديدَ الإشرافِ على أَمْرِ الدَّوَاوين ، يجلسُ بِنَفْسِهِ ، ويُجْلِس بين يديْه الكُتَّابَ ، يعملون الحسابَ ، وَيَلْزَمُ الجلوسَ يومي الخميس والاثنين ، وقد ضربَ جماعةً من الكِبارِ ، ونَفَى جعفرَ بن محمود إلى بغداد لِرَفْضٍ فيه .

ولمَّا دخل عليه موسى بن بغا وأصحابُه ليخلعوه ، خرج إليهم وهو

---

(١) صنف من الصَّفْصَاف ، ومن عيدانه تُصنع الأطباق .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ٣٥٠ ، وتاريخ الخلفاء ٣٦١ .

(٣) السير .

متقلِّدٌ سيفًا وقال لهم : قد بلغني ما تَمَالأْتُمْ عليه من أمري ، وإني والله ما خرجتُ إليكم إلَّا وأنا متحنِّطٌ ، وقد أوصيتُ أخي بولدي ، وهذا سيفي ، والله لأضربنَّ به ما استمسك قائمُهُ بيدي ، والله لَئِن سَقَطَ من شعري شعرةٌ ، ليهلكنَّ بَدَلها منكم ، أو ليذهبنَّ بها أكثَرُكُم ، أمَا دِينٌ ؟ أما حياءٌ ؟ أما تَسْتَحْيُون ؟ كم يكون هذا الإقدامُ على الخلفاء والجُرأة على الله عز وجل ، وأنتم لا تُبصرون ؟ سواءٌ عندكم مَنْ قَصَدَ الإبقاءَ عليكم والسِّيرةَ الصالحة فيكم ، ومن كان يدعو بأرطال الشراب المُسكِر ، فيشربُها بين أظهُركم وأنتم لا تُنكرون ذلك ، ثم يستأثر بالأموال عنكم وعن الضعفاء ، هذا منزلي فاذهبوا فانظروا فيه وفي منازل إخوتي ومَنْ يتَّصل بي ، هل تَرَوْنَ فيها من آلات الخلافة شيئًا ، أو من فرشها أوْ غير ذلك ؟ وإنّما في بيوتنا ما في بيوت آحادِ الناس .

قَتَلَ الأتراكُ المهتديَ .. أرادوا منه أن يخلع نفسه ، فأبى ، رحمة الله عليه .

« قال الخطيب : كان من أحسن الخلفاء مذهبًا ، وأجودهم طريقةً ، وأكثرهم وَرَعًا وعبادةً وزهادةً .

وَرَوى الخطيب أن رجلًا استعان المهتدي على خصمه ، فَحَكَمَ بينهما بالعدل ، فأنشأ الرجل يقول :

حكَّمْتُمُوهُ فقضى بينكمُ أبْلَجُ مِثْلَ القمـرِ الزَّاهِـرِ
لا يقبلُ الرِّشْوَةَ في حُكمِهِ ولا يُبالي غَـبْنَ الخَاسِـرِ

فقال له المهتـدي : أمَّا أنت أيها الرجل ، فأحْسَنَ الله مقالتك ، ولست أغترُّ بما قلتَ ، وأمَّا أنا ، فإني ما جلستُ مجلسـي هذا ، حتى قرأتُ : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئًا وإن**

كان مثقال حبَّةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسِبين ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .
قال : فبكى الناس حوله ، فما رُئِيَ أكثر باكيًا من ذلك اليوم .

وقال بعضهم : سَرَدَ المهتدي الصومَ من حين تولَّى إلى حين قُتِل ، وكان يحبُّ الاقتداءَ بما سلكَهُ عمر بن عبد العزيز الأمويّ في خلافته ؛ من الوَرَع والتَّقشُّف وكثرة العبادة وشدَّة الاحتياط ، ولو عاش ووجد ناصرًا لسار سيرتَهُ ما أمكنه ، وكان من عزْمه أن يُبيد الأتراك الذين أهانوا الخلفاء وأذلُّوهم ، وانتهكوا منصبَ الخلافة »[1] .

الخليفة المُعْتَضِد ، قَاتِلُ الأسد :

هو أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفَّق الملقَّب بناصر دين الله .

قال عنه ابن كثير : « كان أمر الخلافة قد ضعُف في أيام عمِّه المعتمد ، فلمَّا وَلِيَ المعتضدُ أقام شعارَها ورفَعَ منارها ، وكان شجاعًا فاضلًا من رجالاتِ قريشٍ حَزْمًا وجُرأةً وإقدامًا وحزمة » .

وكان رحمه الله يقول : « إن الرَّعيَّة وديعة الله عند سلطانها ، وإنه سائلُهُ عنها » . ولهذه النِّيَّة لَمَّا وُلِّي الخلافة ، كان بيت المال صفرًا من المال ، وكانت الأحوال فاسدة ، والعرب تعيثُ في الأرضِ فسادًا في كُلِّ جهةٍ ، فلم يَزَلْ برأيِهِ وتسديده ، حتى كَثُرتِ الأموالُ وصلُحت الأحوال في سائر الأقاليم والآفاق .

قال جعيف السَّمرقنديُّ الحاجبُ : كنت مع مولاي المعتضد في بعض مُتَصَيّداته ، وقد انقطعَ عن العسكر ، وليس معه غيري ، إذ خرج علينا أسدٌ ، فَقَصَدَ قصْدنا ، فقال لي المعتضدُ : يا جعيف ، أفيك خيرٌ اليوم ؟

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢٦ .

قلت : لا والله . قال : ولا أن تُمسك فَرَسي وأنزل أنا ؟ فقلت : بلى . قال : فنزل عن فرسه وغرزَ أطراف ثيابه في مِنْطَقتِهِ ، واستلَّ سيفَهُ ورمى بقِرابِهِ إليَّ ، ثم تقدَّم إلى الأسد ، فوثَبَ الأسدُ عليه ، فضربَهُ بالسيف فأطارَ يدَهُ ، فاشتغل الأسدُ بيده ، فضربَهُ ثانيةً على هامَتِهِ فَفَلَقَها ، فخرَّ الأسدُ صريعًا ، فدنا منه فمسح سيفه في صُوفِهِ ، ثم أقبل إليَّ فأغْمَدَ سيفَهُ في قِرابه ، ثم ركبَ فرسَهُ ، فذهبْنا إلى العسكر . قال : وصَحِبْتُهُ إلى أن مات ، فما سمعتُهُ ذَكَرَ ذلك لأحدٍ ، فما أدري من أي شيءٍ أعْجَبُ ؛ من شجاعتِهِ ، أم من عَدَمِ احتفاله بذلك ، حيث لم يَذْكُره لأحدٍ ، أم من عدم عَتْبِهِ عليَّ حيث ضننْتُ بنفسي عنه ؟! والله ما عاتبني في ذلك قطُّ .

أبْطلَ رحمه الله الاحتفال بالنَّيْرُوز .

« أسقَطَ المعتضدُ المَكْس ، ونَشَرَ العدل ، وقلَّل من الظُّلم ، وكان يسمَّى السَّفّاح الثاني ، أحيا رميمَ الخلافة التي ضعفتْ من مقتل المتوكِّل . وكان ملكًا مهيبًا ، شجاعًا ، شديد الوطأةِ ، من رجال العالم ، يُقدم على الأسد وحده »[1] .

قالوا في رثائه :

أين الوثوبُ إلى الأعداءِ مُبتغيًا ... صلاحَ مُلْكِ بني العبَّاسِ إذ فسدَا ؟
ما زلتَ تَقْسِرُ منهم كُلَّ قَسْوَرَةٍ ... وَتَخْبِطُ العاليَ الجبَّار مُعتمِدا
أين الأعادي الأُلَى ذلَّلْتَ مُصْعَبَهُمْ ... أين اللُّيُوثُ التي صَيَّرْتَها بُعْدَا[2]

* * *

(١) السير ١٣ / ٤٦٣ - ٤٦٩ .

(٢) في « البداية » : « صيَّرتها نقدًا » وفي « تاريخ الخلفاء » : « صيَّرتها بردًا » .

الخليفة المُتَّقِي لله ، كان كاسْمِهِ :

أبو إسحاق : إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد .

قال ابن كثير عنه : « كان كاسمه المتقي لله ، كثير الصيام والصلاة والتَّعبُّد ، وقال : لا أُريد جليسًا ولا مُسامِرًا ، حسبي المصحف نديمًا ، لا أُريد نديمًا غيره »(١).

القادر بالله ، المتهجِّد العالم :

الخليفة أبو العبّاس أحمد بن إسحاق بن المقتدر .

كان ديِّنًا عالمًا متعبِّدًا وقورًا ، من جِلَّة الخلفاء وأمْثَلِهم ، عدَّهُ ابنُ الصَّلاح في الشافعيَّة .

« قال الخطيب : كان من الدِّين وإدامة التَّهجُّد ، وكثْرة الصَّدَقات ، على صفةٍ اشتُهرتْ عنه . وصنَّف كتابًا في الأُصول ، ذكر فيه فَضْلَ الصحابة وإكفار من قال بخلْق القرآن ، وكان ذلك الكتاب يُقرأ في كلِّ جمعةٍ في حلْقةِ أصحاب الحديث ، ويحضره الناس مدَّةَ خلافته ، وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر »(٢).

وكان رحمه الله يلبس زيَّ العامَّة .

واستتاب القادرُ فقهاءَ المعتزلة ، فتبرَّءُوا من الاعتزال والرَّفْض ، وأُخذت خطوطُهم بذلك .

وامْتَثَلَ ابن سبكتكين أمْرَ القادر ، فبثَّ السُّنَّة بممالكه ، وتهدَّد بقتْل

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢١١ .

(٢) تاريخ بغداد ٤ / ٣٧ - ٣٨ .

الرَّافِضة والإسماعيليّة والقرامطة ، والمشبِّهة والجهميَّة والمعتزلة ولُعنوا على المنابر[١] .

السلطان الملك الكبير يمين الدولة ، فاتح الهند :

أبو القاسم محمود بن سبكتكين ، صاحب خراسان والهند :

قال ابن كثيرٍ عنه : « يمين الدولة ، وأمينُ المِلَّة ، وصاحب بلاد غزنة وما والاها ، وجيشه يُقال لهم : السَّامانية . سار فيهم وفي سائر رعاياه سيرةً عادلةً ، وقام في نصْر الإسلام قيامًا تامًّا ، وفتح فتوحاتٍ كثيرةً في بلاد الهند وغيرها ، وعظُم شأنُه ، واتَّسعتْ مملكتُه ، وامتدَّتْ رعاياه ، وطالت أيامُه لعدله وجهاده ، وما أعطاه الله إياه ، وكان يخطب في سائر ممالكه للخليفة القادر بالله ، وكانت رُسُل الفاطميِّين من مصر تَفِدُ إليه بالكتب والهدايا لأجل أن يكون من جهتهم ، فيحرق بهم ، ويحرق كتبهم وهداياهم ، وفتَحَ في بلاد الكفار من الهند فتوحاتٍ هائلةً ، لم يتَّفِقْ لغيره من الملوك ، لا قَبْلَه ولا بَعْدَهُ ، وَغَنمَ مغانمَ منهم كثيرةً لا تنحصر ولا تنضبط ، من الذهب واللآلئ والسَّبي ، وكَسَرَ من أصنامهم شيئًا كثيرًا ، وأخَذَ من حليتها . ومن جملة ما كَسَر من أصنامهم صنم يُقال له : « سومنات » ، بلغ ما تحصَّل من حليته من الذهب عشرين ألف ألف دينار ، وكَسَر ملكَ الهند الأكبر الذي يُقال له : « صينان » ، وقَهَرَ ملكَ التُّرك الأعظم الذي يُقال له : « إيلك خان » ، وأباد مُلك السامانية ، وقد ملكوا العالم في بلاد سمرقند وما حولها ثم هلكوا ، وبنى على جيحون جسرًا تعجز الملوك والخلفاء عنه ، غرم عليه ألفي ألف دينار ، وهذا شيءٌ لم يتَّفِق لغيره ، وكان في جيشه أربعمائة فيل تُقاتل ، وهذا شيءٌ عظيم هائل ، وكان مع هذا في غاية الدِّيانة والصِّيانة وكراهة المعاصي وأهلها ، لا يحبُّ

(١) السير ١٥ / ١٢٧ - ١٣٥ .

منها شيئًا ، ولا يَأْلُفه ، ولا أن يسمع به ، ولا يجسُر أحدٌ أن يُظهر معصيةً ولا خمرًا في مملكته ، ولا غير ذلك ، ولا يحبُّ الملاهي ولا أهلها ، وكان يحبُّ العلماء والمحدِّثين ، ويُكرمهم ويُجالسهم ، ويحبّ أهلَ الخير والدِّين والصَّلاح ، ويُحسن إليهم ، وكان حنفيًّا ، ثم صار شافعيًّا على يدي أبي بكر القفّال الصغير ، على ما ذَكَرَهُ إمامُ الحرمين وغيرُه . وكان على مذهب الكرَّاميَّة في الاعتقاد ، ونقم على ابن فورك كلامَهُ ، وأمرَ بطرده وإخراجه ، لموافقته لِرَأْيِ الجهميَّة . وكان عادلًا جيِّدًا ، اشتكى إليه رجلٌ أن ابن أُخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله ، في كلِّ وقت ، فيُخرجه من البيت ويختلي بامرأته ، وقد حارَ في أمره ، وكُلَّما اشتكاه لأحدٍ من أُولي الأمْرِ ، لا يجسُر أحدٌ عليه ، خوفًا وهيبةً للملك . فلمَّا سمع الملكُ ذلك ، غضب غضبًا شديدًا ، وقال للرجل : ويحك ، متى جاءك فَأْتِنِي فأعْلِمْني ، ولا تسمعنَّ من أحدٍ مَنَعَك من الوصول إليَّ ، ولو جاءك في الليل فأْتِنِي فأعلمني . ثم إن الملك تقدَّم إلى الحَجَبَة وقال لهم : إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحدٌ من الوصول إليَّ من ليلٍ أو نهار . فذهب الرجل مسرورًا داعيًا ، فما كان إلَّا ليلة أو ليلتان حتى هَجَمَ عليه ذلك الشَّابُّ ، فأخرجه من البيت ، واختلى بأهله ، فذهب باكيًا إلى دار الملك ، فقيل له : إن الملك نائم . فقال : قد تقدَّم إليكم أن لا أُمنع منه ليلًا ولا نهارًا . فنبَّهُوا الملك ، فخرج معه بنفسه وليس معه أحد ، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراشٍ واحدٍ ، وعندهما شمعةٌ تَقِدُ ، فتقدّم الملك فأطفأ الضوءَ ، ثم جاء فاحتزَّ رأس الغلام ، وقال للرجل : ويحك ، الحقني بشربة ماءٍ . فأتاه بها فشرب ، ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : بالله ، لِمَ أطفأتَ الشمعة ؟ قال : ويحك ، إنه ابن أختي ، وإني كرهتُ أن أُشاهِدَهُ حالةَ الذَّبح .

فقال : وَلِمَ طلبتَ الماء سريعًا ؟ فقال الملك : إني آليتُ على نفسي منذ أخبرتَنِي ، أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك ، وأقوم بحقّك ، فكنتُ عطشان هذه الأيام كلّها ، حتى كان ما كان ممَّا رأيتَ . فدعا له الرجل ، وانصرف الملك راجعًا إلى منزله ، ولم يشعر بذلك أحد »[١،٢] .

سنة ٤١٨هـ كَسْر « سومنات » صنم الهند الأكبر :

قال ابن كثير في أحداث سنة ثمان عشرة وأربعمائة : « وفيها ورد كتابٌ من محمود بن سبكتكين ، يذكُر أنه دخل بلاد الهند أيضًا ، وأنه كَسَرَ الصنم الأعظم الذي لهم ، المُسمَّى بسومنات ، وقد كانوا يفدون إليه من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، كما يفد الناس إلى الكعبة البيت الحرام وأعظم ، ويُنفقون عنده النفقات والأموال الكثيرة التي لا تُوصَف ولا تُعَدّ ، وكان عليه من الأوقاف عشرة آلاف قرية ، ومدينة مشهورة ، وقد امتلأت خزائنه أموالًا ، وعنده ألف رجلٍ يخدمونه ، وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوسَ حجيجه ، وثلاثمائة رجل يُغنُّون ويرقصون على بابه ، لما يضرب على بابه الطبول والبوقات ،

---

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٣٢ - ٣٣ .

(٢) قال السبكي في طبقات الشافعية (٥ / ٣٢١) : « قلت : وفي هذه الواقعة من هذا السلطان ، ما يدلّ على حُسْن نِيَّته ، وتحَرِّيه العدل غير أنها ممزوجٌ عدْلُها بالجهل بالشريعة ، فلم يكن له لو ثَبَتَ عنده أنه زنى بعد الإحصان أن يتعدَّى الرَّجْم إلى حَز الرقبة ، ثم ليس في الحكاية ما يقتضي ثبوتَ الزِّنا عنده ، فإنه لم يُشاهده يزني ، ولو فُرِضت مشاهدتُه إياه زانيًا ، وأنه علم زناه وتحقّقه بالقرائن ، فهي مسألة القضاء في الحدود بالعلم .
ومِن هذا وأشباهه يُعْرَف سِرُّ الشريعة ، في اشتراط كون السلطان مجتهدًا ؛ لأن غيرَ العالم إذا تحرَّى العدل لا يتأتَّى له إلا بصعوبةٍ شديدةٍ ، بخلاف العالِم ، فإنه يعرف ما يأتي وما يَذَر » .

وكان عنده من المجاورين أُلوفٌ يأكلون من أوقافه ، وقد كان البعيد من الهنود يتمنَّى لو بلغَ هذا الصنمَ ، وكان يعوقه طُولُ المفاوز وكثرةُ الموانع والآفات ، ثم استخار اللهَ السلطانُ محمـود ، لَمَّا بَلَغَهُ خبرُ هذا الصنم وعُبّاده ، وكثرة الهنود في طريقه ، والمفاوز المُهلكة ، والأرض الخطرة ، في تجشُّم ذلك في جيشه ، وأن يقطع تلك الأهوال إليه ، فَنَدَبَ جيشَهُ لذلك ، فانْتَدَبَ معه ثلاثون ألفًا من المُقاتلة ، ممَّن اختارهم لذلك ، سوى المتطوِّعة ، فسلّمهم الله حتى انتهوا إلى بلد هذا الوثن ، ونزلوا بساحة عُبّادِهِ ، فإذا هو بمكانٍ بقدْر المدينة العظيمة . قال : فما كان بأسرع من أن مَلَكْناهُ ، وقتلْنا من أهله خمسين ألفًا ، وقلعْنا هذا الوثنَ ، وأوقدْنا تحته النار . وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ أن الهنود بذلوا للسلطان محمود أموالًا جزيلة ؛ ليترك لهم هذا الصنم الأعظم ، فأشار مَنْ أشار من الأُمراء على السلطان محمود بأخْذ الأموال ، وإبقاء هذا الصنم لهم ، فقال : حتى أستخير الله عز وجلَّ . فلمَّا أصبح قال : إني فكَّرتُ في الأمر الذي ذُكِر ، فرأيتُ أنه إذا نُودِيتُ يوم القيامة : أين محمود الذي كسر الصَّنَمَ ؟ أحبُّ إليَّ مِنْ أن يُقال : الذي تَرَكَ الصَّنم لأجْلِ ما يناله من الدنيا . ثم عَزَمَ فكَسَرَهُ ، رحمه الله ، فوجد عليه وفيه من الجواهر واللآلئ والذهب والجواهر النفيسة ما ينيف على ما بذلوه له بأضعافٍ مضاعفة ، ونرجو من الله له في الآخرة الثواب الجزيل ، الذي مثقالُ دانقٍ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، مع ما حصَلَ له من الثناء الجميل الدنيوي ، فرحمه الله وأكْرَمَ مثواه »[(١)].

يقول الدكتور عدنان علي رضا النحوي : « لَمَّا جاء السلطان محمود الغزنوي ، كان همُّه الأوَّل هو نشر الإسلام ، وإزاحة الشرك والوثنية ،

---

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٢٤ - ٢٥ .

واستمرَّ جهادُه في الهند خمسًا وعشرين سنةً فَهَزَمَ الملكَ « جيبال » ، وفتح السلطانُ قلعة « كواكير » وحطَّم أصنامها التي بلغت ستمائة صنم ، وهزم الملك « أنندبال » في صحراء بيشاور ، وأبلتِ النساءُ المسلماتُ في الحرب بلاءً عظيمًا ، وفَتَحَ قلعةَ « نكركوت » وحطَّم صنمهم الأعظم هناك . وكذلك اتّجه إلى تهانسير ليحطِّم الصنم الذي كانوا يُعظِّمونه كثيرًا ، وحاول أحدُ ملوك الهندوس ثَنْيَهُ عن عَزْمِهِ هذا بإغرائه بالمال الوفير ، فأجابه السلطان محمود : « إنَّنا مسلمون ، نعمل لنشر الإسلام وهدْم الأصنام ومعابدها ، وبذلك نجد أضعافًا مضاعفةً من الأجْرِ والثواب عند الله ، ولا حاجةَ لنا بهذا المال » . وعندما توجَّه السلطان محمود إلى كشمير ، أسلم ملكُها على يديه . ثم توجَّه إلى كجرات ، وقصد معبد « سومنات » فيها ، حيث كان يوجد صنم من أعظم أصنام الهند ، وكان الوثنيون يحجُّون إليه كل ليلة خسوف ، وحاول الوثنيُّون إقناعَهُ بالعدول عن عزمه ذلك ، وعرضوا عليه الأموال الطائلة ، فأبى وقال : « ما خرجت إلَّا لتحطيم الأصنام وإعلاء كلمة الله » . وَفَتَحَ أماكن عدَّة في الهند ، وينتقل من نصرٍ يَمُنُّ الله عليه به إلى نصرٍ ، ويدعو إلى الإسلام ويحطِّم الوثنيَّة بكل صورها .

ولقد نشر السلطانُ محمود الغزنويُّ العلومَ في مملكته ، وقرَّب العلماءَ والتقاة الصالحين »[١] .

قال الدكتور عدنان النحوي : « لقد قام السلطان محمود الغزنوي من غزنة عاصمة مُلكه في أفغانستان ، فتابَعَ حملاته إلى داخل الهند ، وقاد سبع عشرة حَمْلَةً على شبه القارة الهنديّة بين سنتي ٣٨٩هـ - ٤١٦هـ .

---

(١) ملحمة الإسلام في الهند ، للدكتور عدنان علي رضا النحوي صـ ١٣٥ - ١٣٦ - طبع دار النحوي .

وتوفي وترك دولةً مسلمةً واسعةً تَضُمُّ : زابلستان ، وخوارزم ، خراسان ، طبرستان ، أصفهان ، كرمان ، ومكران ، والسند ، والبنجاب »[(١)].

وطيوفُ « غَزْنَةَ » لم تَزَلْ في ساحها أصـداءُ فرسـانٍ وَخَفْقُ مُهَنَّـدِ
أَبْلَى بها « محمودُ » حتى أسلمتْ للهِ أفئـــدةٌ وَلَهْفَـــةُ أَكْبُـــدِ
طُـوبى لسلطـانٍ أَبَرَّ مجاهـدٍ جَمَعَ الأئمةَ في وَغى أو مسجدِ
ماضٍ لملحمةٍ وأكْرَمِ مَوْرِدِ جَمَـعَ الأئمـةَ حـولَهُ في مـوكبٍ[(١)]

الذهبيُّ يُثني على ابن سبكتكين :

قـال الـذهبي في « السـير » عـن ابن سبكتكين : « خافَتْهُ الملـوكُ ، واستولى على إقليم خراسان ، ونَفَّذ القادرُ بالله خِلَعَ السَّلْطَنة ، ففرضَ على نفسِه كُلَّ سنةٍ غَزْوَ الهندِ ، فافتتح بلادًا شاسعةً ، وكسر الصَّنَم سُومنات ، الذي كانَ يعتقدُ كَفَرةُ الهند أنه يُحيي ويُميت ، ويَحُجُّونه ، ويُقَرِّبون له النفائسَ ، بحيثُ إنَّ الوقوفَ عليه بلغتْ عشرةَ آلاف قرية ، وامتلأتْ خزائنُه من صُنُوف الأموالِ ، وفي خدمته من البَرَاهمة ألفا نَفْسٍ ، ومائةُ جَوْقَة مغاني رجال ونساء ، فكان بين بلاد الإسلام وبينَ قلعة هذا الصَّنَم مفازةٌ نَحْوَ شهرٍ ، فسار السلطانُ في ثلاثين ألفًا ، فيسَّر اللهُ فتحَ القلعةِ في ثلاثة أيام ، واستولى محمود على أموالٍ لا تُحصى ، وقيل : كان حَجَرًا شديدَ الصَّلابَةِ طولُه خمسةُ أَذْرُعٍ ، مُنَزَّلٌ منه في الأساس نحو ذراعين ، فأحرقه السلطانُ ، وأخذ منه قطعةً بناها في عَتَبَة بابِ جامعِ غَزْنة ، ووجدوا في أُذُن الصنم نيِّفًا وثلاثين حَلْقَةً ؛ كُلُّ حلقةٍ يزعمُون أنها عبادَتُه ألفَ سنة»[(٢)].

---

(١) ملحمة الإسلام في الهند صـ ٧٧ ، ١٦٥ .

(٢) الكامل ٩ / ١٣٠ - ١٣١ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٤ ، ٣٤٢ - ٣٤٦ . وطبقات السبكي ٥ / ٣١٧ ، ٣١٨ . ووفيات الأعيان ٥ / ١٧٦ - ١٧٩ .

وكان السلطانُ مائلًا إلى الأثر إلا أنّه من الكرَّامِيَّة .

قال أبو النَّضر الفاميُّ : لمَّا قَدم التَّاهَرْتيُّ الداعي من مصر على السُّلطان يدعُوه سِرًّا إلى مذهبِ الباطنيّة ، وكان التَّاهَرْتيُّ يركَبُ بَغْلًا يتلَوَّنُ كُلَّ ساعةٍ من كلِّ لونٍ ، ففهم السلطانُ سِرَّ دعوتِهم ، فغضبَ ، وقَتَلَ التَّاهَرتيَّ الخبيثَ ، وأهدى بغلَهُ إلى القاضي أبي منصور محمدِ بن محمد الأَزْدي ؛ شيخ هَرَاة ، وقال : كان يَرْكَبُه رأسُ المُلْحِدين ، فليَركَبْه رأسُ المُوحِّدين[1] .

قال عبدُ الغافر الفارسيُّ في ترجمة محمود : كان صادقَ النِّيَّة في إعلاءِ الدِّين ، مُظَفَّرًا كثيرَ الغَزْوِ ، وكان ذكيًّا بعيدَ الغَور ، صائبَ الرَّأْي ، وكان مجلسُه مَوْرِدَ العُلماء .

قال أبو علي بنُ البنّاء : حكى عليُّ بنُ الحسين العُكْبَريُّ ، أنه سمع أبا مسعود أحمدَ بنَ محمد البَجَليَّ قال : دخلَ ابنُ فُورَك على السلطان محمود ، فقال : لا يجوزُ أن يُوصف اللهُ بالفوقيَّة ؛ لأنَّ لازمَ ذلك وَصْفُه بالتحتيَّة ، فمَن جازَ أن يكونَ له فوقٌ ، جاز أن يكونَ له تحتٌ . فقال السلطانُ : ما أنا وصفتُه حتى يلزمَني ، بل هو وصفَ نفسَه . فَبُهِتَ ابن فُورَك ، فلما خرج من عنده مات . فيقال : انشقَّتْ مرارَتُه .

قال عبدُ الغافر : قد صُنِّف في أيام محمود وأحوالِه لحظة لحظة ، وكان في الخيرِ ومصالحِ الرعيّة ، يُسِّرَ له الإسارُ[2] والجنودُ والهيبةُ والحشمةُ ، مِمَّا لم يَرَهُ أحد .

---

(١) طبقات السبكي ٥ / ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) القوة .

وقال أبو النضر محمدُ بنُ عبد الجبار العُتْبي في كتاب « اليميني »[(١)] في سيرة هذا الملك ، قيل فيه :

أَظَلَّتْ شَمْسُ محمودٍ ... على أَنْجُمِ سَامَانِ
وأمسى آلُ بهْرامٍ ... عَبيدًا لابنِ خاقانِ
فمِنْ واسِطَةِ الهِنْدِ ... إلى سَاحَةِ جُرْجَانِ
وَمِنْ قاصِيَةِ السِّنْدِ ... إلى أَقْصَى خُراسانِ
فَيَوْمًا رُسُلُ الشَّاهِ ... وَيَوْمًا رُسُلُ الخانِ

كانت غَزَواتُ السلطان محمودٍ مشهورةً عديدةً ، وفتوحاتُه المبتكرة عظيمة .

قرأتُ بخَطِّ الوزير جمال الدين بن علي القِفْطي في سيرته : قال كاتبُه الوزيرُ ابنُ الميمندي : جاءنا رسولُ الملكِ « بَيدا » على سريرٍ كالنَّعش ؛ بأربعِ قوائم يحمِلُه أربعةٌ ، وكان السلطانُ يُعظِّم أَمرَ الرُّسُلِ لِما يفعلُه أصحابُهم برُسُله . قال : فَحُمِلَ على حالته حتى صار بين يديه ، فقال له الهنديُّ : أيُّ رجلٍ أنتَ ؟ قال : أدعُو إلى الله ، وأُجاهِدُ مَنْ يُخالف دينَ الإسلام . قال : فما تُريد منا ؟ قال : أن تتركُوا عبادةَ الأصنام ، وتلتَزِمُوا شُرُوط الدين ، وتأكُلوا لحم البَقَر . وتردَّد بينهما الكلامُ ، حتى خوَّفه محمودٌ وهدَّده ، وقال الحاجبُ للهنْدي : أتدري لِمَنْ تُخاطِبُ ؟ وبين يَدَيْ أيِّ سُلطانٍ أنتَ ؟ فقال الهنديُّ : إن كان يدعُو إلى اللهِ كما يزعمُ ، فليس هذا من شُرُوط ذلك ، وإن كان سُلطانًا قاهرًا لا يُنصفُ ، فهذا أمرٌ آخر . فقال الوزيرُ : دَعُوه . ثم ورد الخبرُ بتشويش خُراسان ، وضاقَ على صاحب الهندِ الأمرُ ، ورأى أنَّ بلادَه تَخْرَبُ ، فنفَّذَ رسولًا آخر ، وتلطَّف ، وقال :

(١) نسبة إلى يمين الدولة ، وهو لقب السلطان محمود .

إنَّ مُفارقة دينِنا لا سبيل إليه ، وليس هنا مال نُصالِحُكَ عليه ، ولكن نجعلُ بيننا هُدْنَةً ، ونكونُ تحت طاعَتِك . قال : أُريد ألفَ فيلٍ وألف مَنًا ذهبًا . قال : هذا لا قُدرة لنا عليه . ثم تقرَّر بينهما تسليمُ خمسمائة فيلٍ وثلاثةِ آلاف من فِضَّة ، واقترحَ محمودٌ على الملك بَيْدا أن يلبس خِلْعَتَه ، ويَشُدَّ السيفَ والمِنْطَقَة[1] ، ويضرب السِّكَّةَ باسمه . فأجابَ ، لكنّه استعفى من السِّكَّة ، فكانت الخِلْعَةُ قَبَاءً نُسِجَ بالذَّهَبِ ، وعمامةَ قَصَبٍ ، وسيفًا مُحَلًّى ، وفرسًا وخُفًّا ، وخاتَمًا عليه اسمُه ، وقال لرسوله : امضِ حتى يَلْبَس ذلك ، وينزِلَ إلى الأرضِ ، ويقطعَ خاتَمَه وأُصْبُعَه ، ويُسَلِّمها إليكَ ، فذلك علامةُ التَّوْثِقَة . قال : وكان عند محمودٍ شيءٌ كثيرٌ من أصابع المُلُوك الذين هادَنَهم .

قال ابنُ الميمندي الوزيرُ : فذهبْتُ في عشرةِ مماليك أتراك ، وجئنا وصحنا : رسولٌ رسولٌ . فكفُّوا عن الرَّمْي ، فأُدخِلنا على المَلِكِ ، وهو شابٌ مليحُ الوجه على سرير فضة ، فخدمتُه بأن صفقْتُ بيدَيَّ ، وانحنيتُ عليهما ، وقلتُ : جُوْ . فكان جوابه : بَاهْ . وأجلسني ، وقرَّبَنِي ، وأخذ يشكو ما لَحِقَ البلادَ من الخَرَابِ ، ثم لبس الخِلْعَةَ بعد تَمنُّع ، وتعمّم له تركِيٌّ ، وطالبتُه بالحَلِف ، قال : نحلِفُ بالأصنام والنار ، وأنتم لا تَقنعون بذلك . قلتُ : لا بدَّ . وأحجمتُ عن ذكر الأُصْبُعُ ، فأخرج حديدةً قطع بها أصْبُعَه الصغرى ولم يكترِثْ ، وعمل على يده كافُورًا ، وَدُفِعَتْ إليَّ ، وقال : قُل لصاحِبكَ : اكفُفْ عن أذى الرعيَّة . فرجع السُّلطانُ إلى خُراسان ، ونفَّذَ إليه ابنُ مروان صاحبُ ديار بكر هديَّةً ، فردَّها وقال : لم أردَّها استقلالًا ، ولكن علمتُ أنَّ قصدكَ المخالطةُ والمصادقةُ ، ويقبُحُ بي أن

(١) كلّ ما شدّ في الوسط .

أُصَادِق مَن لا أقدِرُ أن أنصُره ، وربما طرقَكَ عدوٌّ وأنا على ألف فرسخٍ منك ، فلا أتمكَّنُ من نُصرتك .

ثم بلغ السلطانَ أنَّ الهنودَ قالوا : أخْرَبَ أكثرَ بلادِ الهند غضبُ الصنمِ الكبيرِ سُومَنات على سائر الأصنام ومَنْ حولها . فعَزَمَ على غَزْو هذا الوَثن ، وسار يَطوي القِفار في جَيْشِه إليه ، وكانوا يقولون : إنه يَرزُق ويُحيي ويُميت ويسمع ويَعي . يَحُجُّون إليه ، ويُتحِفونه بالنفائس ، ويتغالَون فيه كثيرًا ، فتجمَّع عند هذا الصنم مالٌ يتجاوزُ الوصْفَ ، وكانوا يَغسِلُونه كُلَّ يوم بماءٍ وعَسلٍ ولبنٍ ، وينقُلُون إليه الماءَ من نهرِ « حيل » مسيرةَ شهر ، وثلاثمائة يَحلِقُون رؤُوس حُجّاجه ولِحَاهم ، وثلاثمائة يُغَنُّون . فسار الجيشُ من غَزْنة ، وقطعُوا مَفازةً صعبةً ، وكانوا ثلاثين ألف فارس وخلْقًا من الرَّجَّالة والمُطَّوِّعة ، وَقَوَّى المُطَّوِّعَةَ بخمسين ألف دينار ، وأنفقَ في الجيش فوقَ الكِفَاية ، وارتحل من « المُليا » ثاني يوم الفطر سنة ٤١٦ ، وقاسَوْا مَشَاقَّ ، وبقُوا لا يجدون الماءَ إلا بعد ثلاثٍ ، غطَّاهُم في يومٍ ضبابٌ عظيم ، فقالت الكَفَرةُ : هذا مِنْ فعل الإلٰه سُومَنات . ثم نازل مدينةَ أَنْهَلْوارة ، وهرب منها مَلِكُها إلى جزيرة ، فأخرب المسلمون بلدَهُ ، ودكُّوها ، وبينها وبين الصنم مسيرةُ شهرٍ في مفاوز ، فساروا حتى نازَلُوا مدينة دَبُولوارة ؛ وهي قَبْل الصَّنَمِ بيومين ، فَأُخِذَتْ عَنْوَةً ، وكُسِرتْ أصنامُها ، وهي كثيرةُ الفواكِه ، ثم نازلوا سُومنات في رابع عشر ذي القعدة ، ولها قلعةٌ منيعةٌ على البحر ، فوقع الحصارُ ، فنُصِبت السَّلالمُ عليها ، فهرب المُقاتِلةُ إلى الصَّنَم ، وتضرَّعُوا له ، واشتدَّ الحالُ ، وهم يَظُنُّون أنَّ الصنم قد غضب عليهم ، وكان في بيتٍ عظيمٍ منيع ، على أبوابه السُّتُورُ الدِّيباجُ ، وعلى الصنم من الحُلِيِّ والجواهر ما لا يُوصَف ، والقناديل تُضِيءُ ليلًا ونهارًا ، على رأسِه تاجٌ لا يُقَوَّم ، يندهِشُ منه الناظرُ ، ويجتمعُ عنده في عيدهم

نحوُ مائة ألف كافر ، وهو على عرشٍ بديعِ الزَّخرفة ؛ علوّ خمسةِ أذرع ، وطولُ الصنم عشرةُ أَذْرُع ، وله بيتُ مالٍ فيه من النفائسِ والذهبِ ما لا يُحصى ، ففرَّق محمودٌ في الجند مُعْظَمَ ذلك ، وزعزعَ الصنمَ بالمعاوِل ، فخرَّ صريعًا . وكانت فرقةٌ تعتقِدُ أنه مَنَاةُ ، وأنه تحوَّلَ بنفسِه في أيام النُّبُوة من ساحل جُدَّة ، وحَصَلَ بهذا المكان ليُقْصَد ويُحَجَّ ، مُعَارَضَةً للكعبة ، فلمَّا رآه الكفارُ صريعًا مهينًا ، تحسَّروا ، وسُقِط في أيديهم ، ثم أُحرِقَ حتى صار كِلْسًا ، وأُلقيت النيرانُ في قصور القلعة ، وقُتل بها خمسون ألفًا ، ثم سار محمودٌ لأسْرِ المَلِك « بهيم » ، ودخلوا بالمراكب ، فَهَرَبَ ، وافتتح محمودٌ عدةَ حصون ومدائن ، وعاد إلى غَزْنة ، فدخلها في ثامن صفر سنة سبع عشرة ، ودانت له الملوكُ ، فكانت مدةُ الغَيبة مائةً وثلاثة وستين يومًا .

وفي سنة ثمان عشرة سار إلى بَلْخ ، وجهَّز جيشَه إلى ما وراء النهر في نُصرة الخانيَّة ، وكان عليُّ بنُ تكين قد أغار على بُخارى ، فضاق قدرخانُ به ذرعًا ، واستنجد محمودًا ، ففرَّ ابنُ تكين ، ودخل البَرِّيَّة . ثم حارب محمودٌ الغُزَّ ، وقبضَ على ابن سلجوق مُقَدَّمِهم ، فثارت الغُزُّ ، وأفسدوا ، وتفرَّغُوا للأذى ، وتعبتْ بهم الرَّعِيَّةُ ، واستحْكَمَ الشَّرُّ ، وأقام محمودٌ بنيسابور مدَّةً ، ثم في عشرين قصدَ الرَّيَّ ، وأخَذَها ، وقبضَ على مَلِكِها مجدِ الدولة بنِ بُوَيْه ؛ وكان ضعيفَ التدبير ، فضُرِبَ حتى حَمَلَ ألفَ ألفِ دينار ، وصَلَبَ محمودٌ أُمراءَ من الدَّيْلَم ، وجرتْ قبائحُ وظُلم ، ثم جَهَّزَ محمودٌ ولدَه مسعودًا ، فاستولى على أَصْبَهان ، ثم رجع السلطانُ إلى غَزْنة عليلًا ، فمات في ربيع الأول سنة إحدى ، وأمسى وقد فارَقَتْهُ الجُنُود ، وتنكَّسَتْ لحُزنه البُنود ، وناح عليه الوالد والمولودُ ، وسَكَن ظُلمةَ اللُّحُود .

وقد خُطب له بالغُور وبخُراسان والسِّند والهند ، وناحية خوارزم وبلخ ؛ وهي من خُراسان ، وبجُرْجان وطَبَرِستان والرَّيّ والجِبَالِ ، وَأَصْبَهَان وَأَذْرَبِيجان ، وهَمْدانِ وأرمِينية .

وكان مُكرِمًا لأمرائه وأصحابِه ، وإذا نَقَمَ عاجَلَ ، وكان لا يفتُر ولا يكاد يَقِرُّ . سار مرةً في خمسين ألف فارس ، وفي مائتَيْ فيل ، وأربعين ألف جَمَّازة[1] تحمِل ثِقْل العساكر ، وكان يعتقدُ في الخليفة ؛ ويخضَعُ لجَلَالِهِ ، ويحملُ إليه قناطيرَ من الذَّهب ، وكان إلْبًا على القَرامطة والإسماعيليَّة وعلى المتكلِّمين ، على بدعةٍ فيه فيما قيل ، ويغضَبُ للكرَّامِيَّة »[2].

وَرَدَ إليه الداعي من الحاكم (الخليفة الفاطمي) يدعوه إلى طاعته ، فخَرَقَ كتابَهُ وبَصَقَ عليه[3].

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية : « أحَد أئمة العدل ، ومَنْ دانت له البلاد والعباد وظهرتْ محاسنُ آثاره . كان إمامًا عادلًا شجاعًا ، مفرطًا ، فقيهًا فَهِمًا ، سمحًا جوادًا . وهو أحد أربعة لا خامسَ لهم في العدل بعد عمر بن عبد العزيز : نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين ونظام المُلك . وممَّا كتبه إلى أمير المؤمنين القادر بالله : لقد كان العبد يتمنَّى قلْع هذا الصنم ، ويتعرَّف الأحوال ، فتُوصَف له المفاوز إليه ، وقلَّة الماء ، وكثْرة الرمال ، فاستخار العبد الله في الانتداب لهذا الواجب طلبًا للأجْر ، ونَهَضَ في شعبان سنة ست عشرة في ثلاثين ألف فارس ، سوى

---

(١) الجَمَّازة : ناقة تعدو الجَمَزَى ، وهو ضَرْب من العَدْوِ دون الحُضْر الشديد ، وفوق العَنَق .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٨٤ - ٤٩٢ .

(٣) المنتظم ٧ / ٢٦٢ ، والسير ١٥ / ١٣٣ .

المُطَّوِّعة ، وفرَّق في المطّوِّعة خمسين ألف دينارٍ معونةً ، وقضى الله بالوصول إلى بلد الصنم ، وأعان ، حتى مُلِكَ البلد وقُلِع الوثنُ ، وأُوقِدتْ عليه النار حتى تقطَّع ، وقُتل خمسون ألفًا من البلد . وقد كان محمود افتتحَ قبل ذلك من الهند أماكنَ منيعةً ، وغَنم أموالًا كثيرة ، وكتبَ إلى أمير المؤمنين : إن كتاب العبد صدر في غَزْنة ، لنصف المحرَّم سنة عشر ، والدين مخصوصٌ بمَزيد الإظهار ، والشِّرك مقهورٌ بجميع الأقطار ، وانْتَدَبَ العبدُ لتنفيذ الأوامر ، وتابع الوقائع على كُفَّار السِّند والهند ، فرتَّب بنواحي غَزْنة العبدَ محمدًا ، مع خمسة عشر ألف فارس ، وعشرة آلاف راجِلٍ ، وشحن بَلْخ وَطَخَارِسْتان بأَرْسِلان الحاجب ، مع اثني عشر ألف فارس ، وعشرة آلاف راجِلٍ ، وانضمَّ إليه جماهير المُطَّوِّعة ، وخرج العبد من غَزْنة ، في جُمادَى الأولى ، سنة تسع ، بقلبٍ منشرحٍ ، لِطَلَب السعادة ، ونفسٍ مشتاقةٍ إلى دَرَك الشهادة ، ففتح قِلاعًا وحصونًا ، وأسلم زُهاءُ عشرين ألفًا ، من عُبّاد الوَثَن ، وسلَّموا قدر ألف ألفٍ من الوَرِق ، ووَقَعَ الاحتواء على ثلاثين فِيلًا ، وبلغَ عددُ الهالكين منهم خمسين ألفًا ، ووافى العبدُ مدينةً لهم ، عاينَ فيها زُهاءَ ألفِ قَصْرٍ مَشِيدٍ ، وألفَ بيتٍ للأصنام ، ومبلغُ ما في الصنم ثمانيةٌ وتسعون ألف مِثْقال ، وقُلع من الأصنام الفضّة زيادة على ألف صنمٍ ، ولهم صنمٌ معظَّم يؤرِّخون مُدَّته بجهالتهم العظيمة بثلاثمائة ألف عام ، وقد بَنَوْا حول تلك الأصنام المنصوبة زُهاء عشرة آلافِ بيتٍ ، فعُنِيَ العبد بتخريب تلك المدينة اعتناءً تامًّا ، وعَمَّها المجاهدون بالإحراق ، فلم يَبْقَ منها إلا الرُّسوم . وحين وجدَ الفراغ لاستيفاء الغنائم ، حصَّل منها عشرين ألف ألف دِرهم ، وأفردَ خُمْس الرَّقيق ، فبلغ ثلاثًا وخمسين ألفًا ، واستعرض ثلاثمائة وستة وخمسين فِيلًا » .

قال السبكي في « طبقات الشافعية » (٥ / ٣٢٢ - ٣٢٧) : « في

سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة غزا بلاد الهند ، وقصد ملكها « جيبال » ، في جيشٍ عظيم ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، وفتح الله على يديه ، وَكَسَرَ الهنودَ وأسر مَلِكَهم ، وأخذَ مِن عنقه قِلادة ، قيمتها ثمانون ألف دينار ، وَغَنِم المسلمون منهم أموالًا عظيمةً ، وفتحوا بلادًا كثيرةً ، ثم أطلق محمودٌ مَلِكَ الهند ، احتقارًا له واستهانةً بأمره ، مع شدَّة بأسه وَعِظَم اسمه ، فوصل ذليلًا مكسورًا إلى بلاده ، وقيل : إنه لَمَّا وصل ألقى نَفْسَهُ في النار التي يعبدونها من دون الله ، فهلكَ . ثم غزا الهند أيضًا في سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة ، فافتتح مدنًا كثيرةً كبارًا ، وغنم ما لا يُحْصَى من الأموال ، وأسَرَ بعضَ ملوكهم ، وهو ملك كراسي ، حين هرب منه لَمَّا افتتحها ، وكسرَ أصنامها ، فألْبسه مِنْطَقة شَدَّها على وسطه ، بعد تَمنُّعٍ شديد ، وقطع خِنْصَره ، ثم أطلقه إهانةً له ، وإظهارًا لعظمة الإسلام وأهله . ثم غزا عَبَدَةَ الأصنام ثالثًا ، في سنة ثمان وتسعين ، وفتح حصونًا كثيرة ، وأخذ أموالًا جَمَّةً ، وجواهرَ نَفيسةً ، وكان في جملة ما وُجد بيتٌ طوله ثلاثون ذراعًا ، وعَرْضه خمسة عشر ذراعًا ، مملوءٌ فِضَّةً ، ولمَّا رجع إلى غَزْنة بَسَطَ الحَواصِل في صَحْن داره ، وأذِنَ لرسل الملوك ، فدخلوا عليه ، فرأوا ما هالهم . وفي سنة اثنتين وأربعمائة أو سنة إحدى ، غزا الكفَّارَ أيضًا ، وقَطَعَ مَفازةً عظيمة ، أصابه فيها عطش مُفْرِط ، كاد يُهْلِك عسكره ، ثم مَنَّ الله بمطرٍ عظيمٍ رَوَاهم ، ووصلوا إلى الكفار ، وهم خلائقُ لا يُحْصَون ، ومعهم ستمائة فيل ، فنُصِر عليهم ، وغنم شيئًا عظيمًا ، وعاد . ثم غزا في سنة ست وأربعمائة ، فغَرَّه أدلَّته وأضلُّوه عن الطريق ، فحصل في مائية فاضت من البحر ، وغَرِق كثيرٌ ممَّن كان معه ، وخاض الماءَ بنفسه أيامًا ، ثم تخلَّص وعاد إلى خُراسان . ثم غزا في سنة ثمانٍ وأربعمائة ، وافتتح بلادًا كثيرة . ثم أعاد الغزو في سنة تسعٍ وأربعمائة ، وجال في بلاد الكفّار

مَسِيرةَ ثلاثةِ أشهر عن غَزْنة . وفي هذه السنة افتتحَ المدينتين العظيمتين : مَهَرَّة ، وقِنَّوْج ، وكان فتحًا عظيمًا عزيزًا .

قال أبو النصر الفامي : وقِنَّوْج هي التي أعيتْ الملوكَ غير كشتاسب على ما زعمتْه المجوس ، وهو ملك الملوك في زمانه ، فزحَفَ السلطان محمودٌ بعساكره ، وعبرَ مياه سَيْحون وتلك الأودية التي تجلُّ أعماقها عن الوَصْفَ ، ولم يَطَأْ مملكةً من تلك الممالك ، إلا أتاه الرسول واضعًا خَدَّ الطاعة ، عَارِضًا في الخدمة كُنْه الاستطاعة ، إلى أن جاءه جِنْكِي بن سَمَّهِي ، صاحب درب قِشْمِير ، عالمًا بأنه بَعْثُ اللهِ الذي لا يُرضيه إلا الإسلام أو الحُسام ، فضمن إرشاد الطريق ، وسار أمامه هادِيًا ، فما زال يفتتح الصَّياصِي والقِلاع ، حتى مرّ بقلعة هَرْدَب ، فلما رأى مَلِكُها الأرضَ تموج بأنصار الله ، ومِن حولها الملائكة ، زُلْزِلَتْ قَدَمُه ، وأشفق أن يُراق دَمُه ، ونزل في عشرة آلاف ، مُنادِين بدعوة الإسلام . ثم سار بجنوده إلى قلعة كُلْجَنْد ، وهو من رؤوس الشياطين ، فكانت له معه مَلْحَمة عظيمة ، هلك فيها من الكفار خمسون ألفًا ، من بين قتيلٍ وغريقٍ ، فَعَمَدَ كُلْجَنْد إلى زوجته ، فَقَتَلَهَا ثم ألحقَ بها نَفْسَهُ ، وغَنِمَ السلطان مائة وخمسة وثلاثين فِيلًا . ثم عطفَ إلى البلد الذي يُسمَّى المُتَعَبَّد ، وهو مَهَرَّة الهند ، يُطالع أبنيَتها التي ذَكَرَ أهلها أنها من بِناء الجانّ ، فرأى ما يخالف العادات ، وهي مشتملة على بيوت أصنام ، بنقوش مبدعة ، وتزاويق تَخْطف البَصَر ، وكان فيما كتب به السلطان ، أنه لو أراد مريد أن يبني ما يُعادِل تلك الأبنية ، لَعَجَزَ عنها بإنفاقِ مائة ألف ألف درهم في مائتي سنة ، على أيدي عَمَلَةٍ كَمَلَة ، ومَهَرَةٍ سَحَرَة . وفي جملة الأصنام خمسةٌ من الذهب ، معمولةٌ طولَ خمسة أذرع ، عينا واحدٍ منها ياقوتتان ، قيمتهما أزْيَدُ من خمسين ألف دينار ، وعلى آخر ياقوتةٌ زرقاء ، وزنها أربعمائة وخمسون مِثقالًا ، وكان جملة

الذَّهَبِيَّات الموجودة على الأصنام ، ثمانيةً وسبعين ألف مثقالٍ . قال : ثم أمر السلطان بسائر الأصنام فضُرِبت بالنِّفْط ، وحاز من السَّبايا والنِّهاب ما يعجز عنه أنامِل الحُسَّاب . ثم سار إلى قِنَّوْج ، وخلَّف معظم العسكر ، فوصل إليه في شعبان سنة تسع ، وقد فارقها الملك راجيال منهزِمًا ، فتتبَّع السلطان قِلاعها ، وكانت على سيف البحر ، وفيها قَرِيبٌ من عشرة آلاف بيتٍ للأصنام ، يزعُم المشركون أنّها مُتَوَارَثَة منذ مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف سنة ، كذِبًا وزُورًا ، فَفَتَحَهَا كلَّها في يومٍ واحد ، ثم أباحها لجيشه ، فانتهبوها ، ثم رَكَضَ منها إلى قلعة البَراهِمة ، فافتتحها ، وقتَل بها خَلْقًا كثيرًا . ثم افتتح قلعة جَنْدَرَاي ، وهي التي تُضْرَب الأمثال بحصانتها .

وهذا هو الفتح العزيز من فتوحاته ، ساقه صاحب « اليميني » بأفصح عبارةٍ وأحلاها ، فَلْيَنظُرْه فيه مَنْ أراده ، وهو الذي عاد منه في سنة عشرٍ ، وأرسَلَ كتابه إلى القادر أمير المؤمنين ، وقد ذكَرْنا بعضَهُ . ثم كان له في سنة أربع عشرة فَتْحٌ أعظمُ من هذا ، أوْغَلَ فيه في بلاد الهند ، حتى جاء إلى قلعة فيها ستمائة صنم ، وقال : أتيتُ قلعةً ليس لها في الدنيا نظير ، وما الظَّنُّ بقلعةٍ تَسَعُ خَمْسَمائة فيل وعشرين ألف دابَّة ، ومَنْ يقوم بعَلَف هؤلاء ، ومَنْ يحملونه ! وأعان الله ، حتى طلبوا الأمان ، فأمَّنْتُ مَلِكَهم ، وأقررتُ على ولايته ، بخَراجٍ ضُرِب عليه » .

ومن مناقبه رحمه الله : « أن العراقيين لم يخرج رَكْبُهم إلى الحج في سنة عشر وأربعمائة ، وسنة إحدى عشرة ، فلمَّا كانت سنة اثنتي عشرة ، قصد طائفةٌ يمينَ الدولة محمودًا ، وقالوا : أنت سلطان الإسلام ، وأعظم ملوك الأرض ، وفي كل سنة تفتح من بلاد الكفر ناحيةً ، والثواب في فتح طريق الحجِّ عظيم . فاهتمَّ بهذا الأمر ، وتقدَّم إلى قاضِيهِ بالتَّأَهُّب للحَجِّ ، ونادى في أعمال خراسان بذلك ، وأطلق للعرب في البادية مِن خاصِّ ماله

ثلاثين ألف دينار » .

القائم بأمر الله يستغيث بالله ، فَيَرُدّ اللهُ عليه مُلْكَه :

أمير المؤمنين ، القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله .

كان ذا دينٍ وخيرٍ وبرٍّ وعلْمٍ وعدْلٍ ، عالمًا مهيبًا ، نُكب سنة خمسين في كائنة البساسيري ، ففرَّ إلى البَرِّيَّة ، ورفعَ قصتهُ إلى ربِّ العالمين ، مُستعديًا على من ظَلَمهُ ، ونفَّذ بها إلى البيت الحرام ، فنفعتْ ، وأخذَ اللهُ بيده ، وردَّهُ إلى مقرِّ عزِّه ، فكذلك ينبغي لكلِّ من قُهر وبُغي عليه أن يستغيث بالله .

وكان ذا حظٍّ من تعبّد وصيامٍ ، وتهجُّدٍ ، لَمَّا أن أُعيد إلى خلافته ، قيل : إنه لم يستردّ شيئًا مما نُهب من قصره ، ولا عاقَبَ مَنْ آذاه ، واحتسَبَ وصبرَ ، وكان تاركًا للملاهي ، رحمه الله .

المُقتدي بأمر الله يأمُر بِنَفْي المُغنِّيات والخواطئ :

أبو القاسم ، عُبيد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله .

تسلَّم الخلافة وهو ابن عشرين سنة .

« كان حَسَن السِّيرة ، وافر الحُرمة ، أمَرَ بِنَفْي الخواطئ والقَيْنات ، وأن لا يدخل أحدٌ الحمّام إلَّا بِمِئْزَرٍ ، وأخْرَبَ أبراجَ الحمام . وفيه ديانةٌ ونجابةٌ وقوَّةٌ وعلوّ همّةٍ . وكان « مَلكشاه » قد صمَّم على إخراجه من بغداد ، فَحَارَ ، والتجأ إلى الله ، فدفع عنه ، وهلك ملكشاه »[1].

قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » صـ ٤٢٣ : « كانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة ، وافرة الحُرمة ، نفى المغنيّات والخواطئ ببغداد ، وخرَّب

---

(١) السير ١٨ / ٣١٨ - ٣١٩ .

أبراج الحمام صِيانةً لحرم الناس ، وكان ديِّنًا خيِّرًا قويّ النَّفْس عالي الهمَّة من نُجَباء بني العباس » .

السلطان الكبير ألْب أرسِلان ، قائد جيش الأكفان « يبيع إمبراطور الروم بكلب !! » :

هو السلطانُ الكبير ، الملكُ العادل ، عَضُدُ الدولة ، أبو شجاع ، أَلْب أَرْسِلان ، محمدُ بنُ السلطان جَغْرِيبَك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن تُقاق ابن سلجوق التركماني ، الغُزِّي . من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم .

وَعَظُمَ أمر السلطان ألب أرسلان ، وخطب له على منابر العراق والعَجَم وخراسان ، ودانتْ له الأمم ، وأحبَّتْهُ الرعايا ، ولا سيَّما لمَّا هزمَ العدوَّ ، فإن الطاغيةَ عظيمَ الروم أرمانوس حَشَدَ ، وأقْبَلَ في جمْعٍ ما سُمع بمِثْلِهِ ، في نحوٍ من مائتي ألف مقاتلٍ من الرّوم والفِرنْج والكُرْج وغير ذلك وصل إلى مَنازْكِرْد[1] ، وكان السلطان بـ « خُوَيٍّ »[2] قد رجع من الشام في خمسة عشر ألف فارس ، وباقي جُيوشه في الأطراف ، فصمَّم على المصافّ ، وقال : أنا ألتقيهم ، وحسبي الله ، فإن سَلِمْتُ ، وإلا فابني « مَلِكْشاه » وَلِيُّ عهدي . وسار ، فالتقى يَزَكُه[3] وَيَزَكُ القوم ، فَكَسَرَهم يَزَكُه ، وأسروا مُقَدَّمهم ، فَقَطَعَ السلطانُ أنفَهُ ، ولمَّا التقى الجمعان ، وتراءى الكفرُ والإيمان ، واصطدم الجَبَلان ، طَلَبَ السلطانُ الهُدْنَةَ ، قال أرمانوس : لا هُدْنَةَ إلَّا ببذْل الرَّيِّ . فَحَمِيَ السلطانُ ، وشاط ، فقال إمامُه : إنك تُقاتِلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنصره ،

---

(١) منازجرد ، أو : منازكرد : بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم ، يعدّ في أرمينية ، وأهله أرمن وروم .

(٢) خُوي : بلد بأذربيجان .

(٣) اليزك : كلمة فارسية معناها : مقدمة الجيش .

ولعلَّ هذا الفتح باسمِك ، فالْقَهُم وقتَ الزوال - وكان يومَ جمعةٍ - قال : فإنه يكـون الخطباءُ على المنابر ، وإنهم يَدْعُون للمجاهـدين . فَصلَّوْا ، وبكى السلطانُ ، ودعا وأَمَّنُوا ، وسجد ، وَعَفَّر وجهَه ، وقال : يا أُمراء ، من شاء فلينصرفْ ، فما هاهنا سلطان . وعقَد ذَنَبَ حِصانه بيده ، ولَبِس البياضَ وتَحنَّط ، وحَمَل بجيشه حملةً صادقةً ، فوقعُوا في وسط العـدو يقتلون كيف شاءوا ، وثبت العسكرُ ، ونزلَ النَّصْر ، وَوَلَّتِ الرومُ ، واستحرَّ بهم القَتْل ، وَأُسِرَ طَاغِيَتُهم أرمانوس ، أسره مملوكٌ لكوهرائين ، وهمَّ بقتله ، فقال إفرنْجي : لا ، لا ؛ فهذا المَلِك . وقرأتُ بخطِّ القِفطيّ أنَّ ألب أرسلان بالَغ في التَّضرُّع والتَّذلُّل ، وأخْلَصَ لله . وكيفيةُ أسْرِ الطاغية ، أنَّ مملوكًا وَجَد فرسًا بلجامٍ مجوهر وسرجٍ مذهَّب مع رجُلٍ ، بين يديه مِغْفرٌ من الذهب ، ودِرعٌ مُذهّب ، فَهَمَّ الغلام ، فأتى به إلى بين يدي السلطان ، فقنَّعه بالمِقرعة ، وقال : ويلك ، ألم أبعث أطلبُ منك الهُدْنة ؟ قال : دَعْنِي من التَّوبيخ . قال : ما كان عَزْمُكَ لو ظفرتَ بي ؟ قال : كلّ قبيح . قال : فما تُؤَمِّل وتظُنُّ بي ؟ قال : القتلُ أو تُشهِّرُني في بلادك ، والثالثة بعيدةٌ : العفوُ وقَبُولُ الفِداء . قال : ما عَزمتُ على غيرها . فاشترى نَفْسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخمسمائة ألفِ دينارٍ ، وإطلاقِ كلِّ أسيرٍ في بلاده . فخلَعَ عليه ، وبعثَ معه عدَّةً ، وأعطاه نفقة تُوصلُه . وأمَّا الروم فبادروا ، وملَّكُوا آخر ، فلمَّا قرب أرمانوس ، شعرَ بزوال مُلكه ، فَلَبِس الصُّوف ، وترهَّب ، ثم جمع ما وصلتْ يدُه إليه نحو ثلاثمائة ألف دينار ، وبعث بها ، واعتذر ، وقيل : إنه غلب على ثغور الأرمن . وكانت الملحمة في سنة ثلاث وستين[١] .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٤١٤ - ٤١٦ ، والمنتظم ٨ / ٢٦٠ - ٢٦٥ .

وَصْف ابن كثيرٍ لمعركة « ملاذ كرد » :

قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ١٠٧ - ١٠٨) في أحداث سنة ٤٦٣هـ : « وفيها أقْبَلَ ملكُ الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الرّوم والكرخ والفرنج ، وعددٍ عظيم وعُدَد ، ومعه خمسة وثلاثون ألفًا من البطارقة ، مع كلِّ بطريق مائتا ألفِ فارسٍ ، ومعه من الفِرنْج خمسة وثلاثون ألفًا ، ومن الغُزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفًا ، ومعه مائة ألف نقّابٍ وحفّار ، وألف روزجاري ، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النِّعال والمسامير ، وألفا عجلةٍ تحمل السلاح والسّروج والعرادات والمجانيق ، منها منجنيق عدّة ألف ومائتا رَجُلٍ ، ومن عَزْمه - قبَّحه الله - أن يُبيد الإسلام وأهله ، وقد أقْطَعَ بطارقتَهُ البلاد حتى بغداد ، واستوصى نائبها بالخليفة خيرًا ، فقال له : ارفُق بذلك الشيخ ، فإنه صاحبنا ، ثم إذا استوثقتْ ممالك العراق وخراسان لهم ، مالوا على الشام وأهله ميلةً واحدةً ، فاستعادوه من أيدي المسلمين ، والقدر يقول : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [الحجر : ٧٢] . فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريبٌ من عشرين ألفًا ، بمكان يُقال له : الزهوة ، في يوم الأربعاء لخمسٍ بقينَ من ذي القعدة ، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم ، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال ، حين يكون الخُطَبَاء يَدْعُون للمجاهدين ، فلمَّا كان ذلك الوقت ، وتواقف الفريقان وتواجه الفتيان ، نزل السلطان عن فرسِه وسجد لله عزّ وجلَّ ، ومرَّغ وجهَهُ في التراب ، ودعا الله واستنصره ، فأنزلَ نصرَهُ على المسلمين ، ومنحهم أكتافهم ، فقتلوا منهم خَلْقًا كثيرًا ، وأُسِرَ ملكُهم أرمانوس ، أسرَهُ غلامٌ روميٌّ ، فلمَّا أُوقِف بين يدِي الملك ألب أرسلان ، ضربَهُ بيده ثلاثة مقارع وقال : لو كنتُ أنا الأسيرَ بين يديك ، ما كنت تفعل ؟ قال : كلّ

قبيحٍ . قال : فما ظَنُّك بي ؟ قال : إمَّا أن تقتُل وتشهِّرني في بلادك ، وإمَّا أن تعفو وتأخُذ الفداء وتُعيدني . قال : ما عزمتُ على غير العفو والفداء . فافتدى نَفْسَه منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، فقام بين يدي الملك ، وسقاه شربةً من ماء ، وقبّل الأرض بين يديه ، وقبّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالًا وإكرامًا ، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهَّز بها ، وأطلق معه جماعةً من البطارقة وشيَّعه فرسخًا ، وأرسل معه جيشًا يحفظونه إلى بلاده ، ومعهم رايةٌ مكتوب عليها : لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، فلمَّا انتهى إلى بلاده وجَدَ الروم قد ملَّكُوا عليهم غَيْرَهُ ، فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه ، وبعثَ من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار ، وتزهَّد ولبس الصُّوف ، ثم استغاث بملك الأرمن ، فأخذه وكَحَلَهُ[1] ، وأرسله إلى السلطان يتقرَّب إليه بذلك » .

قال ابن النَّحَّاس : « خرج ملكُ الروم من القسطنطينية في ستمائة ألف ، خارجًا عن المطَّوِّعة ، فكانوا لا يُدركهم الطَّرْف ولا يحصُرهم العَدَد ، بل كتائب مُتواصلة وعساكر مُتزاحمة ، وكراديس يتلو بعضُها بعضًا كالجبال الشوامخ ، وقد أعدُّوا من السلاح والكُراع والآلات لفتح الحصون ، ما يعجز الوَصْفُ عنها ، واقتسموا الدنيا ؛ فجعلوا لكلِّ مائة ألفٍ قطرًا ، العجم والعراق لملكٍ ، وديار مُضَر وديار ربيعة لملكٍ ، ومصر والمغرب لملكٍ ، والحجاز واليمن لملكٍ ، والهند والصين لملكٍ ، والروم لملكٍ ، فاضطربت ممالكُ الإسلام ، واشتدَّ وجلُهم وَكَثُرَ جزعهم وهرب بعضُهم من بين أيديهم ، وأخلَوْا لهم البلاد . وكان الملك ألب أرسلان التركي - سلطان العراق والعجم يومئذٍ - قد جَمَعَ وجوه مملكته وقال : قد علمتم

(١) كحلة : سمل عينيه .

ما نزل بالمسلمين ، فما رأْيُكم ؟ قالوا : رَأْيُنا لرأْيك تَبَعٌ ، وهذه الجموع لا قِبَل لأحدٍ بها . قال : وأين المفرُّ ، لم يَبْقَ إلَّا الموت ، فموتوا كرامًا أحْسَن . قالوا : أمَّا إذا سمحْتَ بنَفْسك ، فنفوسنا لك الفداء . فعزمُوا على مُلاقاتهم ، وقال : نلقاهم في أول بلادي . فخرجَ في عشرين ألفًا من الأمجاد الشجعان المُنتخَبين ، فلمَّا سار مرحلةً ، عَرَضَ عسكَرَهُ ، فوَجَدَهم خمسة عشر ألفًا ، ورجعتْ خمسةٌ ، فلمَّا سار مرحلةً ثانيةً ، عرض عسكره ، فإذا هم اثنا عشر ألفًا ، فلمَّا واجَهَهم عند الصباح ، رأى ما أذْهَلَ العقول وحيَّر الألباب ، وكان المسلمون كالشامة البيضاء في الثور الأسود ، فقال : إني هممتُ ألَّا أُقاتلهم إلَّا بعد الزَّوالِ . قالوا : ولم ؟ قال : لأن هذه الساعة ، لا يبقى على وجه الأرض منبر ، إلَّا دَعَوْا لنا بالنصر . وكان ذلك يوم الجمعة ، فقالوا : افْعَلْ . فلمَّا زالت الشمس صلَّى وقال : ليودِّع كلُّ واحدٍ صاحبَهُ ، وليُوصِ . ففعلوا ذلك ، فقال : إني عازم على أن أحمل فاحملوا معي ، وافعَلُوا كما أفْعَلُ . فاصطفَّ المشركون عشرين صفًّا ، كلّ صفٍّ لا يُرى طرفاه ، ثم قال : بسم الله وعلى بركة الله ، احملوا معي ، ولا يضرب أحدٌ منكم بسيفٍ ولا يرمي بسهمٍ ، إلى أن أفْعَل . وَحَمَلَ وحملوا معه حملةً واحدةً ، خرقوا صفوف المشركين صفًّا بعد صفٍّ ، لا يقف لهم شيء .. حتى انتهوا إلى سُرادِق المَلِك ، فوقف ، وأحاطوا به ، وهو لا يظنُّ أن أحدًا يصل إليه ، فما شعر حتى قبضوا عليه ، وقتلوا كلَّ من كان حوله ، وقطعوا رأسًا فرفعوها على رمحٍ ، وصاحوا : قُتِلَ الملك ، فولَّوْا منهزمين لا يَلْوُون على شيءٍ ، وحكَّمُوا السيوف فيهم أيامًا ، فلم يَنْجُ منهم إلَّا قتيلٌ أو أسيرٌ ، وجلس ألب أرسلان على كرسي الملك في مُضربة في سُرادِقه على فراشه ، وأكَلَ من طعامه ، ولبس من ثيابه ، وأُحْضِرَ الملك بين يديه ، وفي عنقه حبل ، فقال : ما كنتَ صانعًا لو ظفرتَ بي ؟ قال : أوَ تشكُّ أنت في قتلك حينئذٍ ؟ قال ألب أرسلان :

وأنت أقلّ في عيني من أن أقتُلك . اذهبوا فبِيعوه ، فطافوا به على جميع العسكر ، والحبل في عنقه ، يُنادى عليه بالدراهم والفلوس ، فما يشتريه أحد ، حتى انتهوا في آخر العسكر إلى رَجُلٍ فقال : إن بعتمونيه بهذا الكلب ، أشتريه . فأخذوه وأخذوا الكلب ، وأتوْا بهما إلى ألب أرسلان ، وأخبروه بما صنعوا به ، وبما دُفِعَ فيه ، فقال : الكلب خيرٌ منه ؛ لأنه ينفع وهذا لا ينفع ، خذوا الكلب وادفعوا له هذا الكلب - يعني الملك - . ثم إنه بعد ذلك أمَرَ بإطلاقه ، وأن يُجعل الكلبُ قرينَهُ مربوطًا في عنقه ، ووكَّل به من يُوصله إلى بلاده ، فلمَّا وَصَلَ عزلوه عن الملك وكحلوه »[١].

لله دَرُّكَ يا ألب أرسلان ، ودرُّ جيشك جيشِ الأكفان[٢].

والله إن العقل ليقف عاجزًا عن تصوُّر هيئة هذا الجيش ، الذي فاحت منه رائحة الحنوط استعدادًا للموت والشهادة .. وعلى مثل هؤلاء وقائدهم يتنزَّل النصر .

رحم الله من غزا بلاد الروم مرَّتين ، وافتتحَ القلاع ، وأرْعَبَ الملوك .

قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٢ / ١١٤) في ترجمة السلطان ألب أرسلان الملقَّب بـ« سلطان العالم » صاحب الممالك المتّسعة : « كان عادلًا يسير في الناس سيرةً حسنةٍ ، كريمًا رحيمًا ، شَفُوقًا على الرَّعيَّة ، رفيقًا على الفقراء ، بارًّا بأهله وأصحابه ومماليكه ، كثير الدُّعاء بدوام النّعم به عليه ، كثير الصَّدَقات ، يتفقَّد الفقراء في كلِّ رمضان بخمسة عشر ألف

---

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العُشّاق لابن النحاس ١ / ٥٥١ - ٥٥٣ طبع دار البشائر .

(٢) مواقف بطولية من صنع الإسلام ، لزياد أبو غنيمة ، تحت عنوان « جيش يقابل العدو بالأكفان » صـ ١٦٨ - ١٧٣.دار التوزيع والنشر الإسلامية .

دينار ، ولا يُعرف في زمانه جناية ولا مُصادَرَة ، بل كان يَقْنَع من الرَّعيَّة بالخَراج في قسطين رفقًا بهم . كتب إليه بعضُ السُّعاة في « نِظام الملك » وزيرِهِ ، وَذَكَرَ ماله في ممالكه ، فاستدعاه فقال له : خُذْ ، إن كان هذا صحيحًا ، فهذِّبْ أخلاقكَ وأصلِحْ أحوالَك ، وإن كذبوا فاغفر له زلَّتَهُ . وكان شديد الحرص على حِفْظ مال الرَّعايا » .

قبل تملُّكه انتشرَ الفكر الشيعي ، والدَّاعين إليه من الغُلاة ، حتى إن أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس عندما أراد تحويل الخطبة لبني العباس والسلاجقة ، ويترك العبيديين ، رفض العامَّةُ في حلب هذا التَّحوُّل ، وحملوا أثاث المسجد وقالوا : هـذه حصر علي بن أبي طالب ، فليأتِ أبو بكر بحصرٍ يُصلّي عليها الناس[١] !!

فلمَّا جاء ألب أرسلان كان « من حسناته أنه عندما سار إلى حلب ، طَلَبَ حضور صاحبها محمود بن مرداس بين يديه ، فحاول محمود المراوغة ، وقال للسفير بينهما ، وهو الشريف طراد الزينبي : قل للسلطان : إن محمودًا لبس الخلعة العباسية وخطب لهم . فقال السلطان أرسلان : أي شيءٍ تُساوي خطبتُهم وهم يؤذِّنون بـ(حيّ على خير العمل) لا بد من حضوره »[٢] .

وفي سنة ٤٦٢ وَرَدَ رسول صاحب مكَّة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان ، يُخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان ، وإسقاط خطبة صاحب مصر « العبيدي » ، وتَرْك الأذان بـ(حي على خير العمل) ، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار ، وقال له : إذا فعل أمير المدينة كذلك ،

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه. لمحمد العبدة صـ ٤٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠ / ٦١ .

أعطيناه عشرين ألف دينار .

فرحم الله ألب أرسلان .

ملوك السلاجقة يُجدِّدون هيْبة الخلافة ، ويُلاحِقون الباطِنيَّة في معاقلهم :

يقول العلَّامة أبو شامة عن آثار السلاجقة : « فلمَّا ملكَ السلجوقيةُ ، جدَّدُوا من هيبة الخلافة ما كان قد دَرَسَ ، لا سيَّما في وزارة نِظام الملك ، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها »[١] .

ولقد كان للسلاجقة الدَّور العظيم في سحق الباطنية :

ففي سنة ٤٩٤هـ أمر السلطان السلجوقي (بركيارق) بقتْل الباطنية ، فقام أهل أصبهان بقتل مَنْ عندهم ، يقودهم في ذلك الفقيهُ الشافعيُّ مسعود ابن محمد الخجندي ، حيث جَمَعَ الجمَّ الغفير بالأسلحة ، وأمَرَ بحفْر أخاديد وأوقد فيها النيران ، وجعل العامَّة يأتون بالباطنيَّة أفواجًا ومنفردين ، فيُلْقَوْن في الأخاديد . وكان الباطنيُّون قد ملكوا كثيرًا من القلاع بإقليم خوزستان وفارس ، وعظُم شرُّهم ، وقطعوا الطريق ، فعزم أحدُ قواد السلاجقة (جاولي) على الفتْك بهم ، فأظهر أنه يُريد مُفارقَةَ بلده ، فخرجوا معه ليأخذوا ما معه من أموال وأسلحة ، وفي الطريق كان قد دبَّر لهم مكيدةً ، فَوَضَعَ السيفَ فيهم فلم يَنْجُ منهم أحدٌ[٢] .

في سنة ٥٠٠هـ قَتَلَ السلطانُ محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلةً عظيمةً منهم ، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها ، وبعد مُخَادَعَةٍ ومُخاتَلَةٍ منهم ، وقتل صاحبَها ابن غطاش[٣] . وكانت دعوة الباطنيَّة قد انتشرت في

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين صـ ٣١ .

(٢) الكامل ١٠ / ٣٢٠ .

(٣) الكامل ١٠ / ٤٣٠ .

الشام منذ بداية القرن الخامس ، بعد مجيء داعيتهم (بهرام) « فاستجاب له كثيرٌ من العوامِّ وسُفهاء الجُهَّال ، وسكت عنه العلماءُ وَحَمَلَةُ الشريعة ، خوفًا من بطش الإسماعيلية »[١] . ففي سنة ٥٢٣ حاول الإسماعيليَّة تسليم دمشق للصليبيين ، مُقابل أن يُسلِّمهم الصليبيون مدينة صور ، واكتشف هذه المؤامرةَ أميرُ دمشق (بوري بن طغتكين) فَقَتَلَ متولّي الإسماعيلية المزدقاني ، ونادى في البلد بقتْل الباطنية ، فَقُتِلَ منهم ستةُ آلاف ، وكان ذلك في شهر رمضان[٢] .

وفي حوادث سنة ٥١١ قال ابن الأثير : « عَلِمَ السلطانُ محمد (السلجوقي) أن مصالح العباد والبلاد منوطةٌ بمحْو آثارهم وإخرابِ ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم ، وكان في أيامه المقدّم عليهم والقيِّم بأمرهم الحسن بن الصّباح الرازي ، صاحب قلعة (ألموت) ، وكانت أيامه قد طالتْ ، فقد ملك القلعة ما يُقارِب ستًّا وعشرين سنة ، وكان المجاورون له في أقبح صورةٍ ، مِنْ كثرة غزاته لهم وقتْله رجالهم ، فسيَّر السلطانُ له العساكر بقيادة أنوشتكين ، فملك عدَّةَ قِلاعٍ منهم ، ثم سار إلى (ألموت) وحاصرهم أشهرًا ، وهم يُراوِغون لأخْذ الأمان وترْك القلعة ، ولكن هذا القائد استمرَّ في حصارهم ، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد ، فتفرَّقتِ العساكر عنه ولم تُفتح القلعة»[٣] . وفي عهد السلطان سنجر (٥٢١) أوقع بالباطنية في (ألموت) وقتل منهم خلقًا كثيرًا . إن محو آثار هؤلاء المجرمين من بشائر العودة ، فقد استراح المسلمون من شرِّهم ، بل استراح العالم كلُّه ، وبقاؤهم يُعتبر شوكةً في حلوق المسلمين ، فهم أبدًا مع كلِّ عدوٍّ

(١) خطط الشام محمد كرد علي ٢ / ٣ .
(٢) الكامل ١٠ / ٦٥٦ .
(٣) الكامل ١٠ / ٦٥٧ .

خارجيّ ، وأمَّا في الداخل فهم يُزعزِعون الأمن والطُّمأنينة ، فيعيش الناس في خوفٍ ورعب ، فهم أشدُّ خطرًا من المنافقين على وحدة الصَّفّ الإسلامي ، وقد قام السلاجقة وأمراؤهم بخيرِ عملٍ عندما لاحقوهم في معاقلهم ، وقصدوا لهم كل مرصد ، فجزاهم الله خيرًا .

المُقتفي لأمر الله :

أمير المؤمنين أبو عبد الله ، محمد بن المستظهر بالله .

قال الذهبي في « السير » (٢٠ / ٤٠٠ - ٤٠١) : « كان المقتفي عاقلًا لبيبًا ، عاملًا مهيبًا ، صارمًا ، جوادًا ، محبًّا للحديث والعلْم ، مُكرِمًا لأهله ، وكان حميدَ السيرة ، يرجع إلى تديُّنٍ وحُسنِ سياسةٍ ، جدّد معالم الخلافة ، وباشر المهمّات بنفسه ، وغزا في جيوشه . قال أبو طالب بن عبد السميع : كانت أيامه نَضِرة بالعدل ، زَهِرَةً بالخير ، وكان على قدمٍ من العبادة قبل الخلافة ومعها ، ولم يُر مع لِينِهِ بعد المعتصم في شهامته مع الزُّهْد والوَرَعِ ، ولم تزل جيوشه منصورة » .

رأى المقتفي في منامه - قَبْلَ أن يستخلف بستة أيامٍ - رسول الله ﷺ يقول له : سيصل هذا الأمر إليك ، فاقْتَفِ بي . فلذا لُقِّبَ:المقتفي لأمر الله[1].

الملك عماد الدين الأتابك زنكي وَالِد « نور الدين محمود زنكي » :

ابن الحاجب قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب .

كان والده آق سنقر ، كما قال عنه ابن كثير : « من أحسن الملوك سيرة وأجودِهم ....

---

(١) السير ٢٠ / ٤٠١ .

سريرة »[١].

فوَّض السلطان محمود بن ملكشاه شِحْنكيَّة[٢] بغداد إلى الأتابك سنة ٥٢١هـ .

استولى الأتابك على البلاد وعظُم أمره،« وافتتح الرُّها ، وتملَّك حلب والموصل وحماة وحمص وبعلبك وبانياس ، واستنقذ من الفرنج كفرطاب والمعرة ، ودوّخهم ، وشغلهم بأنفسهم ودانتْ له البلاد . وكان بطلًا شجاعًا مقدامًا كأبيه ، عظيم الهيبة ، وكان يُضرب بشجاعته المَثَل ، لا يقرّ ولا ينام ، فيه غَيْرة حتى على نساء جنده . عمَّر البلاد ، ودخل حلب ورتَّب أمورها ، وافتتح مدائن عدَّة ، ودوَّخ الفرنج ، وكان أعداؤه محيطين به من الجهات ، وهو ينتصف منهم ويستولي على بلادهم »[٣].

« في أول أمره استطاع زنكي - رحمه الله - بفترةٍ قصيرة توحيدَ أكثر أقاليم الجزيرة ، ولمَّا رأى الفرنجة والرومُ ما فَعَلَه عماد الدين ببلاد الشام ، قرَّروا حَصْرَ حلب ، ولم يَرَ زنكي مُنَازَلَتَهُم بكثرتهم ، بل نزل قريبًا منهم لمناوشتهم ، وأرسلَ القاضيَ كمال الدين الشهرزوري إلى السلطان مسعود في بغداد ، يُخبره بالواقع ويطلب النجدةَ ، فقال القاضي محذِّرًا : « إذا جاءت عساكر السلطان ، اتّخذُوا هذا حُجَّةً وملكوا البلاد » . فقال زنكي : « إن هذا العدوّ قد طمع فيَّ ، وإن أَخذَ حلب لم يَبْقَ بالشام إسلامٌ ، وعلى كل حالٍ فالمسلمون أَوْلَى بها من الكفار »[٤].

---

(١) البداية والنهاية ١٢ / ١٥٧ .

(٢) يُقصد بها رئاسة الشِّحْنَة ، والشحنة : هم من يسمَّوْن الآن الشرطة .

(٣) السير ٢٠ / ١٨٩ - ١٩١ .

(٤) الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٣٥ .

وصار الفرنجة بإزاء رَجُلٍ قويٍّ يستطيع حشد الجيوش والأموال ، وعندما استقرَّ له الحال ، ورأى أنه قد مَهَّد الأُمور ، عند ذلك قرَّر مُجَابَهَة الفرنجة ، وبدأ بحصن « الأثارب » الذي يقع بين حلب وأنطاكية ، وذلك لشدَّة ضرره على المسلمين ، وحاصر الحصنَ وخرج له الصليبيون بخيلهم ورجلهم ، وكان النصر للمسلمين ، وهي أول وقعةٍ معهم ، وخاف أهل قلعة حارم فصالحوه ، ومن هنا استدار الزمان ، وقوي المسلمون بتلك الأعمال ، وضعفت قُوَى الكافرين ، وعلموا أن البلاد جاءها ما لم يكن بالحسبان « وصار قُصاراهم حِفْظ ما في أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في مُلْك الجميع » .

وفي سنة ٥٣٢ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة ، واستولوا على البلاد المحيطة بحلب ، ثم حصروا مدينة شيزر ، وجاء زنكي ونزل على حماة ، وكان كلَّ يومٍ يُرسل السَّرايا يتخطَّف من الروم ، ثم يعود آخِر النهار ، وأرسل إلى العدو يقول لهم : « إنكم قد تحصَّنتم بهذه الجبال ، فاخرُجُوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي » . وهو يفعل ذلك ترهيبًا لهم ، فأُشير على الملك بلقائه ، فألقى الله تعالى في قلبه الرعب من ذلك ، وقال لهم: «أتظُنّون أن معه من العساكر ما ترَوْن، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يُريكم قِلَّةَ مَنْ معه لتطمعوا ، وتُصْحِرُوا له ، فحينئذٍ تَرَوْنَ من كثرةِ عسكره ما يُعجزكم » . ورحل ملك الروم مُؤْثِرًا السلامة ، وَتَرَكَ المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فسار زنكي ، فظفر بطائفةٍ منهم في ساقة[1] العسكر ، فغنم منهم وقتل ، وأسَرَ وأخَذَ جميع ما خلَّفوه . ونزل إلى حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس ، فحصره ، وفَتَحَهُ عنْوَةً ، ونهبَ ما فيه ،

---

(١) ساقة العسكر : مؤخِّرة العسكر .

وأَسَرَ مَنْ به من الفرنج وأَخْرَبَهُ ، وعاد سالمًا غانمًا .

وفي سنة ٥٣٤ هـ سار زنكي إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوكُ الفرنج وساروا إليه فَلَقِيهم بالقُرب من « حصن بارين »[١] ، فصبر الفريقان صبرًا لم يُسمع بمثله إلَّا ما يُحكى عن ليلة الهرير « القادسية » ، ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوكُ الفرنج وفرسانُهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس ، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم ، وكثُر فيهم الجراح . وسار زنكي إلى حصن بارين ، فَحَصَرَه حصارًا شديدًا ، وتسلَّم حصن بارين بالأمان ، واستراح المسلمون ما بين حلب وحماة من شرِّهم ، فقد كان حصن بارين من أضرِّ بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وانقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بزنكي هذا الضرر العظيم . وكان في نية زنكي توحيد بلاد الجزيرة تحت قيادته حتى يتمكَّن من مجابهة الأعداء ، فسار إلى بلاد الهكارية ، وكانت بيد الأكراد فأخذها ، ثم بلاد « آق » ، وكلّ هذا كان تمهيدًا للقيام بأعظم أعماله وهو فتح « الرُّها » .

فَتْح « الرُّها » سنة ٥٣٩هـ :

قرَّر زنكي مُحاصَرَة هذه المدينة ، وكانت تحت حُكم الصليبيين ويتملكها « جوسلين » ، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بها شرٌّ عظيمٌ ، فحاصرها زنكي ثمانيةً وعشرين يومًا ، وألحَّ في حصارها ، حتى فَتَحَهَا عَنْوَةً في جمادى الآخِرة ، فاستباحها ، ونكَّس صُلبانها ، وأباد قُسُوسَها ورُهبانها ، وقتل شجعانَها وفرسانَها ، وملأ الناس أيديهم من النَّهْب والسَّلْب ، وعادتِ المدينةُ إلى حُكم الإسلام ، وهي من أشرف المدن عند النصارى ، واستولى

---

(١) غربي حماة .

زنكي على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا ، كـ« سروج » وغيرها ، وأخلى الديار الجزيريّة من مَضَرَّة الفرنج وشرِّهم ، وأصبح أهل تلك البلاد بعد الخوف آمنين ، وكان فتحًا عظيمًا ، طار في الآفاق ذِكْرُه ، وطاب بها نَشْرُه ، وشهده خَلْقٌ كثيرٌ من الصالحين والأولياء ، وقال بعضهم : رأيت زنكي في المنام ، بعد موته ، بأحسنِ حالٍ ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غَفَرَ لي . فقلتُ : بماذا ؟ فقال : بفتح الرُّها .

فرحم الله زنكي ، فقد كان كما وَصَفَهُ ابنُ كثير : « من خيار الملوك وأحْسَنِهم سيرةً ، كان شجاعًا مقدامًا حازمًا » . « وهو الذي بدأ بجهاد الصليبيين ، وعادتِ الثقةُ إلى نفوس المسلمين ، ولكن التجديد الجهاديّ كان على يد ابنه نور الدين محمود بن زنكي »[1] .

لَيْثُ الإسلام ، صاحب الشام ، الملك العادل ، أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي :

قال الذهبي عنه في « السير » ٢٠ / ٥٣٢ - ٥٣٩ : وكان نورُ الدين حاملَ رايَتَي العدلِ والجهادِ ، قلَّ أن ترى العُيُونُ مثلَهُ ، حاصرَ دمشقَ ، ثم تملَّكها ، وبقي بها عشرين سنةً . افتتح أولًا حصونًا كثيرة ، وفامية ، والراوندان ، وقلعة إلبيرة ، وعزاز ، وتل باشر ، ومرعش ، وعين تاب ، وهزم البرنسَ صاحبَ أنطاكية ، وقَتَلَهُ في ثلاثة آلاف من الفِرنج ، وأظهر السُّنَّة بحلب ، وَقَمَعَ الرَّافضةَ . وبنى المدارسَ بحلَب وحمصَ ودمشقَ وَبَعْلَبَكَّ والجوامعَ والمساجدَ ، وسُلِّمت إليه دمشقُ للغَلاء والخوفِ ، فحصَّنها ، ووسَّع أسواقَها ، وأنشأ المَارستان ودارَ الحديثِ والمدارسَ ومساجدَ عدَّةً ، وأبطل المكُوسَ من دار بطيخ وسوقِ الغنم والكيالة وضمان النهر والخمر ، ثم أخذ

---

(١) أيُعيد التاريخ نفسه - لمحمد العبدة . صـ ٧٩ - ٨٠ .

من العدوِّ بانياس والمُنَيطِرة ، وكسر الفرنجَ مراتٍ ، ودوَّخهم ، وأذلَّهم . وكان بطلًا شُجاعًا ، وافرَ الهَيبة ، حسنَ الرمي ، مليحَ الشَّكلِ ، ذا تعبُّدٍ وخوفٍ وورعٍ ، وكان يتعرَّضُ للشهادةِ ، سمعه كاتبُه أبو اليُسر يسألُ اللهَ أن يحشُرَهُ مِن بطونِ السِّباعِ وحواصِلِ الطير . وبنى دارَ العدلِ ، وأنصفَ الرَّعِيَّة ، ووقفَ على الضُّعفاءِ والأيتامِ والمُجاورينَ ، وأمر بتكميلِ سُورِ المدينةِ النبويَّة ، واستخراجِ العينِ بأُحُد ، دَفَنَهَا السَّيلُ ، وفتحَ دَرْبَ الحجاز ، وَعَمَّر الخوانِقَ والرُّبُط والجسورَ والخاناتِ بدمشق وغيرِها . وكذا فعلَ إذ ملكَ حَرَّانَ وَسِنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة وَمَنْبِج وَشَيْزَر وحمص وحماة وَصَرْخد وبعلبَكَّ وَتَدْمُرَ . ووقفَ كُتُبًا كثيرةً مثمّنةً ، وكسر الفِرَنج والأرمنَ على حارِم،وكانوا ثلاثين ألفًا ، فقلَّ مَنْ نجا ، وعلى بانياس .

وكانت الفرنجُ قد استضرَّتْ على دمشقَ ، وجَعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجيوش « شاور » مُستجيرًا به ، فأكرمهُ ، وبعثَ معه جيشًا لِيُردَّ إلى منصبِهِ ، فانتصر ، لكنَّه تخابثَ وتلاءمَ ، ثم استنجَد بالفِرنجِ ، ثم جهَّز نورُ الدين - رحمه اللهُ - جيشًا لَجِبًا مع نائبه أسدِ الدين شِيركُوه ، فافتتح مصرَ ، وَقَهَرَ دولَتها الرَّافِضِيَّةَ ، وهربت منه الفِرنجُ ، وَقُتِلَ شاور ، وَصَفَتِ الديارُ المصريةُ لِشيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصلاحِ الدين ، فأباد العُبيديِّين ، واستأصلَهم ، وأقام الدعوةَ العبّاسية .

وكان نورُ الدين مليحَ الخطِّ ، كثيرَ المُطالعة ، يُصلِّي في جماعةٍ ، ويصومُ ، ويتلُو ويُسَبِّح ، ويتحرَّى في القُوت ، ويتجنَّبُ الكِبر ، ويتشبَّهُ بالعُلماءِ والأخيارِ . ذَكَرَ هذا وَنَحْوَهُ الحافظُ ابنُ عساكر ، ثم قال : روى الحديثَ ، وأسمعهُ بالإجازةِ ، وكان مَنْ رآهُ شاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وَهَيبةِ المُلْكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فاوضَهُ ، رأى من لطافَتِهِ وتواضُعِه ما يُحيِّره . حكى من صَحِبَه حَضَرًا وَسَفَرًا ، أنه ما سمع منه كلمةَ فُحشٍ في رضاهُ ولا في

ضَجَره ، وكان يُواخي الصالحينَ ، وَيَزُورهم ، وإذا احتلَم مماليكُه أعْتَقَهُم ، وزوَّجهم بجواريه ، ومتى تشكَّوْا من وُلاته عزلَهُم ، وغالب ما تملَّكه من البُلدان تسلَّمه بالأمان ، وكان كلَّما أخذ مدينةً ، أسقطَ عن رعيَّتِهِ قِسطًا .

وقال أبو الفرج ابنُ الجوزي : جاهَدَ ، وانتزَع من الكُفَّار نَيِّفًا وخمسين مدينةً وَحِصْنًا ، وبنى بالموصلِ جامعًا غَرِمَ عليه سبعين ألف دينارٍ ، وَتَرَكَ المُكُوسَ قَبْلَ موتِهِ ، وبعث جُنودًا فتحوا مصرَ ، وكان يميلُ إلى التَّواضُع وحُبِّ العُلماء والصُّلَحَاء ، وكاتبني مِرارًا ، وعزمَ على فتحِ بيت المَقْدِس ، فتُوفِّي في شوال سنةَ تسعٍ وستين وخمسمائة .

وقال المُوفَّق عبدُ اللطيف : كان نورُ الدين لم ينشَفْ له لِبْدٌ من الجهادِ ، وكان يأكُل من عَمَل يدِهِ ، يَنْسَخُ تارةً ، ويعملُ أغلافًا تارة ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السّجّادةَ والمُصحف ، وكان حنفيًّا يُراعي مذهبَ الشافعيّ ومالك ، وكان ابنُهُ الصالحُ إسماعيلُ أحْسَنَ أهلِ زمانِهِ .

وقال ابنُ خلِّكان[1] : ضُرِبَتِ السِّكَّةُ والخُطبةُ لنورِ الدين بمصر ، وكان زاهدًا عابِدًا ، مُتَمسِّكًا بالشَّرْعِ ، مُجاهدًا ، كثيرَ البِرِّ والأوقافِ ، له من المناقب ما يستغرِقُ الوصفَ ، تُوفي في حادي عشر شوال بقلعة دمشق بالخوانيق ، وأشاروا عليه بالفَصْدِ ، فامتنعَ ، وكان مَهِيبًا فما رُوجِعَ ، وكان أسمر طويلًا ، حَسَنَ الصُّورةِ ، ليس بوجههِ شَعْرٌ سوى حَنَكِه ، وَعَهِد بالمُلك إلى ابنِهِ وهو ابنُ إحدى عشرة سنة .

وقال ابنُ الأثير[2] : كان أسمرَ ، له لحيةٌ في حنكِه ، وكان واسعَ الجبهة ، حسنَ الصُّورة ، حُلْوَ العَينين ، طالعتُ السِّيَر ، فلم أرَ فيها بَعْدَ

---

(١) وفيات الأعيان ٥ / ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٢) الكامل ١١ / ٤٠٣ .

الخُلفاء الراشدين وعُمر بنِ عبد العزيز أحْسَنَ من سيرتِهِ ، ولا أكثر تحرِّيًا منه للعَدْلِ ، وكان لا يأكُلُ ولا يَلبَسُ ولا يتصرَّفُ إلا من مُلكٍ له قد اشتراهُ من سهمِهِ من الغَنيمة ؛ لقد طلبتْ زوجتهُ منهُ ، فأعطاها ثلاثةَ دكاكين ، فاستقلَّتْها ، فقال : ليسَ لي إلا هذا ، وجميعُ ما بيدي أنا فيه خازنٌ للمسلمين . وكان يتهجَّدُ كثيرًا ، وكان عارِفًا بمذهبِ أبي حنيفة ، لم يترك في بلادِهِ - على سَعَتِهَا - مَكْسًا ، وسمعت أنَّ حاصل أوقافِهِ في البرِّ في كلِّ شهرٍ تسعةُ آلاف دينارٍ صورية .

قال له القطبُ النيسابوريُّ : باللهِ لا تُخاطِر بنفسِكَ ، فإن أُصبتَ في معركةٍ ، لا يبقى للمُسلمين أحدٌ إلا أخَذَهُ السيفُ . فقال : وَمَن محمودٌ حتى يُقالَ هذا ؟! حَفِظَ اللهُ البلادَ قَبلي ، لا إلـٰه إلا هو .

قلت : كان دَيِّنًا تقيًّا ، لا يرى بذلَ الأموالِ إلا في نفعٍ ، وما للشُّعراءِ عنده نَفاقٌ . وفيه يقولُ أُسامةُ :

سُلطانُنا زاهدٌ والناسُ قد زَهِدُوا ... لَهُ فَكُلٌّ على الخَيراتِ مُنْكَمِشُ
أيامُه مِثْلُ شهرِ الصَّومِ طاهِرَةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ

قال مجدُ الدين ابنُ الأثير في نَقْلِ سِبط الجَوْزِيِّ عنه : لَمْ يَلْبَس نورُ الدين حريرًا ولا ذَهبًا ، وَمَنَعَ من بيعِ الخمرِ في بلاده - قلتُ : قد لبسَ خِلعةَ الخليفةِ والطَّوقَ الذَّهب - قال : وكان كثيرَ الصَّومِ ، وله أورادٌ في الليلِ والنهارِ ، وَيُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرة ، فأنكَر عليه فقيرٌ ، فكتبَ إليه : واللهِ ما أقصِدُ اللعبَ ، وإنما نحنُ في ثَغْرٍ ، فربما وقعَ الصوتُ ، فتكونُ الخيلُ قد أَدْمَنَتْ على الانعطافِ والكرِّ والفرِّ . وأُهديت له عِمامةٌ من مصرَ مُذهَّبةٌ ، فأعطاها لابنِ حَمُّويه شيخِ الصوفية ، فبيعتْ بألفِ دينار .

قـال[1] : وجـاءَهُ رجـلٌ طَلَبَـهُ إلى الشَّـرْع ، فجاء معـه إلى مجلسِ كمالِ الدينِ الشَّهرزوري ، وتقدَّمه الحاجبُ يقولُ للقاضي : قد قال لكَ : اسْلُكْ معه ما تَسْلُكُ مع آحادِ الناسِ . فلمَّا حضَرَ سوَّى بينَه وبين خَصْمِهِ ، وتحاكما ، فلم يثبُت للرجُلِ عليه حقٌّ ، وكان مِلْكًا ، ثم قال السلطانُ : فاشهدوا أني قد وهبتُه لَهُ .

وكان يَقْعُدُ في دار العدلِ في الجُمُعة أربعةَ أيام ، ويأمُرُ بإزالةِ الحاجبِ والبوّابين ، وإذا حضرتِ الحربُ ، شدَّ قوسيْنِ وتَرْكَاشَيْن[2] ، وكان لا يَكِلُ الجُنـدَ إلى الأُمراء ، بل يُباشِـرُ عَدَدهم وخُيولَهم ، وأسَرَ إفرنجيًّا ، فافْتَكَّ نفسَهُ منه بثلاثمائة ألف دينار ، فعند وصولِه إلى مأْمنِه ماتَ ، فبنى بالمالِ المارستانَ والمدرسةَ .

قال العمادُ في « البرقِ الشامي » : أَكْثَرَ نورُ الدين عامَ موتِه من البِرِّ والأوقافِ وعِمارةِ المساجد ، وأسقطَ ما فيه حرام ، فما أبقى سوى الجزيةِ والخَراجِ والعُشْرِ ، وكَتَب بذلكَ إلى جميعِ البلاد ، فكتبتُ له أكثرَ من ألفِ منشور .

قال : وكان له بِرَسْمِ نفقةٍ خاصَّة في الشهر من الجزية ، ما يبلُغُ ألفي قرطاسٍ ، يَصْرِفُها في كسوتِه ومأكولِه وأُجرة طبَّاخِه وخيَّاطِه ، كلّ ستين قرطاسًا بدينارٍ .

قال سبطُ الجـوزي[3] : كان له عجائزُ ، فكان يَخِيطُ الكـوافي ، ويعملُ ....

---

(١) في « مرآة الزمان » ٨ / ١٩٣ و١٩٤ و١٩٥ .

(٢) التركاش : كلمة فارسية ، معناها : الجعبة . معجم الألفاظ الفارسية المعربة صـ ٣٦ .

(٣) في « مرآة الزمان » ٨ / ١٩٧ .

السكاكر[1]، فَيبِعْنَها له سرًّا ، ويُفطرُ على ثمنها .

قال ابنُ واصل : كان من أقوى الناس قلبًا وبَدَنًا ، لم يُرَ على ظهر فرسٍ أحدٌ أشدُّ منه ، كأنما خُلق عليه لا يتحرَّكُ ، وكان من أحسن الناسِ لعبًا بالكُرة ، يجري الفرسُ ويخطِفُها من الهواء ، ويرميها بيده إلى آخرِ المَيْدان ، ويُمسِكُ الجُوكان[2] بكُمِّه ، تهاوُنًا بأمره ، وكان يقولُ : طالما تعرَّضْتُ للشَّهادة ، فلم أُدْرِكْها .

قلتُ : قد أدركَها على فراشِه ، وعلى ألسنةِ الناسِ : نورُ الدين الشهيدُ . والذي أسقطَ من المُكُوسِ في بلادِه ذكرتُه في « تاريخنا الكبير » مُفَصَّلًا ، ومبلغه في العام خمسمائة ألف دينار ، وستة وثمانون ألف دينار ، وأربعة وسبعُون دينارًا من نَقْد الشام، منها على الرَّحبة ستة عشر ألف دينار، وعلى دمشق خمسون ألف وسبعمائة ونَيِّف ، وعلى المَوْصِلِ ثمانيةٌ وثلاثون ألف دينار وعلى جَعْبَر سبعةُ آلاف دينار ونيِّف ، وفي الكتاب : فأيقَنُوا أنَّ ذلك إنعامٌ مُستمرٌّ على الدُّهور ، باقٍ إلى يوم النُّشُور ، فـ ﴿ **كُلُوا من رِزْقِ ربّكُم واشكُروا له بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُور** ﴾ [سبأ : ١٥] . ﴿ **فمَنْ بدَّلَهُ بعدَ ما سَمِعَهُ فإنَّما إثْمُهُ على الذين يُبَدِّلُونَهُ** ﴾ [البقرة : ١٨١] . وكتب في رجب سنة سبعٍ وستين وخمسمائة .

---

(١) في كتب اللغة : السَّكْر : ما يسدّ به النهر ونحوه والمُسَنَّاة ، وكل ما يُسَدّ من شقٍّ أو بثق . والجمع : سُكُور . وقد يكون المراد المزلاج الذي يُوضع خلف الباب لإغلاقه ، ولا زال أهل الشام إلى يومنا هذا يستعملون كلمة السَّكر للمزلاج . وفي مرآة الزمان : ويعمل الكساكير للأبواب .

(٢) الجوكان : كلمة فارسية ، وهي عصا لعبة الكولف ، وكل عصا معكوفة ، وتعريبها : الصولج والصولجانة . انظر : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص١٠٩ .

قال سبطُ الجوزي[١]: حكى لي نجمُ الدين بنُ سلام عن والدِهِ أنَّ الفِرنجَ لمَّا نَزَلَتْ على دِمياط ، ما زال نورُ الدين عشرين يومًا يصومُ ، ولا يُفطرُ إلا على الماءِ ، فضعُفَ وكاد يَتْلَفُ ، وكان مَهيبًا ، ما يجسرُ أحدٌ يخاطِبهُ في ذلك ، فقال إمامُه يحيى : إنه رأى النبيَّ ﷺ في النومِ يقولُ : يا يحيى ، بشِّر نورَ الدِّين برحيلِ الفِرَنجِ عن دمياط . فقلتُ : يا رسولَ الله ، ربما لا يُصَدِّقُني . فقال : قُل له : بعلامةِ يومِ حارِم . وانتبه يحيى ، فلمَّا صلَّى نورُ الدين الصُّبحَ ، وشرع يدعُو ، هابه يحيى ، فقال له : يا يحيى ، تُحدِّثُني أو أُحدِّثك ؟ فارتعدَ يحيى ، وخرس ، فقال : أنا أُحدِّثك ، رأيتَ النبيَّ ﷺ هذه الليلةَ ، وقال لك كذا وكذا . قال : نعم . فباللهِ يا مولانا ، ما معنى قوله : بعلامةِ يومِ حارِم ؟ فقال : لمّا التقينا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسلام ، فانفردتُ ، ونزلتُ ، ومَرَّغتُ وجهي على التُّراب ، وقُلت : يا سيدي ، مَنْ محمودٌ في البين ، الدِّينُ دينُك ، والجُنْدُ جندُك ، وهذا اليوم افْعَلْ ما يَليق بكَرَمِك . قال : فنصرنا اللهُ عليهم .

نور الدين محمود زنكي هو وصلاح الدين يُمثّلان التجديد الجهادي في عصرهما :

من أراد معرفة فضل السلطان نور الدين وأثره وجهاده ، وأنه يمثِّل هو وصلاح الدين التجديد الجهادي في عصرهما ، فليُطالع معنا ما قاله أبو شامة عن سبب اهتمامه بتاريخ هاتين الدولتين (النُّوريَّة والصَّلاحيَّة) ، يقول أبو شامة عن نور الدين : « أطربني ما رأيتُ من آثاره وسمعت من أخباره مع تأخُّر زمانه ، ثم وقفتُ بعد ذلك على سيرة سيِّد الملوك بَعْدَه الملك الناصر صلاح الدين ، فوجدتُهما في المتأخِّرين كالعُمَرَيْن رضي الله عنهما

(١) مرآة الزمان ١٩٩/٨ ، ٢٠٠ .

في المتقدِّمين ، فلله دَرُّهُما مِنْ مَلِكيْن تعاقبا على حُسن السِّيرة وجميل السَّريرة ، والفضل للمتقدِّم - نور الدين - فإنه أصْل ذلك الخير كلّه ، مهَّد الأمور بعدْله وجهاده وهيبته في جميع بلاده ، ولكن صلاح الدين أكْثَر جهادًا وأعَمّ بلادًا ، صَبَرَ وصابر ، وذَخر اللهُ له من الفتوح أنْفَسَهُ ، وهو الذي فتح الأرضَ المقدَّسة [(١)] .

لم يكن الجهاد عند نور الدين حلًّا مؤقّتًا أو مصلحةً تقتضيها الظروف ، بل كان الأصل هو الاستعداد للجهاد وغزو الكفار ، فقد عاتب نورُ الدين السلطانَ قلج أرسلان السلجوقي الذي كان يحكم ملطية وسيواس وأقصرا من بلاد الأناضول المُجاوِرة للروم ؛ عاتبه لأنه يحاول التَّسلُّط على بلاد الإسلام ، ولا يُقاتل الروم ، وقال له : « أنت مجاورٌ للروم ، ولا تغزوهم ! وبلادُك قطعةٌ كبيرة من بلاد الإسلام ، ولا بُدَّ من الغَزَاةِ معي »[(٢)] .

وفي إحدى عزماته لقتال الصليبيين ، أرسل إلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ، وإلى صاحب حصن « كيفا » وصاحب ماردين ، فاستجابوا له ، أمَّا صاحب حصن كيفا فقد قال له أصحابه : على أي شيء عزمتَ ؟ قال : على القعود ، فإن نور الدين يُلقي نفسه والناس في المهالك . فوافقوه على رأيه ، فلمَّا كان الغد أمر بالتَّجهُّز للغزاة ، فقال له أولٰئك : ما عدا ممَّا بدا ؟ فارقناك أمس على حالةٍ ، فنرى اليوم ضدَّها . قال : إن نور الدين قد سَلَكَ معي طريقًا ، إن لم أُنجده ، خرج أهلُ بلادي عن طاعتي ؛ فإنه قد كاتبَ زُهَّادها وعُبَّادها ، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، ويستمدُّ منهم الدعاء ، ويطلب إليهم أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ،

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ١/٤ .
(٢) الكامل ٣٩٢/١١ .

فقعد هؤلاء يبكون ويلعنونني ويدعون عليَّ ، فلا بُدّ من المسير إليه[١] .

وفي وقعة بانياس وفتْح قلعتها ، كان معه أخوه نصر الدين فأصابه سهمٌ ، أذهب إحدى عينيه ، فلمّا رآه نور الدين قال : لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعدَّ لك ، لتمنَّيْتَ ذَهابَ الأُخرى . وكان معه في هذا الفتح وَلَدُ « معينِ الدين أنر » الذي سلَّم قلعة بانياس للفرنجة ، فقال له نور الدين : « للمسلمين فرحةٌ واحدة بهذا الفتح ، ولك فرحتان . فقال : كيف ذلك ؟ قال لأن اليوم برَّد اللهُ جِلْدَ والدِك من النار »[٢] .

كان رحمه الله مواظبًا على الصلوات في الجماعات ، عاكفًا على تلاوة القرآن ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدًا في الإنفاق ، متحرِّيًا في المطاعم والملابس ، لم تُسمع منه كلمةُ فُحشٍ[٣] . قال عنه ابنُ الأثير : « طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدِّمين ، قَبْلَ الإسلام وبَعْدَهُ إلى يومنا هذا ، فلم أَرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسنَ سيرةً منه »[٤] .

ومن زهده وتقواه ، أنه كان لا يأكل ولا يَلْبَس إلا من مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المُرصَدة لمصالح المسلمين ، وقد شكتْ إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة ، فاحمرَّ وجهه وقال : من أين أعطيها ما يكفيها ؟! والله لا أخوض نار جهنم في هواها . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين مِلكًا ، وقد وهبتُها إياها فلتأخُذْها[٥] .

---

(١) الكامل ١١/٣٠٢ .
(٢) الكامل ١١/٣٠٤ .
(٣) الروضتين في أخبار الدولتين .
(٤)، (٥) الكامل ١١/٤٠٣ .

روى أحد الملازمين له من أمرائه فقال : كنت معه يومًا في الميدان بالرُّها ، والشمس في ظهورنا ، فكلَّما سِرْنا تقدَّمنا الظِّلّ ، فلمَّا عُدنا صار ظلُّنا وراءَ ظهورنا ، فأجرى فرسَهُ وهو يلتفت وراءه ، وقال لي : أتدري لأي شيءٍ أُجري فرسي وألتفتُ ورائي ؟ قلت : لا . قال : قد شبَّهتُ ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممَّن يطلبها ، وتطلب مَنْ يهرب منها . قال أبو شامة : رضي الله عن ملكٍ يفكّر في مثل هذا[1] .

وقال ابن الأثير : وكان يصلي كثيرًا من الليل ويدعو ويستغفر ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب .

جَمَعَ الشجاعةَ والخُشُوعَ لربِّه   ما أحْسَنَ المحرابَ في المحرابِ[2]

وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وليس عنده تعصُّب ، بل الإنصاف سجيته في كل شيءٍ ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباع سُنَّة العدلِ والإنصاف ، وترْك المحرَّمات من المأكل والمشرب والملبس ، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همَّةُ أحدِهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ، وأمّا عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً ، فلم يترُك في بلد من بلاده ضريبة ولا مَكْسًا ولا غشًّا ، بل أطلقها - رحمه الله - جميعَها في بلاد الشام والجزيرة ومصر[3] .

ومن عدله أنه بنى دارًا للعدل ، وكان سبب بنائها أن أُمراءه وقُوّاد جيوشه تعدَّوْا على من يجاورهم ، فكثُرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين فأنصف بعضهم ، ولم يتجرَّأ على القائد أسد الدين شيركوه ، فلمَّا سمع نورُ

---

(١) الروضتين ١/٦ .
(٢) الكامل ١١/٤٠٣ .
(٣) الروضتين ١/٦ .

الدين بذلك ، بنى هذه الدار ، وأحسَّ أسد الدين بهذا فقال لنُوَّابه : والله لئن أُحْضِرْتُ إلى دار العدل بسبب أحدكم ، لَأصْلُبَنَّه ، فامضوا إلى كلِّ مَنْ بينكم وبينه مُنازَعةٌ، فأَرْضُوه وافصِلوا الحَالَ معه[1]. فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتَطُّون في الطَّلَب . فقال : خروج أملاكي عن يدي ، أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أبيٍّ ظالم . وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع ، فلمَّا علم ما حَصَل مع أسد الدين شيركوه ، سجد لله شكرًا[2]. وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا يُنصِفُون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها ! .

وأمَّا فِعْله في بلاد الإسلام من المصالح فكثير ، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكَمَ بناءها ، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق ، وكان أهل الدين عنده في أعلى محلٍّ ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، فقد ذَكَر أحدُ الأمراءِ الشيخَ قطبَ الدين النيسابوري أمام نورِ الدين ، فقال له السلطانُ : يا هذا ، الذي تتكلَّمُ عليه فله حسنةٌ تغفر كلَّ زلّةٍ ، وهي العِلْم والدِّين ، وأمّا أنت وأصحابُك ، ففيكم أضعافُ ما ذكرت ، وليستْ لكم حسنةٌ تغفرها ، وأنا أحملُ سيئاتكم مع عَدَم حسناتكم ، أفلا أحمل سيئةَ هذا - إن صحَّتْ - مع وجود حسنته ، على أنني والله لا أُصدِّقك فيما تقول . وإن عُدتَ وذكرتَهُ بسوءٍ لأُؤَدِّبنَّك[3] .

ومن عفَّته وتقواه ، أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك ، لا

---

(١) أي أنهوا المشكلة بأي طريقةٍ ، ولو أن ترهنوا له كل ما يطلب .

(٢) الروضتين ١/٨ .

(٣) الروضتين ١/٩ .

يتصرَّف في شيءٍ منه لا قليلٍ ولا كثيرٍ ، بل يُخرجه إلى مجلس القاضي ، ويحصِّل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، وأمر الخطباء بإسقاط ألقابه في الدعاءِ له على المنابر ، وكان كما وصفه العماد الأصفهاني : « هو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، وقد غَلَب الكفر ، وبلغَ الضُّرّ ، فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها ... »[1] . وعندما تملَّك الموصل أمَرَ قائد شرطتها أن لا يعمل شيئًا إلا بالشَّرع الذي يأمر القاضي به ، وكانوا قبله يعملون بالسياسة[2] . وطُلب منه أن يزيد في العقوبات فرفض وقال : هذا زيادةٌ في الشريعة .

فتوحات نور الدين :

من أوائل وقعاته مع الفرنجة ، أنه أثناء زيارة والي دمشقٍ « معين الدين أنر » في بعلبك ، جاءهم كتابٌ من صاحب طرابلس الصليبي ، يحثُّهم فيها على أخْذ حصن العريمة ، فاستغلَّ نور الدين هذا الطلب ، وحاصر هو ومعين الدين الحصن وأخذاه . وفي سنة ٥٤٣ سار نور الدين إلى بُصْرَى الشام وقد اجتمع فيها الفرنجة عازمين على قصد الجزء الداخلي من بلاد الشام ، فالتقى بهم هناك واقتتلوا أشدَّ القتال ، ثم أنزل الله نصرَهُ على المسلمين وانهزم الفرنجة[3] . وفي سنة ٥٤٤ هاجم حصن حارِم ، وخرَّب ما حوله ونهب ، ثم رحل عنه إلى حصن آنب ودارتْ معركةٌ مع الفرنجة ، انتصر فيها المسلمون وقُتل فيها أمير أنطاكية ، ثم سار نور الدين إلى حصن (فاميا) وحاصره وضيَّق عليه ، ثم تملَّكه صُلحًا[4] . وفي سنة ٥٤٦ استطاع نور الدين بعد أسْرِ (جوسلين) أحد شياطين الفرنجة ، استطاع أخْذ قلاع تل باشر وعين تاب

---

(١) الروضتين ١/١١ .

(٢) الروضتين ١/١٣ .

(٣)، (٤) الروضتين ١/٥٥ ، ١/٥٨ .

وعزاز ومرعش وغيرها من أعمال حلب . وفي سنة ٥٤٩ دخلتْ دمشق ضمن دولته ، وكان نور الدين يخطِّط من زمنٍ لأخْذها ؛ لأنها في طريقه إلى الصليبيين ، وهي ضعيفة وحدها ، وإذا حاول أخذها بالقوة فإن ملكها يستجير بالصليبيين ، عدا عن كُره نور الدين لسفك الدماء ، ولذلك تحايلَ على مجير الدين حتى فاجأه بهجومٍ سريع ، بعد أن كاتب أهل دمشق ليسلِّموها له ، فدخلها دون قتالٍ يُذكر ، وأعطى مجيرَ الدين مدينة حمص .

شـدَّة بأسه وثَبَات جَأْشِهِ وإخلاصه في الدعاء :

في سنة ٥٥٣هـ ، يقول أبو شامة في « عيون الروضتين » : « وَرَدَ الخبرُ من العسكر ، بأن الفرنج تجمَّعُوا ، وزحفوا إلى المسلمين ، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر ، والتقى الجمعان ، واتَّفق أن عسكر الإسلام حصل فيه لبعض المقدّمين فاندفعوا ، وتفرّقوا بعد الاجتماع ، وبقي نور الدين رحمه الله ثابتًا في مكانه في عدَّةٍ يسيرةٍ من شجعان غلمانه وأبطال خواصّه ، في وجوه الفرنج ، وأطلقوا فيه السهام ، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير ، ثم إنهم ولوْا منهزمين خوفًا من كمينٍ يظهر عليهم من عسكر الإسلام ، ونجَّى اللهُ - وله الحمد - نور الدين منهم بشدّة بأسه وثبات جأشه ومشهور شجاعته ، وعاد إلى مخيَّمه سالمًا في جماعته .

وذَكر أبو الفتح بن أبي الحسن بن الأشتري هذه الواقعة فقال : بقي نور الدين مع شرذمةٍ قليلة وطائفةٍ يسيرة ، واقفًا على تلٍّ يُقال له : تلّ حبيش ، وقد قرُب عسكر الكفار ، بحيث اختلط رَجَّالةُ المسلمين مع رجّالة الكفار ، فوقف نور الدين بحذائهم مولّيًا وجهَهُ إلى قِبلة الدعاء ، حاضرًا بجميع قلبه مُناجيًا ربَّه بسِرّه ، ويقول : يا ربّ ، أنا العبدُ الضعيفُ ، قلَّدْتني هذه الولاية ، وأعطيتني هذه النيابة ، عمَّرتُ بلادَك ، ونصحتُ عبادَك ، وأمرتُهم بما أمرتني به ، ونهيتُهم عمَّا نهيتني عنه ، فرفعتُ المنكراتِ من بينهم ،

وأظهرتُ شعارَ دينك في بلادهم ، وقد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدرُ على دَفْع هؤلاء الكفار أعداءِ دينك ونبيِّك محمدٍ ﷺ ، ولا أملك إلَّا نفسي هذه ، قد سلَّمْتُها إليك ، ذابًّا عن دينك ، وناصرًا لنبيِّك . فاستجاب الله دُعاءَهُ ، وأوقع في قلوبهم الرعب ، وأرسل عليهم الخِذلان ، فوقفوا مَوَاضِعَهم ، وما جَسَرُوا على الإقدام عليه ، وظنُّوا أن نور الدين عَمِلَ عليهم الحيلة ، وأن عسكر المسلمين في الكمين . قال : وترجَّل كلُّ من كان مع نور الدين ، وقبَّلُوا الأرض بين يديه ، وتشفَّعُوا إليه في أن يرجع ، وقالوا : أيّها الملك ، أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع ، وفي هذا الإقليم ، فإن جرى - والعياذ بالله - وهنٌ وضعفٌ من استيلاء الكفار على المسلمين ، مَنِ الذي يقدر على تدارُكه ؟ قال : وحلف من شاهَدَ ذلك ، أنهم أخذوا بعِنان فرسه كُرهًا ، ورحلوا من ذلك الموضع ، وما كان في عزْم نور الدين أن يرحل من ذلك الموضع ، فلمَّا عرف الكفار ذلك ، وأنه ما كان عليهم لا كمينٌ ولا حيلةٌ ، ندموا ندامةً عظيمةً ، خذلهم الله تعالى .

وفي سنة ٥٥٨هـ :

أَكْثَرَ الخَرْجَ نورُ الدين ، إلى أن قسَّم في يومٍ واحد مائتي ألف دينار ، سوى غيرها من الدوابّ والخيام والسلاح وغير ذلك ، وتقدّم إلى ديوانه أن يُحضروا الجند ، ويسألوا كلَّ واحدٍ منهم عن الذي أُخذ منه ، فكلّ مَنْ ذَكَر شيئًا ، أعطوْه عِوَضَه ، فذكر أن بعض الجند حضر ، وادّعى شيئًا كثيرًا ، علم بعضُ النُّواب كذبَهُ فيما ادَّعاه ، لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضيَّة ، ويستأذنونه في تحليفه على ما ادَّعاه ، فأعاد الجواب : لا تُكدِّرُوا عطاءنا ، فإني أرجو الثواب على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : إنّ لك في بلادك إدارات كثيرة ، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفيَّة والقُرّاء ، فلو استعنتَ بها لكان أَمْثَل . فغضب من هذا

وقال : والله إني لا أرجو النصر إلَّا بأولئك ، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني - وأنا نائمٌ على فراشي - بسهامٍ لا تُخطئ ، وأصرفها إلى مَنْ لا يُقاتل عني إلّا إذا رآني بسهامٍ قد تُخطِئ وتُصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أُعطيه غيرهم ؟! فسكتوا »[1] .

لله درُّك يا نور الدين .. ما أعظَمَك وأفْقَهَك وأكرَمَك .

نَصْرُ « نور الدين » العظيمُ في وقعة حارِم سنة ٥٥٩هـ :

قال أبو شامة : « كَسَرَ نورُ الدين الفِرنج على « حارِم » ، وقُتل منهم في معركة واحدةٍ عشرون ألفًا ، وأُسِرِ مَنْ نجا ، وأُخذ القومص والبرنس والدوقس وجميع ملوكهم ، وكان منحًا عظيمًا وفتحًا مبينًا ، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المُهادَنة فلم يُجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن مَنْ يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقُوا » .

وكان فتْح « حارِم » من أعظم معارك نور الدين مع الصليبيين ، إذ جاء الفرنج بحدِّهم وحديدهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وكان المقدّم عليهم البرنس « بيموند » صاحب أنطاكية ، و « قمص » صاحب طرابلس ، وابن جوسلين ، واستطاع نور الدين جرّهم إلى معركةٍ خارج حصن حارم ، وانتصر عليهم انتصارًا ساحقًا ، ووقع كلُّ الأمراء والملوك أسرى بين يديه .

قال العلَّامة أبو شامة في « عيون الروضتين » (١/٢٦٨ - ٢٧٢) :

« قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : كَسَر نور الدين الرومَ والفِرنج والأرمن على « حارم » وكان عدّتهم ثلاثين ألفًا ، ووقع « بيمند » في أسْرِه في نوبة حارم ، وباعه نَفْسَهُ بمالٍ عظيمٍ أنفقه في الجهاد .

---

(١) عيون الروضتين ١/٢٥٨ - ٢٥٩ .

وقال العماد الكاتب : اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفِرنج - يعني بسبب رحيلهم إلى مصر - وقَصَدَهم ، واجتمعوا على « حارم » فضَرَبَ معهم المصافّ ، فرَزَقَهُ الله الانتقامَ منهم ، وأسَرَهم وقَتَلَهم ، ووقع في الأُسارَى برنس أنطاكية ، وقومص طرابلس وابن الجوسلين ودوك الروم ، وذلك في رمضان . قال : وقُتل منهم في المعركة عشرون ألفًا .

قال ابن الأثير : أقبل نور الدين على الجدّ والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخْذ بثأره ، وغزْو العدو في عقر داره ، ليَرْتُق ذلك الفَتْق ، ويمحو سمة الوَهْن ، ويعيد رَوْنَق المُلك ، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين ألبي بماردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف . فأمَّا قطب الدين ، فإنه جمع عساكره وسار مُجِدًّا ، وعلى مقدّمة عسكره زين الدين علي نائبه ، وأما فخر الدين قرا أرسلان ، فبلغني أن خواصّه قالوا له : على أي شيءٍ عزمتَ ؟قال: على القعود ، فإن نور الدين قد تحشَّف[1] من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يُلقي نَفْسَه والناس معه في المهالك . وكلُّهم وافَقَهُ على ذلك ، فلمَّا كان الغد ، أمَرَ بالنداء في عسكره بالتجهيز للغَزاة ، فقال له أولئك : ما هذا مما بدا ، فارقناك بالأمس على حالٍ ، ونرى الآن ضدَّها . فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقًا ؛ إن لم أُنجده ، خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبّادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكُر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من الأسْر والقتْل والنَّهْب ، ويستمدُّ منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كلُّ واحدٍ من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنونني ويدعون عليَّ ، فلا بدّ من إجابة دعوته .

---

(١) تحشَّف : اكتسى الأطمار .

ثم تجهز أيضًا وسار إلى نور الدين بنفسه . وأمَّا نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكرًا . فلمَّا اجتمعتِ العساكر ، سار نور الدين نحو « حارم » ، فنزل عليها وحصرها ، وبلغ الخبرُ إلى مَنْ بقي من الفرنج بالساحل لم يَسِر إلى مصر ، فحشدوا وجاءوا ومقدّم الفرنج « البرنس » صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب أطرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، و « الدوك » وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الرَّاجِل ما لا يقع عليه الإحصاء ، قد ملئوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرَّض نور الدين أصحابه ، وفرَّق نفائس الأموال على شجعان الرجال ، فلمّا قاربَهُ الفرنج ، رحل عن « حارم » إلى « أرتاح » وهو إلى لقائهم مرتاح ، وإنما رَحَل طمعًا أن يتبعُوه ، ويتمكّن منهم إذا لَقُوه ، فساروا حتى نزل على عمّ[1]، وهو على الحقيقة تصحيفُ ما لقوه من الغَمّ ، ثم تيقَّنُوا أن لا طاقة لهم بقتاله ، ولا قُدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وقد حرمتْهم كلَّ خير ، وتَبعهم نور الدين ، فلمَّا تقاربوا واصطفُّوا للقتال ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبدَّدُوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولّوهم الأدبار ، وتَبِعَهُم الفرنج ، وكانت تلك الفَرَّة من الميمنة على اتّفاقٍ ورأي دبَّرُوه ، ومكر بالعدوِّ مَكَرُوه ، وهو أن يبعدوا عن راجلهم[2]، فيميل عليهم من بقي من المسلمين ، ويضعوا فيهم السيوف ، ويُرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجِلًا يلجئون إليه ، ويعود المنهزمون

---

(١) قرية بين حلب وأنطاكية .

(٢) قُصد بها أن الفارس المدرّع الثقيل ، غير المدعم بقُوًى من المشاة ، وغير المحروس من قِبَلها ، يفقد فاعليَّته في المعركة ، وهذا يدلّ على حِنكة نور الدين العسكرية .

في آثارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فكان الأمر على ما دبَّروا ، فإن الفرنج لمَّا تبعوا المنهزمين ، عَطَفَ زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم ، فأفناهم قتْلًا وأسْرًا ، وعادت خيَّالُهم ، ولم يُمْعنوا في الطَّلب خوفًا على راجِلِهم من العَطَب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد مُعفَّرِين ، وبدمائهم مُضَرَّجِين ، فسقط في أيديهم ، ورأوْا أنهم قد ضلُّوا ، وخضعتْ رقابُهم وذَلُّوا ، فلمَّا رجعوا ، عطف المنهزمون أعِنَّتهم وعادوا ، فبقي العدو في الوسط ، وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب ، فحينئذٍ حمي الوطيس ، وباشر الحربَ المرؤوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حراب من أيس من الحياة ، وانقضَّتِ العساكر الإسلامية عليهم انقضاضَ الصُّقور على بُغات الطيور ، فخرقوهم بَدَدا ، وجعلوهم قِدَدا ، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، وأكثر المسلمون فيهم القتْل ، وزادت عدَّة القتلى على عشرة آلاف[1] ، وأما الأسرى فلم يُحصوْا كثرةً ، ويكفيك دليلًا على كثْرتهم ، أن ملوكهم قد أسروا ، وهم الذين قَبْلُ ذُكِروا .

قلت : وبلغني أن نور الدين - رحمه الله - لمَّا التقى الجمعان أو قُبيله ، انفرد تحت تلّ حارم ، وسجد لربِّه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال : يا ربّ ، هؤلاء عبيدُك ، وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك ، وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، أيش فضول محمود في الوسط . يشير إلى أنك يا ربّ ، إنْ نصرتَ المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ، إن كان غير مستحقٍّ النصر .

وبلغني أنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودًا ، من هو محمود الكلب حتى يُنصر ؟! وجرى بسبب ذلك منامٌ حسن .. سنذكره . وهذا

---

(١) في الروضتين ١/١٣٣ : عشرين ألفًا .

فتحٌ عظيم ، ونصرٌ عزيز ، أنعم الله به على نور الدين والمسلمين ، مع أن جيشه - عامئذٍ - كان منه طائفةٌ كثيرة بمصر مع أسد الدين شيركوه ، وهذا من عجيب ما وقع واتَّفَق » .

وفي سنة ٥٦١هـ فتح حصن المنيطرة : سار إليه على غرَّةٍ من الفرنج وحَصَرَهُ ، وجَدَّ في قتاله ، فأخذه عَنْوَةً وقَتَل من به ، وسَبَى وغنم غنيمةً كثيرةً .

ومن عَجَبٍ أن السُّيوفَ لديهمُ   تحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذُكُورُ
وأعْجَبُ من ذا أنَّها في أكُفِّهمْ   تأجَّجُ نارًا والأكُـفُّ بحورُ

وفي سنة ٥٦٢هـ تملَّك نور الدين صافيتا والعريمة .

توحيد مصر والشام سنة ٥٦٤هـ :

لم يَغِب عن بال السلطان محمود ، أن توحيد بلاد الشام ومصر من أقوى الأسباب للوقوف في وجه الصليبيين . وجاءت الفرصة المناسبة عندما استجار به وزير العُبيديين في مصر شاور السعديُّ ، وذلك لمساعدته في إرجاع منصب الوزارة الذي فَقَدَه ، بادر نور الدين للإجابة ، وأرسلَ جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه ، على أن يكون لنور الدين ثلث دَخْل مصر . دَخَل جيشُ نور الدين القاهرة ، وأعاد شاورًا للوزارة ، ولكنْ شاور غدرَ ما عاهَدَ عليه ، وطلب من أسد الدين مغادرة مصر ، واستنجد بالصليبيين الذين وجدوها فرصة ، فاضطرّ أسد الدين للانسحاب دون خسائر ، وفي نِيَّته العودة لمصر لتأديب شاور ، وفي عام ٥٦٢ هـ كان أسد الدين قد أكْمَلَ الاستعدادات وجَدَّ في السيْر ، فوصل مصر وعسكَرَ غربي القاهرة ، فالتقى مع المصريين يُساعدهم الفرنجة ، وهزمهم شرَّ هزيمةٍ ، وليس معه إلا ألفان من الفرسان ، ثم إن المصريين بذلوا له الأموال للصُّلح ، فوافق ورجع للشام ،

وكان الفرنجة في هذه المرة قد تمكَّنُوا من شاور وحكومته ، وشرطوا شروطًا ، منها أن يكون لهم حامية في القاهرة ، فتحكَّمُوا في المسلمين ، واستدعَوْا الصليبيين من فلسطين لأخْذ مصر ، فاشتدَّ خوف نور الدين أن يأخذ الكفارُ مصر ، فتجهَّز أسد الدين للمرة الثالثة ، وأخذ معه ابنَ أخيه صلاح الدين وهو كارهٌ لذلك ،﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم** ﴾ . وكان شاور قد أرضى الصليبيين بالمال ليعودوا عن مصر ، فاستجابوا له ، ولكن أسد الدين كان قد عزم هذه المرة أن يستقرَّ بمصر ، وبدأ شاور يُماطل ويعمل الحِيَل لإبعاد جيش نور الدين ، وقرَّر القبض على أسد الدين وأمرائه ، فأشار عليه ابنُه (الكامل) بألَّا يفعل . فقال له شاور : لئن لم أفعل لنُقتلنّ جميعًا . قال الابن : لأن نُقتل ونحن مسلمون ، والبلاد إسلاميةٌ ، خيرٌ من أن نُقتل وقد مَلَكَها الفرنج . ولكن شاور أصرَّ على غدْره ، وشعر به قُوَّاد أسد الدين ، فاتَّفقُوا على قتْله واستراحوا منه ، واستراحت مصر منه أيضًا . وأصبح أسد الدين وزيرًا للدولة المصرية العُبيدية ، وكان آخر ملوكها العاضد ليس له من الأمر شيء ، فكانت وزارة شيركوه أوّل خطوة على طريق إعادة مصر إلى السُّنَّة . بعد شهرين من وزارته توفِّي رحمه الله ، وتولَّى بعده ابنُ أخيه صلاح الدين ، وهو الذي أزال الدولة العُبيدية ، بعد إلحاحٍ من نور الدين بأن يقطع الخطبة للعاضد ويخطب للخليفة العباسي ، وصلاح الدين يعتذر خوفًا من أهل مصر ، ولكن عندما استجاب لم يُخالفه أحد ، ولم ينتطح فيها عنزان . وهكذا كان إرجاع مصر للسُّنَّة وتوحيدها مع بلاد الشام ، من خطوات الجهاد المباركة التي بدأها نور الدين عليه رحمة الله ، وأكْمَلَ هذه الخطوات السلطانُ المجاهد صلاح الدين .

قال ابن عساكر يُهنِّئ نور الدين - رحمه الله - باستيلاء عسكره على

مصر ، وكان قد أعفى أهل دمشق من المطالبة والخشب :

لمَّا سمحتَ لأهل الشام بالخشبِ   عُوِّضتَ مصرَ بما فيها من النَّشَبِ

ومنها :

فأحْزَمُ النّاسِ مَنْ قوّى عزيمتَهُ   حتى ينالَ بها العالي من الرُّتَبِ

فالجدُّ والجَدُّ مقرونانِ في قَرَنٍ   والحزْمُ في العزْمِ والإدراكُ في الطَّلَبِ

صفحاتٌ من نور لنور الدين: «إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مبتسمًا ، والمسلمون مُحاصَرُون بالفرنج » :

في سنة ٥٦٥هـ نزل الفرنج - خذلهم الله - على دمياط .

قال ابن الأثير : كان فرنج الساحل لمَّا ملك أسد الدين مصر ، قد خافوا ، فكاتبوا فرنج الأندلس وصقلية ، يستمدُّونهم ويُعرِّفونهم ما تجدَّد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعةً من القسوس والرهبان يحرِّضون الناس على الحركة ، فأمدُّوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتَّعدوا على النزول على دمياط، ظنًّا منهم أنهم يملكونها، ويتَّخذونها ظهرًا يملكون به ديار مصر ، فحَصَرُوا وضيّقُوا ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وتابَعَ رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلَّف عن دمياط مَلَكَها الفرنج ، وإن سار إليها ، خَلَفَهُ المصريون في مُخلَّفيه ومخَلَّفي عسكره بالسُّوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصاروا من خَلْفِه والفرنج من أمامه ، فجهَّز نور الدين إليه العساكر أرسالًا ، كلما تجهَّزتْ طائفةٌ أرْسَلَها ، فساروا إليه ، يتلو بعضُها بعضًا ، ثم سار نور الدين في مَن عنده من العساكر ، فدخَلَ بلادَ الفرنج فنَهَبَها ، فلمَّا رأى الفرنج تتابُعَ العساكر إلى مصر بدخول نور الدين بلادهم ونهْبِها وإخرابها ، رجعوا خائبين، وكان مدَّةُ مقامهم على دمياط خمسين يومًا .

قال العماد : لمَّا وصل خبر نزول الفرنج على دمياط ، اهتمَّ واغتمَّ ، وأنْهَضَ عسكرًا ثقيلًا مقدّمه الأمير قطب الدين خُضرو الهذياني ، فوصل قبل رحيل الفرنج بأسبوع .

قال أبو شامة : « وبلغني من شدَّة اهتمام نور الدين - رحمه الله - بأمر المسلمين ، حين نزول الفرنج على دمياط ، أنه قُرِئ بين يديه جزء حديثٍ له ، كان له به رواية ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديثٌ مسلسلٌ بالتَّبسُّم ، فطلب منه بعضُ طلبة الحديث أن يبتسم ليتمّ السلسلة ، على ما عُرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مُبتسمًا ، والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج .

وبلغني أيضًا أن إمامًا لنور الدين رأى - ليلةَ رحيلِ الفرنج عن دمياط - في منامه النبيَّ ﷺ ، فقال له : أَعْلِم نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة . فقال : يا رسول الله ، رُبَّما لا يُصدِّقني ، فاذكُر لي علامة يعرفُها . فقال : قُل له : بعلامةِ ما سجدتَ على تلِّ « حارم » ، وقلتَ : يا ربّ ، انصُر دينك ولا تنصر محمودًا ، من هو محمود الكلب حتى يُنصر . قال : فانتبهت ، ونزلتُ إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس ، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يُصلِّي الصبح . قال : فتعرَّضتُ له ، فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام ، وذكرتُ له العلامة ، إلَّا أنني لم أذكُر لفظة (الكلب) . فقال نور الدين رحمه الله : اذْكُر العلامة كلَّها . وألحَّ في ذلك ، فقلتُها ، فبكى رحمه الله ، وصدَّق الرُّؤيا ، فأَرَّخْتُ تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج فيها »[1] .

---

(١) عيون الروضتين ١/٢٩٨ - ٢٩٩ .

صفحاتٌ من علوّ الهـمَّة لابن زنكـي ، أطْيَبُ من الـورد ، وأحْلَى من الشّهْد :

منشوره لمَّا أبْطَلَ ضريبة الأتبان عن أهل دمشق سنة ٥٩٦ هـ :

يقول فيه بعد حمدِ الله :

(وبعدُ ، فإن مِن سُنَّتِنا العادلة ، وسِيَرَ أيامنا الزّاهرة : إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم وإعفاء رسْم ما سنَّهُ الظالمون من الرُّسوم ، وما نزال نُجدِّد للرَّعيَّة رسْمًا من الإحسان ، يرتعون في رياضه ، ويرتوون من حِياضه ، ونَسْتَقْرِئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونُصفِّيها من الشُّبَهِ والشَّوائب ، ونُلحِق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضّائرة ، بما أسقطناه من المُكُوس والضَّرائب ، تقرُّبًا إلى الله تعالى ، الكافلِ لنا بسبُوغِ المواهب وبلوغِ المطالب ، وقد أطلقْنا جميع ما جرتِ العادةُ بأَخْذه من فريضة الأتبان المقسَّطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضِياع الغوطة والمرج ، وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور ، والعقيبة[1] ومزارعها الجارية في الأملاك ، وجميع ما يقسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضِّياع الخواص ، والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، ووَفرْناهُ على أربابه ، طلبًا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه ، وهربًا من انتقامه وأليم عقابه . وسبيلُ الثواب إطلاقُ ذلك على الدوام ، وتَعْفِيَةُ آثاره ، والاستعفاء من أوزاره ، والاحترازُ من الدَّنس بأوضاره ، وإبطالُ رسْمه من الدَّواوِين ، لاستقبال سنة تسعٍ وستين ، وما بعدها على تعاقُب الأيام والسنين) .

قال العماد : وكلَّف نور الدين - في هذه السنة - بإفادة الألطاف ، والزِّيادة في الأوقاف ، وتكثير الصدقات ، وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة

(١) من أحياء دمشق .

الأيامَى في أيامها ، وإغناء فقراء الرَّعيَّة وإنجادها بعد إعدامها ، وصوْن الأيتامِ والأرامل ببذْله ، وعوْن الضعفاء وتَقْوِيَة المُقْوين بعدْله ، وعمارة المساجد المهجورة ، وتعفية آثار الآثام ، وإسقاط كلّ ما يدخل في شُبهة الحرام ، فما أبقى سوى الجِزْيَة والخَرَاج وما تحصَّل من قسْم الغلّات على قويم المنهاج . قال : وأمَرَ أن يُكتب مناشير لجميع أهل البلاد ، فكُتب أكثر من ألف منشور ، وحَسَبْنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فزاد على ثلاثين ألف دينار . وكانت عادتُه في الصَّدَقة ، أنّه يُحضر جماعةً من أماثل البلد من كلّ محلّةٍ ، ويسألهم عمّن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتِهم . وكان برسم نفقته الخاصّ في كلّ شهرٍ من جزية أهل الذمّة ، مبلغُ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمَّة ، حتى أُجرة خيّاطه وجامكيّة طباخه ، ويتفضَّل منه ما كان يتصدَّق به في آخر الشهر . وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرَّف في شيءٍ منه ، لا قليلٍ ولا كثيرٍ ، بل إذا اجتمعَ يُخرجه إلى مجلس القاضي ويحصِّل ثمنه ، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدَّم بإحصاء ما في محالّ دمشق من ذلك ، فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كلّه ، وعيَّن له وُقُوفًا .

قال : ولو اشتغلتُ بذكْر وقوفه وصدقاته في كل بلد ، لَطالَ الكتابُ ، ولم أبلغ إلى أمره . ومُشاهدةُ أَبْنيته الدَّالَّة على خُلُوص نيَّته ، تُغني عن خبرها بالعيان ، ويكفي أسوار البُلْدان فضْلًا عن الربط والمدارس ، على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب ، وفي شرْح طُوله طول ، وعمله لله مبرورٌ مقبول . وواظبَ على عقْد مجالس الوُعَّاظ ، ونصْب الكراسيِّ لهم في القلعة للإنذار والاتّعاظ ، وأكبرهم الفقيهُ قطبُ الدين النيسابوريُّ ، وهو مشغوفٌ ببركة أنفاسه ، واغتنام كلامه واقتباسه . ووفدَ من بغداد ابنُ الشيخ أبي النجيب الأكبر ، وبُسط له في كلّ أسبوعٍ المنبرُ ، وَشاقَهُ وَعْظُه ،

وراقَهُ معناهُ ولفْظُهُ . وكذلك وفد إليه من أصفهان شرفُ الدين عبد المؤمن ابن شَوْرَوَه . وما أيْمَنَ تلك الأيام وأبرك تلك الشتوة . قال : ولمَّا أسْقَطَ نورُ الدين الجهاتِ المحظورة والشُّبَهَ المحذورة ، عزل الشِّحَن ، وعزل عن الرعية تصرفهم المحن ، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري : انظر أنت في ذلك ، واحْمِلْ أمورَ الناس فيها على الشريعة . قال : ولم يكن لمال المواريث الحشريّة حاصل ، ولا لديوانه طائل ، فجعل نور الدين ثلث ما يحصُل منه لكمال الدين الحاكم ، فوفَّره نُوَّابُه وكثَّروه ، وما كان نور الدين يُحاسب القاضي على شيءٍ من الوقوف ، ويقول : أنا قد قلَّدْتُه على أن يتصرَّف بالمعروف ، وما فضل من مصارفها وشروط واقفها بأمره ، يصرفه في بناء الأسوار، وحفْظ الثغور، وكانت دولتُه نافِذةَ الأَمْر، منتظمة الأمور .

وقال في موضعٍ آخر : كان مَلِكُ الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملكُ العادل نور الدين ، أعَفَّ الملوك وأتقاهم ، وأعْدَلهم وأعبَدهم ، وأزهدهم وأطهرهم . وهو الذي أعاد رَوْنَق الإسلام في بلاد الشام ، وقد غَلَب الكفر وبَلَغ الضُّرّ ، فاستفتحَ معاقِلَها واستخلَصَ عقائلها ، وأشاع بها شعارَ الشرع في جميع الحلّ والعقْد ، والإبرام والنَّقْض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع . وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع ، فقطعَها ، وأعفَى رسومها ومَنَعَها . ونصره الله عليهم مرارًا ، حتى أسَرَ ملوكهم وبدَّد سلوكهم . وصان الثُّغور منهم وحماها عنهم ، وأحيا معالم الدين الدَّوارِس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات للصُّوفية ، وكثَّرها في كلِّ بلد ، وكثَّر وقوفها ووفَّر معروفها ، وأدْنَى للوافِدِين من جَنان جِنانه قُطُوفَها ، وأجدَّ الأسوار والخنادق . وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطُّرقات ببناء الرُّبُط والحانات . وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في « تاريخه » ، في ترجمة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله : مولدُه - على ما ذَكَر لي كاتبُه أبو اليسر - وقتَ طلوع الشمس يوم الأحد ، سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولمَّا راهَقَ لزمَ خِدمَة والده ، إلى أن انتهت مدَّته سنة إحدى وأربعين على قلعة جعبر ، ثم قَصَد حلب ورتَّب فيها وفي القلعة النُّوّاب ، واستنقذَ الرُّها من الفرنج ، ولمَّا استتبَّ له الأمر ، ظهر منه بذْل الاجتهاد في القيام بأمر الجهاد ، والقمْع لأهل الكفر والعناد ، والقيام بمصالح العباد ، وخرج غازيًا في أعمال تلِّ باشر ، فافتتحَ حصونًا كثيرةً ، وافتتح قلعة أفامية ، وحصن الباره ، وقلعة الراوندان ، وقلعة تلّ خالد ، وحصن كفرلاثا ، وحصن بسرفوث بجبل بني عليم ، وقلعة عزاز ، وتلّ باشر ، ودلوك ، ومرعش ، وقلعة عين تاب ، ونهر الجوز ، وغير ذلك . وغزا حصن إنَّب ، فقصده الإبرنس متملِّك أنطاكية ، وكان من أبطال العدوّ وشياطينهم ، فرحل عنها ، ولَقِيَه دُونَها ، فكَسَرَه وقَتَلَه وثلاثةَ آلاف إفرنجيٍّ كانوا معه . وأظهر بحلب السُّنَّة حتى أقام شعار الدِّين ، وغيَّر البدعة التي كانت لهم في التَّأْذِين ، وقَمَعَ بها الرافضةَ والمبتدعةَ ، ونشر فيها مذاهب أهل السُّنّة الأربعة ، وأسقط عنهم جميع المُؤَن ، ومنعهم من التَّوثُّب في الفتن ، وبنى بها المدارس ، ووَقَفَ الأوقافَ ، وأظهر فيها العدلَ والإنصافَ ، وحاصر دمشق مرَّتيْن ، فلم يتيسَّر له فتحُها ، ثم قصدها الثالثةَ فتَمَّ له صُلحها وسلَّم أهلها إليه البلدَ لغلاء الأسعار ، والخوفِ من استعلاء كلمة الكفار ، فضبطَ أمورها ، وحصَّن سورها ، وبنى بها المدارس والمساجد ، وأفاض على أهلها الفوائد ، وأصلحَ طرقها ، ووسَّع أسواقها ، وأدرَّ الله على رعيَّته ببركته أرزاقها ، وأبطل منها الأنذال ، ورفع عن أهلها الأثقال ، ومنعَ من أخْذ ما كان يُؤْخَذ منهم من المغارم بدار البِطِّيخ وسوق البقْل

وضمان النهر والكيالة وسوق الغنم ، وغير ذلك من المظالم . وأمَرَ بتَرْك ما كان يُؤخذ على المَكْس ، ونهى عن شُرب الخمر ، وعاقب عليه بالحدِّ والحبس ، واستنقذَ من العدوّ - خذلهم الله - ثغر بانياس ، وغيره من المعاقل المنيعة كالمنيطرة وغيرها .

قال : وبلغني أنه في الحرب رابطُ الجأش ، ثابتُ القدم ، حَسَن الرَّمْي ، صليب الضَرْب ، يَقْدُمُ أصحابَهُ عند الكَرَّة ، ويحمي مُنهزمهم عند الفَرَّة ، ويتعرَّض بنفسه للشهادة ، لِمَا يرجو بها من كمال السعادة ، وسَمِعَهُ كاتبُه أبو اليسر ، يسأل الله أن يحشُره من بطون السباع ، وحواصِل الطير ، وأحْسَنَ إلى العلماء وأكرَمَهم ، وقرَّب المتديِّنين واحترمهم ، وتوخَّى العدل في الأحكام والقضايا ، وألانَ كَنَفَه . وأظهر رأفَتَهُ بالرَّعايا ، وبنى في أكثر مملكته آدر العدل ، وأحضرها القضاة والفقهاء ، وحضرها بنفسه في أكثر الأوقات ، واستمع من المتظلِّمين الدعاوى والبيِّنات ، وأدرَّ على الضعفاء والأيتام الصدقاتِ ، حتى وقفَ وُقوفًا على المرضى والمجانين ، وأقام لهم الأطبَّاء والمعالِجين ، وكذلك على جماعة العلماء ، ومعلِّمي الخطِّ والقرآن ، وعلى ساكني الحرمين ، ومجاوِرِي المسجدَيْن ، وجهَّز عسكرًا يحفظ المدينة ، وأقْطَعَ أمير مكة ، ورفع عن الحُجّاج ما كان يُؤخَذ منهم من المَكْس ، وأقطع أمراءَ العرب لئلَّا يتعرَّضوا للحُجّاج . وأمر بإكمال سور مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم ، واستخراج العين التي بأُحُد ، وكانت قد دفنتها كثرةُ السُّيول ، وعمَّر الرُّبُط والخانقاهات والبيمارستانات ، وبنى الجسور في الطرق والخانات ، ونصب جماعةً من المعلِّمين لتعليم يتامى المسلمين ، وأجرى الأرزاقَ على معلِّميهم وعليهم ، بقدر كفايتهم ، وكذلك صنعَ لمَّا مَلَكَ سنجار ، وحرّان ، والرها ، والرَّقّة ، ومنبج ، وشيزر ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وصرخد ، وتدمر . فما من بلدٍ

منها إلَّا وله فيه حُسْن أثر . وحصَّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طُلَّابها . وجدَّد كثيرًا من قني السبيل . وأجهدَ نفسَهُ في جهاد أعداء الله تعالى ، وبالغَ في حربهم . وتحصَّل في أسْرِه جماعةٌ من أمراء الفرنج - خذلهم الله - كجوسلين وابنه ، وابن الفنش ، وقومص طرابلس ، وجماعة من صنوفهم ، وكان متملِّك الروم قد خرج من قسطنطينية ، وتوجَّه إلى الشام طامعًا في تسلُّم أنطاكية ، فشغَلَهُ عن مَرَامه بالمراسلة ، إلى أن وصل أخوه قطب الدين في جنده من المواصلة ، وجمع له الجيوش والعساكر ، وأنفق فيهم الأموال والذخائر ، فأيِسَ الروميُّ من بلوغ ما كان يرجو ، وتمنَّى منه المصالحة عساه ينجو ، فاستقرَّ رجوعُه إلى بلادِهِ ذاهبًا ، فرجعَ منْ حيثُ جاءَ خائبًا، وحَمَلَ إلى بيت المال ما حمل، ولم يبلغ ما أمَّله وضلَّ ما عمل .

ثم ذكَر تسييرَه الجيوش لفتْح مصر مرارًا إلى أن فُتحتْ ، وانفصلتِ القضيَّة ، قال : وظهرتْ كلمة أهل السنّة بالديار المصرية ، وأراح اللّعن بها مِن الفتنة ، ورفَع عنهم المحنة ، والحمد لله على ما مَنح ، وله الشكر على ما فتَح .

ثم قال : ومع ما ذكرتُ من هذه المناقب كلّها ، وشرحتُ من دِقّها وجِلّها ؛ فهو حَسَن الخطِّ بالبنان ، مُتأتّ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان ، حريصٌ على تحصيل كتب الصحاح والسنن ، مُقْتنٍ لها بأوفر الأعواض والثمن ، كثيرُ المطالعة للعلوم الدينية ، مُتتبّعٌ للآثار النبويّة ، مواظبٌ على الصلوات في الجماعات ، مُراعٍ لآدابها في الأوقات ، مؤدٍّ فروضَها ومسنوناتِها ، مُعظِّم لقدْرها في جميع حالاتها ، عاكف على تلاوة القرآن على مرِّ الأيام ، حريصٌ على فِعْل الخير من الصَّدقة والصِّيام ، كثيرُ الدعاء والتسْبيح ، راغبٌ في صلاة التراويح ، عفيفُ البطن والفَرْج ، مُقْتصِد في الإنفاق والخرْج ، مُتحرٍّ في المطاعم والمشارب والملابس ، متبرِّئٌ من

التمادي والتباهي والتنافس ، عريٌّ عن التجبُّر والتكبُّر ، بريءٌ مِن التنجيم والتطيُّر ، مع ما جمَع الله له مِنَ العقل المتين ، والرأي الثاقب الرَّصين ، والاقتداء بسيرة السَّلف الماضين ، والتشبُّه بالعلماء والصّالحين ، والاقتفاء بسيرة مَن سَلَف منهم في حُسْن سَمْتهم ، والاتِّباع لهم في حِفْظ حالهم ووقْتهم ؛ حتى رَوَى حديثَ المصطفى ﷺ وأسمعه - وكان قد استُجيز له ممن سمِعَه وجمَعَه - حرصًا منه على الخير في نَشْر السُّنَّة بالأداء والتحدُّث ، ورجاء أنْ يكون ممن حَفِظ على الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث ، فمَن رآه شاهد مِن جلال السّلطنة وهيبة الملك ما يبْهرُه ، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيَّره . ولقد حكَى لي عنه مَنْ صَحِبَه في حضَره وسفَره : أنّه لم تُسمع منه كلمةُ فُحْشٍ في رضاه ولا ضَجَره ، وإنَّ أشْهى ما إليه: كلمةُ حقٍّ يسمعها أو إرشاد إلى سُنَّة يتبعها . يُحبّ الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحُسْن ظنِّه فيهم . وإذا احتلم مماليكُه أعتقهم ، وزوَّج ذكْرانَهم بإناثهم ، ورزقهم . ومتى تكرَّرت الشّكاية إليه من أحدٍ من ولاته ، أمَره بالكفِّ عن أذى مَن تظلَّم بشكاته ، فمَنْ لم يرجع منهم إلى العدْل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزْل . ولمَّا جمع الله له مِن شريف الخِصال ، تيسَّر لَهُ جميعُ ما يقصده من الأعمال ، وسهَّل على يده فَتْح الحصون والقلاع ، ومكَّن له في البلدان والبقاع ؛ وأكْثر ما أَخذه مِن البلدان ، تسلَّمه من أهله بالأمان من غير سَفْك دم . وإذا استُشهد أحدٌ من أجناده حَفِظَه في أهله وأولاده ، وأجْرى عليهم الجرايات ، وولَّى مَن كان منهم أهلًا للولايات . وكلَّما فَتَح الله عليه فتْحًا أو زاده ولاية ، أسْقط عن رعيَّته قِسْطًا وزادهم رعاية ، حتى ارتفعتْ عنهم الظلامات والمكوس ، ودرّتْ عليهم الأرزاق . وحصل بينهم الاتفاق . ومناقبه خطيرة وممادحُه كثيرة ، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكْثروا ، ولم يبلغوا وصْف الآية بل قصَّروا ، وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه القدْر .

قال أبو الفتح بنجير بن أبي الحسن الأشتري - وهو فقيهٌ ، كان معيدًا بالمدرسة النِّظَّاميَّة وجمع لنور الدين رحمه الله سيرةً مختصرة - قال : كان نور الدين يقعُد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية وكَشْف الظُّلامة ، لا يطلب بذلك درهمًا ولا دينارًا ولا زيادةً ترجع إلى خزانته ، وإنَّما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وطلبًا للثواب والزلفى في الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبوَّاب ؛ حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ويكلِّمهم بأَحْسَن الكلام ، ويستفهم منهم بأَبْلغ النظام ، حتى لا يطمع الغني في دَفْع الفقير بالمال . ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه المرأة العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه ، فيأمُرُ بمساواته لها ، فتغلب خصمها طمَعًا في عَدْله ، ويَعْجز الخصم عن دَفْعها خوفًا من عدله ، فيظهر الحقُّ عنده ، فيُجْري الله تعالى على لسانه ما هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عمَّا يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلَّا محْضُ الشريعة .

قال : وأمّا زمانُه فهو مصروف إلى مصالح الناس ، والنظر في أمور الرعيَّة والشفقة عليهم . وأمَّا فِكْره ففي إظهار شعار الإسلام ، وتأسيس قاعدة الدين ؛ من بناء المدارس والرُّبُط والمساجد وترتيب أمْرهم ، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم . ولو لم يكن من هذه الخصال إلَّا ما عُلم منه وشاع ؛ أنَّه إذا وعد وفَّى وإذا أوْعد عفا ، وإذا تحدَّث بشيءٍ عليه لا يُخالف قولَه ، ولا يرجع عن لفْظِه ومنْطِقِهِ - لَكَفَى . ولا يجري في مجلسه الفسْق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم ، كما يجري في مجلس سائر الملوك ، ولا يطمع في أَخْذ أموال الناس ، ولا يرضى أن يأخُذ من أموال الرعيّة شيئًا بغير حق .

قال : وبَلَغَنا بأخبار التواتر ، عن جماعة ممن يُعتمد على قولهم : أنَّه أكثر الليالي يصلِّي ويناجي ربَّه مقبلًا بوجهه عليه ، ويؤدِّي الصلوات الخمس في أوقاتها ، بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها .

قال : وبَلَغنا عن جماعة من الصوفيَّة الذين يُعْتمد على أقوالهم ، ممّن دخلوا ديار القدس للزيارة ، حكاية عن الكفار ، أنّهم يقولون : ابنُ القسيم له مع الله تعالى سِرٌّ ؛ فإنّه ما يظْفر علينا بكثرة جُنده وعسكره ، وإنما يظْفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فإنّه يصلِّي بالليل ، ويرفع يَده إلى الله ويدعو ، فالله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ، ويعطيه سؤله ، وما يَرُدّ يدَه خائبة ، فيظفر علينا . فهذا كلام الكفار في حقِّه .

قال : وحدَّثنا الشيخ داود المقدسي – خادم قبر شعيب عليه الصلاة والسلام – قال : حضَرتُ دار العدْل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين ، فقام رجل وادَّعى على الملك العادل : أن أباه أَخَذَ مِن ماله شيئًا بغير حقٍّ قال : وأنا مطالِبٌ لك بذلك . فقال نور الدين : أنا ما أعلم ذلك ، فإن كانت لك بيِّنة تشهد بذلك فهاتها وأنا أَرُدّ ما يخصُّني ؛ فإنِّي ما ورِثْتُ جميعَ ماله ، كان هناك وارث غيري . فمضى الرجل يُحْضِر البيِّنة ، فقلت في نفسي : هذا هو العدل .

قال : وادَّعى رجلٌ على أخي الشيخ أبي البيان ، وديعةً ، فأنكرها وحَلَف ، فجعل المُودِع يشنِّع عليه وشكاه إلى نور الدين ، والتمس الإنكار عليه ، فقال نور الدين : أليس الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **وإذا خاطَبَهُم الجاهِلُون قالوا سَلامًا** ﴾ ؛ فإذا كان هو يجهل عليك ، ويقول في حقِّك بالجهل ما لا يجوز ، فيجب عليك أن لا تعمل معه مِثْل معاملته ، فتكون مثله ، فكأنَّك قابلتَ الإساءة بالإساءة ، ومِن حقِّك أن تُقابِل الإساءة بالإحسان . فقلت في نفسي : الحقُّ ما قال الملك العادل ؛ إمَّا قرأ هذا في

كُتُب التفاسير ، فثَبت في قلبه هذا التحقيق ، أو أجْراهُ الله على لسانه وأنْطقه به .

قال : وحَضَر جماعة من التجّار ، وشكوا أنَّ القراطيس كان ستّون منها بدينار ، فصار سبعة وستّون بدينار ، وتنقُص وتزيد فيخسرون ، فسأل نور الدين عن كيفيَّة الحال ، فذكروا أنَّ عَقْد المعاملة على اسم الدينار ، ولا يُرىٰ الدينار بالوَسَط ، إنما يعدُّون القراطيس بالسّعْر تارة ستِّين بدينار وتارة سبعة وستِّين ، وأشارَ كلُّ واحد من الحاضرين على نور الدين أنْ يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ، وتبطل القراطيس بالكليّة ، فسكت ساعة ، ثم قال : إذا ضَرَبْتُ الدينار ، وأبطلتُ المعاملة بالقراطيس ، فكأنِّي خرَّبتُ بيوت الرعية ؛ فإنَّ كلَّ واحد مِن السُّوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس،أيش يعمل به ؟ فتكون سببًا لخراب بيته . قال : فأيُّ شفقة أعظم وأكثر من هذا على الرعيّة ؟! .

قال : وحَضَر صَبِيٌّ ، وبكى عند نور الدين ، وذكَر أنَّ أباه محبوسٌ على أجْرةِ حُجْرةٍ من حُجَر الوَقْف - يعني : وقْف الجامع - فسأل عن حاله ، فقالوا : هذا الصَّبُّي ابن الشيخ أبي سعد الصوفيّ ، وهو رجُلٌ زاهدٌ قاعدٌ في حُجْرةٍ للوقْف ، وليس له قُدرةٌ على الأُجْرة ، وقد حَبَسه وكيلُ الوقْف ؛ لأنّه اجتمع عليه أُجْرةُ سنة ، فسأل : كم أُجْرة السَّنة ؟ قالوا : مائة وخمسون قِرطاسًا . وذكروا سِيرتَه وطريقتَه وفقره ، فرقَّ له وأنْعَم عليه ، وقال : نحنُ نعطيه كلَّ سنةٍ هذا القَدْر ؛ ليصرفه إلى الأُجْرة ويقعد فيها ، وتقدَّم بذلك وبإخراجه مِن الحبْس ، فوصل إلى قلب كلِّ واحدٍ من الحاضرين الفَرَح ، حتى كأنَّ الإنعام كانَ في حقِّه .

وقال أبو الحسن ابن الأثير : قد طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدِّمين

قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أرَ منها بعد الخلفاء الراشدين وعمر ابن عبد العزيز مَلِكًا أحسنَ سِيرةً من الملِك العادل نور الدين ، ولا أكثر تَحَرِّيًا للعْدل والإنصاف منه ، قد قَصَرَ ليلَه ونهارَه على عدْلٍ ينشرهُ ، وجهادٍ يتجهَّز له ، ومَظْلمةٍ يُزيلُها وعبادةٍ يقوم بها ، وإحسان يُولِيهِ ، وإنعامٍ يُسْدِيه . ونحن نذكُر ما يُعلم به محلّه في أَمْرِ دنياه وأُخراه ، فلو كان في أُمَّة لافتخرتْ به ، فكيف بيت واحد ؟! أمّا زهدُه وعبادته وعلمه ؛ فإنّه كان رحمه الله - مع سَعَةِ مُلكه وكثْرة ذخائر بلاده وأموالها - لا يأكُل ، ولا يلبس ، ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلَّا من مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سَهْم ؛ من الغنيمة ومن الأموال المُرصَدة لمصالح المسلمين ، أَحْضَرَ الفقهاء واستفتاهم في أَخْذِ ما يحلُّ له من ذلك ، فأَخَذ ما أفتوه بحِلِّه ، ولم يتعدَّه إلى غيره ألبتَّة ، ولم يلبس قطُّ ما حرَّمه الشرعُ ؛ من حريرٍ أو ذهبٍ أو فضةٍ ، وَمنَع مِن شُرْب الخمر وبَيْعِها في جميع بلادِه ومن إدخالها إلى بلدٍ ما ، وكان يَحِدُّ شاربَها الحدَّ الشرعيَّ ، كلُّ الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق ، كان رضيعَ الخاتون ابنةِ معين الدين - زوجة نور الدين - ووزيرَها ، قال : كان نور الدين إذا جاء إليها ، يجلس في المكان المختصّ به وتقوم في خدمته ، لا تتقدَّم إليه إلَّا أن يأذن لها في أَخْذ ثيابه عنه ، ثم تَعْتزل عنه إلى المكان المختصِّ بها ، وينفرد هو ؛ تارةً يُطالع رِقَاع أصحاب الأشغال ، أو في مطالعةِ كتاب أتاه ، ويجيب عنها ، وكان يصلِّي فيُطيل الصلاة ، وله أوْرادٌ في النهار ، فإذا جاء الليل وصلَّى العشاء ونام ، يستيقظ نصْف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكرة ، فيظهر للركوب ، ويشتغل بمهامِّ الدولة .

قال : وإنَّها قلَّت عليها النفقة ، فأرسلتْني إليه أطلب منه زيادةً في وظيفتها ، فلمَّا قلت له ذلك ، تنكَّر واحمرَّ وجهه ، ثم قال : مِن أين

أُعْطيها ؟ أما يكفيها مالُها ؟ والله لا أخوضُ نارَ جهنَّمَ في هواها ، إنْ كانت تظنُّ أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي ، فبئس الظّنُّ ، إنَّما هي أموال المسلمين مُرْصَدَةٌ لمصالحهم ، ومُعدَّة لفَتْقٍ إن كان من عدوّ الإسلام ، وأنا خازِنُهم عليها ، فلا أخونهم فيها . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا وقد وهبتُها إيَّاها ، فلتأخذها . قال : وكان يَحْصُل منها قَدْرٌ قليل .

قال ابن الأثير : وكان رحمه الله لا يفعلُ فِعْلًا إلّا بنيَّةٍ حسنة ، كان بالجزيرة رجُلٌ صالح ، كثيرُ العبادة والورع ، شديدُ الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبُه ويراسلُه ، ويرجع إلى قوله ، فبلغه أنَّ نور الدين يُدْمِنُ اللَّعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنتُ أظنُّك تلهو وتلعب وتُعذِّب الخيل لغير فائدةٍ دينيَّة . فكتب إليه نور الدين رحمه الله – بخطٍّ يده – يقول له : والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللّهو والبَطَرُ ، إنَّما نحن في ثغْرٍ العدوُّ قريبٌ منَّا ، وبينما نحن جلوسٌ ، إذ يقع صوتٌ فنركب في الطَّلَب ، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلًا ونهارًا ، شتاء وصيفًا ، إذ لا بدَّ من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَمامًا[1] لا قُدْرة لها على إدمان السَّيْر في الطلَب ، ولا معرفَة لها أيضًا بسرعة الانعطاف والكرِّ والفرِّ في المعركة ، فنحن نركبُها ونُروِّضُها بهذا اللعب ، فيذهبُ جَمَامُها ، وتتعوَّد سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

قال ابن الأثير : فانظر إلى هذا الملِك المعدوم النظير ، الذي يَقِلُّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مِثْله ، فإن مَن يجيء إلى اللعب يفعله بنيَّةٍ

---

(١) الجَمَام : الراحة ، وجمَّ الفرسُ : تُرِك ولم يُرْكَب .

صالحة ، حتى يصيرَ مِن أعظم العبادات وأكثرِ القُرُبات - يقلُّ في العالَم مِثْلُه ، وفيه دليلٌ على أنه كان لا يفعلُ شيئًا إلَّا بنيَّةٍ صالحة ، وهذه أفعالُ العلماء الصالحينَ العالمينَ .

قال : وحُكي لي عنه أنَّه حُمِلَ إليه من مصر عمامةٌ مِن القصَب الرفيع مُذهَّبة ، فلم يُحْضِرها عنده ، فوصِفَتْ له فلم يلتفتْ إليها ، وبينما هم في حديثها ، إذ جاءه رجُل صوفيٌّ ، فأَمَر بها له ، فقيل له : إنها لا تصلحُ لهذا الرجلِ ، ولو أُعطي غيرَها كان أنفع له . فقال : أعطوها له ، فإنّي أرجو أن أُعوَّضَ عنها في الآخرة . فسُلِّمَتْ إليه ، فسار بها إلى بغداد ، فباعها بستمائة دينارٍ أو سبعمائة . قلت : وقيل أنَّه باعها بهمذان بألف دينارٍ .

قال ابن الأثير : وكان - يعني نور الدين رحمه الله - عارفًا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده تعصُّب ، بل الإنصاف سَجِيَّتُهُ في كلِّ شيءٍ ، وسمع الحديثَ وأسْمَعَه ؛ طَلَبًا للأجر ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباعَ سُنَّةِ العدْل والإنصاف ، وتَرْكَ المحرَّمات من المأْكَل والمشْرب والملْبس وغيرِ ذلك ، فإنَّهم كانوا قبله كالجاهليَّة ، هِمَّةُ أحدِهم بطْنه وفرْجه ، لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر مُنكرًا ، حتى جاء الله بدولته ، فوَقَف مع أوامِر الشَّرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعَه وذَويهِ ، فاقتدى به غيرُه منهم ، واستحيَوْا أنْ يظهرَ عنهم ما كانوا يفعلونه ، « ومَن سنَّ سُنَّة حسنةً ، فله أجْرُها ، وأجْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة » .

قال : وأمَّا عَدله ، فإنه كان أحْسَنَ الملوك سيرةً ، وأعْدَلَهم حُكْمًا ؛ فمن عدْلِه أنّه لم يتركْ في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مَكْسًا ولا عُشرًا بل أطلقها جميعها ؛ في بلاد الشام والجزيرة جميعها ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها مما حكَم عليه .

وكان المَكْسُ في مصر يُؤخذُ من كلِّ مائة دينارٍ خمسةٌ وأربعون دينارًا ، وهذا لم تتَّسِع له نَفْسُ غيره ، وكان يتحرَّى العدْل ، ويُنْصِفُ المظلومَ من الظَّالم كائنًا مَن كان ، القويّ والضعيف عنده في الحقّ سواءٌ . وكان يَسْمعُ شكوى المظلوم ، ويتولَّى كَشْف حاله بنفسه ، ولا يَكِلُ ذلك إلى حاجبٍ ولا أميرٍ ، فلا جَرَمَ سار ذكْرُه في شرق الأرض وغربها .

قال : ومِن عدْلِه أنّه كان يعظِّم الشريعة المطهَّرة ، ويقفُ عند أحكامِها ، ويقول : نحن شِحَنٌ لها ، نُمضي أوامرها . فَمِنَ اتّباعِه أحكامَها ؛ أنه كان يلعبُ بدمشق بالكرة ، فرأى إنسانًا يُحدِّث آخر ويومئُ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأُل عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ليُحضره إلى مجلس الحُكْم ، يُحاكمُني على المُلْك الفلاني . فعاد إليه ، ولم يتجاسرْ يُعرِّفه ما قال ذلك الرجل ، وعاد يَكْتُمه ، فلم يقبل منه غير الحقّ ، فذكر له قولَه ، فألقى الجوكانَ مِن يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وهو حينئذٍ كمال الدين الشَّهرزوري ، وأرسل إلى القاضي يقول له : إنني قد جئت مُحَاكَمًا ، فاسلُك معي مثْلَ ما تسلُكه مع غيري . فلمَّا حضر ساوى خَصْمه وحاكَمَه ، فلم يَثْبُت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين – رضي الله عنه – حينئذٍ للقاضي ولمن حضَر : هل ثبتَ له عندي حقٌّ ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا أنني قد وهبتُ له هذا المُلْك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنتُ أعلمُ أنه لا حقَّ له عندي ، وإنَّما حضرتُ معه لئلا يَظُنَّ أنني ظلمتُه ، فحيث ظَهَر أن الحقَّ لي ، وهبتُه له .

قال ابن الأثير : وهذا غايةُ العدْل والإنصاف . بل غايةُ الإحسان ، وهي درجةٌ وراء العدل ، فرَحِم الله هذه النَّفس الزَّكيَّة الطاهرة ، المنقادةَ إلى الحق ، الواقفةَ معه .

قال : ومن عدْله ؛ أنّه لم يكنْ يُعاقِب العقوبة التي يُعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظنَّة والتُّهمَة ، بل يطلبُ الشهودَ على المُتَّهَم ، فإن قامت البيِّنة الشرعية ، عاقبه العقوبةَ الشرعيَّة من غير تعدٍّ ، فدَفَع الله بهذا الفعل عن الناس من الشَّر، ما يوجَد في غير ولايته مع شدَّة السِّياسة والمبالغة في العقوبة، وأمنت بلادُه مع سعتها، وقلَّ المفسدون ببركة العدْل واتّباع الشرع المطهر .

قال : وحكى لي من أثق به أنّه دخل يومًا إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالًا أنكره فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرْسَله ، وهو من جِهَةِ كذا . فقال : إنَّ هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء . وأَمَر بردِّه وإعادَتِه إلى كمال الدين ليردَّه إلى صاحبه ، فأرسله متولِّي الخزانة إلى كمال الدين ، فردَّه إلى الخزانة ، وقال : إذا سألك الملك العادل عنه ، فقولوا له عني : إنّه له . فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى ، فرآهُ فأنْكَر على النُّوَّاب قال : ألم أقُلْ لكم : يُعادُ هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قوْل كمال الدين ، فردَّه إليه ، وقال للرسول : قُلْ لكمال الدين : أنتَ تقدر على حَمْلِ هذا المال ، وأمَّا أنا فَرَقَبَتِي دقيقة ، لا أُطيقُ حَمْلَهَ والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد،قولًا واحدًا .

« عَـدْله بعـد موتـه !! » :

قال : ومِن عدْله أيضًا بعد موته ، وهو من أعْجب ما يُحْكى : أنّ إنسانًا كان بدمشق ، استوطنها وأقام بها ، لما رأى من عدْل نور الدين رحمه الله ، فلمَّا تُوفِّي تعدَّى بعضُ الأجْنادِ على هذا الرجل فشكاه ، فلم يُنْصَف ، فنزل من القلعة وهو يستغيثُ ويبكي وقد شُقَّ ثوبه وهو يقول : يا نور الدين ، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظُّلم لرحِمْتَنا ، أينَ عدلك ؟ وقَصَد تربةَ نور الدين ومعه من الخلْق ما لا يُحْصى ، وكلُّهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية ، وإلَّا خرج عن

يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل - وهو عند تُربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيَّب قلبَه ووهبه شيئًا وأنصفه ، فبكى أشدَّ من الأول ، فقال له صلاح الدين : لِمَ تبكي ؟ قال : أبكي على سلطانٍ عَدَلَ فينا بعد موته . فقال صلاح الدين : هذا هو الحق . وكلُّ ما نحن فيه من عدْلٍ فمنه تعلَّمْناه .

وأمَّا شجاعَتُه وحُسْن رأيِهِ فقد كانت النهاية إليه فيهما ؛ فإنّه أصْبَرُ الناس في الحرب ، وأحْسَنُهم مكيدةً ورأيًا ، وأجودُهم معرفةً بأمورِ الأجنادِ وأحوالهم وبه كان يُضْرب المَثَلُ في ذلك ، سمعتُ جَمْعًا كثيرًا من الناس لا أُحْصيهم يقولون أنهم لم يروْا على ظَهْرِ الفَرَسِ أحسنَ منه ، كأنّما خُلِق عليه ، لا يتحرَّك ولا يتزلزل ، وكان من أحسنِ الناس لَعِبًا بالكرة وأقْدَرِهم عليها لم يُرَ جوكانُه يعلو على رأسِه ، وكان ربَّما ضَرَبَ الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها إلى آخرِ الميدان ، وكانت يَدُه لا تُرى والجوكانُ فيها ، بل تكون في كُمِّ قبائه ، استهانةً باللعب .

قال : وكان - رحمه الله - يُكْثر إعمال الحِيَل والمكْر والخداع مع الفرنج ، وأكثر ما مَلَكه من بلادهم به ؛ ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع (مليح ابن ليون) مَلِك الأرمن صاحب الدروب ؛ فإنّه ما زال يخدعه ويَسْتَمِيله حتى جَعَله في خِدمته سَفَرًا وحَضَرًا ، فكان يُقاتل به الفرنج ، وكان يقول : إنما حَمَلني على استمالته أنَّ بلادَه حَصِينَةٌ وَعِرَةُ المسْلك ، وقلاعَهُ مَنيعةٌ ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد ، فينالُ مِن بلاد الإسلام ، فإذا طُلِبَ انْحَجَر فيها ، فلا يُقْدَر عليه ، فلمَّا رأيتُ الحال هكذا ، بذلتُ له شيئًا من الإقطاع على سبيل التّآلُف ، حتى أجاب إلى طاعتنا وخِدْمتنا ، وساعدَنا على الفرنج . قال : وحيث توفِّي نور الدين ، وسلكَ مَنْ بعده غير هذا الطريق ؛ مَلَكَ مُتولِّي الأرمن بعد (مليح) كثيرًا من بلاد الإسلام وحصونهم ، وصار منه ضررٌ عظيم وخَرْقٌ واسع لا يُمكِنُ رَقْعُه . قال : ومن أحْسَنِ الآراء ما كان يفعله مع أجْنادِه ، فإنّه كان إذا توفِّي أحدُهم وخلَّف ولدًا ، أقرَّ الإقطاعَ عليه ، فإن كان الولد كبيرًا ،

استبدَّ بنفسه ، وإن كان صغيرًا رتَّب معه رجلًا عاقلًا يثق إليه ، فيتولَّى أَمْرَه إلى أن يَكْبُر، فكان الأجْنادُ يقولون: هذه أَمْلاكُنا يَرِثها الولدُ عن الوالدِ فنحن نُقاتل عليها . وكان ذلك سببًا عظيمًا من الأسباب الموجِبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان أيضًا يُثْبِتُ أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانِه وسلاحهم ؛ خوفًا من حِرْصِ بعضِ الأمراءِ وشُحِّه ، أن يَحْمِلَه على أن يَقْبِضَ على بعضِ ما هو مقرَّر عليه مِنَ العدد . ويقول : كلّ وقْتٍ نحن في النَّفِير ، فإذا لم يَكُنْ أَجْنادُ كافَّةِ الأُمراء كاملي العَدَدِ والعُدَدِ ، دخل الوَهْن على الإسلام . قال : وأمَّا ما فَعَلَهُ في بلاد الإسلام من المصالح ممَّا يعود إلى حِفْظها وحفْظ المسلمين فكثير عظيم ، من ذلك أنه بنى أسْوار مُدن الشام جميعها وقلاعَها ، فمنها : حلب ، وحماة ، وحمص ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصَّنها وأحْكَم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال ما لا تَسْمح به النفوس ، وبنى أيضًا المدارس بحلب وحماة ودمشق وغيرها للشافعيَّة والحنفيَّة ، وبنى الجوامعَ في جميع البلاد ؛ فجامعُهُ في الموصل إليه النِّهاية في الحُسْن والإتقان ، ومن أحْسنِ ما عَمِل فيه ، أنَّه فَوَّض أَمْر عمارته والخرْج عليه إلى الشيخ عمر الملّا رحمه الله[1] ، وهو رجل من الصالحين فقيل له : إنَّ هذا لا يصلُحُ لمثل هذا العمل . فقال : إذا ولَّيتُ العملَ بعضَ أصحابي من الأجْناد والكُتَّاب ، أعلَمُ أنّه يَظلمُ في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجُلٍ مسلم ، وإذا ولّيتُ هذا الشيخ ، غلب على ظنِّي أنّه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا عليَّ . قال :

---

(١) هو : الشيخ عمر بن محمد المشهور بالملاء ، سُمِّي الملاء ؛ لأنه كان يعمل بملء تنانير الآجُرّ ؛ لقاء أجْرٍ يتقوَّتُ به ، وكان لا يملك سوى ما يَرْتَدِيه من قميصٍ وعمامة ، وكان عالمًا بفنون العلوم ، ويزوره جميع الملوك والعلماء والأعيان ويتبرَّكون به . للاستزادة راجع : مرآة الزمان جـ١ / ٣١٠ - ٣١١ ، الروضتين ٢ / ٦٨ ، شذرات الذهب ٢٢٩/٤ ، الكواكب الدرّيّة ٣٦ والأصل ٩١/ و .

وهذا هو الفقه في الخلاص مِنَ الظُّلم . وبنى أيضًا بمدينة حماة جامعًا على نهر العاصي ، من أحْسنِ الجوامع وأنزهِها ، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدَّم ؛ إمَّا بزلزلةٍ أو غيرها ، وبنى البيمارستانات في البلاد ، من أعظمِها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنّه عظيمٌ كثيرُ الخرْج جدًّا ، وبنى أيضًا الخانات في الطرق ، فأمِنَ الناسُ وحُفظت أموالُهم ، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ من البَرْد والمطر ، وبنى أيضًا الأبراج على الطُّرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها مَن يَحفظُها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوْا من العدوّ أحدًا أرْسلوا الطيورَ ، فأخذَ الناس حِذْرَهم واحتاطوا لأنفسِهم ، فلم يَبْلُغ العدوُّ منهم غَرَضًا ، وكان هذا من ألْطَفِ الفِكَرِ ، وأكثرها نفعًا .

قال: وبنى الرُّبُط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقَفَ عليها الوُقُوفَ الكثيرةَ ، وأدَرَّ عليهم الإدرارات الصالحة ، وكان يُحْضِرُ مشايخَهم عنده ، ويُقرِّبهم ويُدْنيهم ويَبْسُطُهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبلَ أحدهم إليه ، يقوم له مُذْ تَقَعُ عَيْنُه عليه ، ويعتنقُه ويُجْلِسُه معه على سجَّادته ، ويُقبِلُ عليه بحديثه . وكذلك أيضًا كان يفعل بالعلماء مِنَ التعظيمِ والتوقيرِ والاحترامِ ، ويجمعهم عند البَحْثِ والنَّظَر ، فيقصدونه من البلاد الشَّاسعة مِنْ خراسان وغيرها . وبالجملة كان أهلُ الدين عنده في أعْلى مَحلٍّ وأعظَمِه ، وكان أمراؤه يحسُدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عَيْبًا يقول : ومَنْ هو المعصوم ؟ وإنَّما الكامل من تُعدُّ ذنوبه . قال : وبَلَغني أنَّ بعضَ أكابر الأمراء حَسَدَ قُطْبَ الدين النيسابوريّ الفقيه الشافعيّ ، وكان قد استقدمه من خراسان ، وبَالَغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحَسَدَه ذلك الأمير ، فقال عنه يومًا عند نور الدين ، فقال له : يا هذا ، إنْ صَحَّ ما تقوله ، فلَهُ حسنة تَغْفرُ كلَّ زَلَّةٍ تذكرُها ، وهي العلم والدِّين ، وأمَّا أنتَ وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرتَ ، وليستْ لكم حسنةٌ تغفرها ، ولو عَقِلْتَ لشغلَك عيْبُكَ

عن غيرِكَ ، وأنا أحْتملُ سيِّئاتكم مع عَدَمِ حسناتِكم ، أفلا أحْتملُ سيِّئة هذا - إنْ صحَّت - مع وجود حسنة ؟ على أنَّني والله لا أُصدِّقُك فيما تقول ، وإنْ عُدتَ ذكَرْتَه أو غيرَه بسوءٍ ، أدَّبْتُك . فكَفَّ عنه . قال ابن الأثير : هذا والله هو الإحسان ، والفِعْلُ الذي ينبغي أن يُكْتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضًا دارَ الحديث ، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ بها - من المُشتَغِلينَ بعلم الحديث - وقوفًا كثيرة ، وهو أوَّل مَنْ بنى دارًا للحديث فيما علمناه ، وبنى أيضًا في كثيرٍ من بلاده مكاتبَ للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى مُعلِّميهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضًا مساجدَ كثيرة ، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ يُقرئُ بها القرآن . قال : وهذا فِعْلٌ لم يُسبق إليه . بلغني مِنْ عارفٍ بأعمال الشام أنَّ وُقوفَ نور الدين في وقْتِنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة - كلَّ شهرٍ ، تسعةُ آلاف دينارٍ صُوريَّة ، ليس فيها مُلْكٌ غيرُ صحيحٍ شرعيٍّ ، ظاهرًا وباطنًا ؛ فإنَّه وَقَفَ ما انتقل إليه ووزنَ ثمنَهُ ، وما غَلَبَ عليه من بلاد الفرِنج وصار سهمَهُ .

قال : وأمَّا وقارُه وهيبتُه فإليه النهاية فيهما ، ولقد كان - كما قيل - شديدًا من غير عُنف ، رقيقًا من غير ضَعْف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ؛ فإنّه ضَبَطَ ناموسَ المُلْك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيدَ عليها ، وكان يُلزِمُهم بوظائِف الخِدمة؛ الصغير منهم والكبير، وكان - مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم - إذا دخلَ عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير ، يقومُ له ويمشي بين يديه ، ويُجلسه إلى جانبه ، كأنّه أقرب الناس إليه ، وكان إذا أعطى أحَدهم شيئًا يقول : إنَّ هؤلاء لهم في بيت المالِ حق ، فإذا قَنِعوا منّا ببعضه فلهم المنَّةُ علينا . وكان مجلسُه - كما رُوِيَ في صفة مَجْلسِ رسول الله ﷺ - مجلسَ حِلْمٍ وحياء لا تُؤْبَنُ فيه الحُرمُ . وهكذا كان مجلسُه لا يُذكَرُ فيه إلّا العلْمُ والدِّين ، وأحوالُ الصالحين ، والمشورةُ في الجهاد وقصْد بلاد العدوّ ، ولا يتعدَّى هذا .

قال ابن الأثير : فهكذا كانت أحواله جميعها - رحمه الله - مضبوطة محفوظة . وأمَّا حِفْظ أصول الديانات ، فإنّه كان مراعيًا لها لا يهملها ، ولا يُمكِّن أحدًا من الناس من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقْدَم مُقْدِمٌ على ذلك أدَّبه بما يناسب بِدْعَته ، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظُ الطُّرقَ من لصٍّ وقاطعِ طريقٍ ، والأذى الحاصلُ منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ، ونمنع عنه ما يُناقِضُه وهو الأصل ؟! .

قال : وحُكي أنَّ إنسانًا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم - كان يُظهر الزهد والنُّسك ، وقد كَثُر أتباعُه - أظهر شيئًا من التشيعيَّة ، فبلغ خبَرُه نور الدين ، فأحضره وأركبه حمارًا وأَمَر بصَفْعِه ، فطيف به في البلد جميعه ، ونوديَ عليه : هـذا جزاء مَن أظهر في الدين البدَع ، ثم نفاه من دمشق ، فقَصَد حرَّان ، وأقام بها إلى أن مات . قلت : وحدَّثني الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله قال : وقفتُ على رقْعَةٍ بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر ابن القيسراني ، كتبها إلى نور الدين ، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور ، فنقلتُ جميع ما فيها من خطّيهما . قال : وكان - رحمه الله - كتب رقعة ، يطلب من ابن القيسراني : أن يَكْتب له ما يُدْعى له به على المنابر ، حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه ، ويصونه عن الكذب ، وعمَّا هو مخالفٌ لحاله . ونسخة الورقة بخطِّ خالدٍ المذكور : أعلى الله قَدْر المولى في الدارين ، وبلغه آماله في نفسه وذرّيته ، وخَتَم لهُ بالخير في العاجلة والآجلة بمنِّه وجُوده وفضله وحمده . وقَف المملوك على الرقعة ، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله بأنْ يرضى عنه وعن والديه ، وأن يسهِّلَ له السلوك إلى رضاه والقُرْب منه والفوز عنده ، قد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف زاده الله شرفًا . وهو أن يذكر الخطيب على المنبر ، إذا أراد الدعاء للمولى : اللّهمّ أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقُوَّتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سُنْقر ناصر أمير المؤمنين .

فإنّ جميعَه لا يدخله كَذِبٌ ولا تَزيُّد ، والرأي في ذلك أعْلى وأسْمى إن شاء الله تعالى . فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطِّه ، ما هذا صورته : مقصـودي أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كلّ ما يُقال لا أفرح بما لا أعْمل ، قلَّة عقل عظيم . الذي كتب جيد هو ، اكتب به نسخًا حتى نُسيِّره إلى جميع البلاد . وكتب في آخر الرقعة : ثم نبدأ بالدعاء : اللّهمّ أره الحقَّ أسعده ، اللّهمّ وفِّقه من هذا الجَنْش[1] .

وفي عصرنا يا نور الدين: الحاكم في كلِّ دولةٍ رُبّما خصَّصُوا وزارةً لنشر صُوَره في كلِّ أرجاء البلاد ، كما يقول الشاعر :

صورة الحاكم في كلِّ اتجاهْ
أينما سِرْنا نراهْ
في المقاهي
في الملاهي
في الوزارات
وفي الحارات
والبارات
والأسواق
والتِّلْفاز
والمسرح
والمبغى
وفي ظاهر جدران المصحّات
وفي داخل دورات المياهْ
أينما سرنا نراهْ

* * *

(١) الجَنْش : الغلط ، وجَنَشتْ نفسي : ارتفعت من الخوف .

صورة الحاكم في كلِّ اتّجاه
باسمٌ
في بلدٍ يبكي من القهر بُكاهْ !
مشرقٌ
في بلدٍ تلهو الليالي في ضُحاه
ناعمٌ
في بلدٍ حتى بلاياهُ
بأنواع البلايا مُبْتَلاهْ
صارِخٌ
في بلدٍ مُعتقَلِ الصّوت
ومنزوعِ الشّفاهْ !
سالمٌ
في بلد يُعدم فيه الناس
بالآلاف ، يوميًّا
بدعوى الاشْتِباهْ

* * *

صورة الحاكم في كلّ اتّجاه
نعمة منه علينا
إذ نَرَى حين نَرَاهْ
أنه لَمَّا يزل حيًّا
وما زلنا على قيْد الحياهْ[1]

---

(١) قصيدة حبيب الشعب صـ٢٣ – ٢٥ ، من ديوان إني المشنوق أعلاه ، لأحمد مطر الطبعة الأولى بلندن .

قـال : وحدثني والدي قال : استدعانا نور الدين ، أنا وعمك أبـا غانم وشرف الدين بن أبي عصرون ، إلى الميدان الأخضر ، وأشهدنا عليه بوقْف حوانيت على سُور حمص ، فلمّا شهدنا عليه، التفتَ إلينا فقال: بالله انظروا أيَّ شَيْءٍ علمتموه من أبواب البرّ والخير دلّونا عليه ، وأشرِكونا في الثواب. فقال له شرف الدين ابن أبي عصرون : والله ما ترك المولى شيئًا من أبواب البرّ إلَّا وقد فعله ، ولم يَتْرك لأحدٍ بعده فِعْل خير إلّا وقد سبقه إليه . قال : وقال لي والدي : وصل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها ، وخلَّف ولدًا صغيرًا ومالًا كثيرًا ، فكتب بعضُ مَن بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات رجلٌ ها هنا - رجل تاجر موسر - وخلَّفَ عشرين ألف دينار وفوقها ، وله ولد عمره عشر سنين ، وحسَّنَ لـه أنْ يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يَكْبُر الصغير ، ويُـرضى منه بشيء ، ويُمسَك الباقي للخزانة . فكتب نور الدين - رحمة الله عليه - على رقعته : أمّا الميت فرحمه الله ، وأمّا الولد فأنشأه الله ، وأمّا المال فثمَّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله . قال : وبلغني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضًا .

وحدثني الحاج عمر بن سُنقر عتيق شاذبخت النوري ، قال : سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال : كنت يومًا أنا وسنقر واقفَيْن على رأس نور الدين وقد صلّى المغرب ، وجلس وهو مُفكِّرٌ فكْرًا عظيمًا ، وجعل يَنكُتُ بأصبعه في الأرض ، فتعجَّبنا من فِكْره وقلنا : تُرى في أيِّ شيءٍ يُفكِّر ؟ أفي عائلته أو في وفاء دَيْنه . فكأنّه فَطِن بنا ، فرفع رأسه وقال : ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئًا . فقال : بالله قولا لي . فقلنا : عجبنا من إفـراط مـولانا في الفِكْر ، وقلنا : يفكر في عائلته أو في نفسه . فقال : والله إنّي أُفكِّر في والٍ ولّيته أمْرًا من أمور المسلمين فلم يَعْدِل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين مِن أصحابي وأعـواني ، وأخاف المطالبة بذلك ، فبالله عليكـم - وإلَّا فَخُبْزِي علبكم حرام - لا تريان قصَّةً تُرفع إلَيّ ، أو تعلمان مظلمة ، إلَّا وأعْلِماني بها وارفعاها إلَيَّ . وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع

ابن تميم قال : كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان ، يطلب مِن الشيخ عمر الملّاء شيئًا يفْطر عليه ، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرُّقاق وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه ، وكان إذا قَدِم الموصل لا يأكُل إلَّا من طعام الشيخ عمر الملَّاء .

قال : وكان نور الدين ، لمّا صارتْ له الموصل ، قد أَمَر كمشتكين شحنة الموصل ، أنْ لا يعمل شيئًا إلّا بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأنْ لا يعمل القاضي والنُّوَّاب كلُّهم شيئًا إلَّا بأمْرِ الشيخ عمر الملَّاء .

« انظروا كتاب الزاهد إلى المَلِك ، وكتاب المَلِك إلى الزاهد !! » :

قال : فكان لا يُعْمل بالسياسة وبطُلت الشحنكيَّة ، فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين : قد كَثُر الزُّعَّار وأربابُ الفساد ، ولا يجيءُ من هذا شيءٌ إلَّا بالقتْل والصلْب ، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلت له في ذلك . فقال لهم : أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ، ولا أجْسُر على ذلك ، فقولوا للشيخ عمر الملَّاء يكتب إليه . فحضروا عنده ، وذكروا له ذلك ، فكتبَ إلى نور الدين ، وقال له : إنَّ الزُّعَّار والمفسدين وقطَّاع الطريق قد كَثُروا ، ونحتاج إلى نَوْع سياسة ، فمِثْل هذا لا يجيءُ إلَّا بَقتْلٍ وصلْبٍ وضرْبٍ ، وإذا أُخِذ مالُ الإنسان بالبرِّيَّة ، مَنْ يجيءُ يشهدُ له ؟! قال : فقلبَ نورُ الدين - رحمه الله - كتابه ، وكتبَ على ظهره : إنَّ الله تعالى خَلَق الخلْق وهو أعْلم بمصلحتهم ، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن المصلحة في زيادة الشريعة ، لَشَرَعَهُ ، فما حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله ؟! قال : فجمع الشيخ عمر الملَّاء أهل الموصل ، وقال : انظروا كتاب الزاهد إلى الملكِ ، وكتاب المَلِك إلى الزاهد .

وسمعتُ صقر بن يحيى بن صقر المعدل يقول : سمعت مقلدًا يعني : الدولعي . يقول : لما مات الحافظ المرادي ، وكنّا جماعة الفقهاء قسمين ؛ العرب والأكراد ،

فمنا مَنْ مال إلى المذهب ، وأردْنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وكان بالموصل ، ومنا مَنْ مال إلى عِلْم النظر والخلاف ، وأراد أنْ نستدعي القُطب النيسابوري ؛ وكان قد جاءَ وزَار البيت المقدَّس ، ثم عاد إلى بلاد العجم ، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعتْ فتنة بين الفقهاء . فسمع نور الدين بذلك ، فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب ، وخرج إليهم مجد الدين - يعني : ابن الداية - عن لسانه وقال لهم : نحن ما أردنا ببناء المدارس إلَّا نَشْر العلم ودَحْض البِدَع من هذه البلدة وإظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم ، لا يحسن ولا يليق ، وقد قال المولى نور الدين : نحن نُرضي الطائفتين ، ونستدعي شرف الدين بن أبي عصرون وقطب الدين النيسابوري. فاستدعاهما جميعًا، وولَّى مدرسةَ ابن عصرون لشرف الدين ومدرسةَ النفري لقطب الدين رحمهما الله تعالى .

أخبرنا مختار الدين عبد المطلب بن الفضْل الهاشمي ، قال : كان عند قاضي حلب تاج الدين الكردَري غلام قد جعله لمجلس الحُكْم ، يُدعى : سُويدًا ، يُحْضر الخصوم إلى مجلس الحكم ، فحضر بعض التجار وادَّعى أنّ له على نور الدين دعوى ، فقال الكردَري لسويد المذكور : امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحُكْم ، وعرِّفه أنَّه حَضَرَ شخص يطلبُ حضوره . وكان نور الدين في الميدان ، فجاء سويد إلى باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخزندار فوجدَهُ ، فتقدَّم سويد إليه وقال : قد سيَّرني تاج الدين القاضي ، وقال لي كذا وكذا . فضحك إسماعيل الخزندار ، ودخل على نور الدين ضاحكًا ، وقال له مستهزئًا : يقوم المولى . فقال : إلى أينَ ؟ فقال : قد حَضَر سويد غلام تاج الدين القاضي ، وقال : إنّه أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم . فأنكَر نور الدين على إسماعيل استهزاءه ، وقال : تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم ؟! ثم قال نور الدين رحمه الله : يُحْضر فرس حتى نركب إليه ، السمع والطاعة ، قال الله تعالى : ﴿ **إنَّما كان قَوْلَ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولهِ ليَحْكُمَ بينهم**

أنْ يقولوا سَمِعْنا وأطَعْنا ﴾ . ثم ركب حتى دخل باب المدينة ، فاستدعى سويدًا ، وقال : امض إلى القاضي وسلّم عليه ، وقُلْ له : إنِّي جئت إلى ها هنا ؛ امتثالًا لأمْر الشرع ، وأحتاجُ في الحضور إلى مجلسه ، إلى سلوك هذه الأزِقَّة وفيها الأطيان ، وهذا وكيلي يسمع الدعوى ، وإن توجَّهتْ عليَّ يمين أحْضُر إنْ شاء الله تعالى . قال : فحضر الوكيل وسمع الدعوى ، وتوجَّهتْ اليمينُ . فقال القاضي : قد توجَّهت اليمين فليحضُر . فلمَّا بلغ نور الدين ذلك ، وعَلِم أنّه لا مندوحةَ عن حضور مجلسه لليمين ، استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه وبينه ، وأرضاه .

قال لي صقر بن يحيى : بلغني أنّ موفق الدين خالدًا رأى في المنام : كأنَّ نور الدين دَفَع إليه ثيابه ليغسلها ، فقصَّ منامه على نور الدين فتَمعَّر وجهُ نور الدين ، فخجل موفق الدين ، وبقي أيامًا على غايةٍ من الخجل ، فاستدعاه يومًا نورُ الدين ، وقال : تعال قد آن لك أن تغسل ثيابي ، اقْعُد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار ، واكتب للمسلمين أنِّي قد رفعتُ عنكم ما رفعه الله عنكم ، وأثْبَتُّ عليكم ما أثبته الله عليكم . قال : فكتب موفق الدين توقيعًا .

سمعتُ خليفة بن سليمان - خليفة البقيعة - يقول : سمعتُ أبي يقول : لما كُسِر نور الدين - يعني : كسرة البقيعة ٥٥٨ هـ - تكلَّم البرهان البلخي فقال : أتريدون أنْ تُنْصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ، كلا . وكلامًا مع هذا ، فلمَّا سمع نور الدين ذلك ، قام ونزع عنه ثيابه تلك ، وعاهد الله تعالى على التوبة ، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكَسَر الفرنج .

سمعتُ صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري - وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وأعتقه - يقول : سمعت والدي يقول : كان نور الدين يلبس في الليل مسْحًا ، ويقوم يصلِّي فيه قطعة من الليل ، قال : وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرَّع ويقول : ارْحم العشَّار المكّاس .

قال قاضي القضاة بهاء الدين : سيَّر نور الدين إلى بغداد كتابًا يُعْلم الخليفة بما أطْلَق ، ويسأله أن يَتقدَّمَ إلى الوعَّاظ ، بأن يستعجلوا مِن التجار ومن جميع المسلمين له في حلّ ما كان قد وَصَل إليه - يعني من أموالهم - قال : فتقدَّم بذلك ، وجعل الوعَّاظ على المنابر ينادون بذلك .

حدثني رضيّ الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر : أن نور الدين حين خرج لأخْذ (شيزر) ، خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته ، فأَمَره نور الدين بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحرّان وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ، فكتَب عنه توقيعًا أوَّله : (هذا ما يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى) ، إلى أن قال : (علم أنّ الدنيا فانية ، فاستخدمها للآخرة الباقية ، فصفح لكافَّة المسلمين وجميع المسافرين بالضرائب والمكُوس ، وأسقطها من دواوينه وحرَّمها على كلِّ متطاول إليها ومتهافت عليها ؛ تجَنُّبًا لإثمها واكتسابًا لثوابها ، فكان مبلغُ ما سامح به وأطلقه ، وأنفذَ الأمْر فيه - اتِّباعًا لكتاب الله عز وجل وسنّة نبيّه محمد ﷺ - في كل سنة من العين مائةُ ألف وستَّةٌ وخمسون ألف دينار ، جهات ذلك ؛ حلب : خمسون ألف دينار ، عزاز : عشرة آلاف دينار ، تل باشر : واحد وعشرون ألف دينار ، المعرة : ثلاثة آلاف دينار ، دمشق : عشرون ألف دينار ، حمص : ستة وعشرون ألف دينار ، حران : خمسة آلاف دينار ، سنجار : ألف دينار ، الرحبة : عشرة آلاف دينار ، عداد العرب : عشرة آلاف دينار . وما وقَفَه وتصدَّق به وأجْراه في سُبُل الخيرات ومن وجوه البرِّ والصَّدقات ، تقدير ثمنه مئتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة : ثلاثون ألف دينار ، من ذلك ما وقَفَه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرِّسيها وفقهائها ، وما وقفه على آدر الصوفيّة والرُّبُط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما

وقَفَه على السبيل في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسْرىٰ ، وتعليم الأيتام ومُقْرِ الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويِّين والعباسيِّين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين ، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور -حرسها الله تعالى - من أملاكهم فإنّه يُضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه ، جعل ذلك ذريعة عند الله وتقرُّبًا إليه ، مضافًا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد من خزانته وأمواله ، فالواجب على كل إمامٍ عَدْلٍ وسلطانٍ قادرٍ ، أن يمدَّه ويوده ويشدَّ عضُدَه ويقوِّي عزمه ، وينفِّذ حكمه ، وعلى كل مسلم أن يُوَاصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار .

وكتب خادمُ دولته وغَذِيُّ نعمته ، عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان ابن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي ، إلى كل من يَصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبِّدين ، وكافة التجار والمسافرين ، لِيُشْعِروا بذلك مَن حَضَرهم من التجار والمتردِّدين إليهم من السُّفَّار ؛ ليعرفوا قَدْر ما أنعم الله به عليه وعليهم ، ولينذروا قومَهم إذا رجعوا إليهم ، ويمدُّوه بأدعيتهم ، ويُبَرِّئوا ذمَّته ممّا سبق من أَخْذ مؤنتهم ، فإنّه لم يصْرِف ذلك إلَّا في وجه برٍّ وتجهيزِ جيشٍ ومعونةِ مجاهدٍ وردْع كافرٍ ومعاند ، فهم شركاؤه في الثواب) .

قال لي رضيّ الدين أبو سالم بن المنذر : فلما وقَف نور الدين - رحمه الله - على قوله : ويُبَرِّئوا ذمَّته ممّا سبق ، استحسن ذلك كثيرًا ووعده بإقطاعٍ حَسَنٍ ، واتَّفَق موته - يعني موت الطالب لذلك - بعد ذلك .

قال : وفي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، أحْضر نور الدين أعيان دمشق ؛ من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء ، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ؛ ليفصلوها منها ، وقال لهم : ليس العمل إلَّا على ما تتَّفقون عليه وتشهدون به ، وعلى هذا كان الصحابة

رضـوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين ، وليس يجـوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئًا إلّا ويذكره ، ولا يُنْكِر شيئًا مما يقوله غيره إلّا وينكِره ، والساكت منكم مصدِّقٌ للناطق ومصوِّبٌ لقـوله . فشكروه علـى ما قال ودعوا له . وفَصَلوا له المصالح من الوقْف ، فقال نور الدين : إنَّ أهـم المصالح سدُّ ثغور المسلمين ، وبناءُ السُّور المحيط بدمشق والفضيل والخندق ؛ لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم . ثم سألهم عن فواضل الأوقاف ، هل يجوز صَرْفها في عمارة الأسوار وعَمَل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين ؟ فمنهم من أفتى بجواز ذلك عند الحاجة وفراغ بيت المال ، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية . وقال الأكثرون : ليس طريقه إلّا أن يقترضَه مَنْ إليه الأمْر في بيت مال المسلمين ، فيصرفه في المصالح ويكـون القضاء واجبًا من بيت المال .

وعلى الجملة كان نور الدين - رحمه الله - فردًا في زمانه من بين سائر الملوك ، ومن أحسن ما بلغني عنه أنّه سمع في الحديث : أن النبي ﷺ خرج متقلِّدًا سيفًا[1] ، وكان هـو وجُنْده عادتهم ربْطُ السيوف بأوسـاطهم ، فتعجب من ذلك ، فلمَّا كان من الغد ركب وقد تقلَّد سيفَهُ وجميع جنده كذلك .

وما أحْسَنَ ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني من قصيدة :

ذو الجهـاديْنِ مـن عـدوٍّ ونَفْسٍ   فهْـو طـولَ الحياةِ في هَيْجَـاءِ
أيُّهـا المالـكُ الذي ألـزم النّـــــاسَ سُلُوكَ المحَجَّةِ البيضـاءِ
قد فضحتَ الملوكَ بالعدْلِ لمَّا   سرتَ في الناسِ سِيـرةَ الخلفـاءِ
قاسمًا ما ملكتَ في النّاسِ حتى   لقسمـتَ التُّقَـى علـى الأتقيـاءِ
أنتَ حِينًا تُقـاس بالأسَـدِ الـوَرْ   دِ وحِينًـا تُعَـدُّ في الأوليـاءِ

وله فيه من أخرى :

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأحمد .

يا سائلي عـن نهـجِ سِيرتِـهِ هل غيْرُ مَفْرِقِ هامَـةِ الفَجْـرِ
عـدْلٌ حقيـقٌ مـن تأمَّلَـهُ أن يُحيـيَ العُمَـرَيْنِ بالـذِّكْرِ
وشهامـةٌ فـي اللهِ خالصـةٌ عقدتْ عليـه تَمَائِـمَ الأجْـرِ
ونـدى يـدٍ ما ضـرَّ واردَها أنْ لا يبيـتَ مجاورَ البحْـرِ
هـذا المخيَّـم في ذُرَا حلبٍ وثنـاؤه أبدًا علـى ظهْـرِ

وله من أُخرى :

كلَّفْتَ هِمَّتَك السُّمُوَّ فحلَّقتْ فكأنَّما هي دعـوةٌ في ظالـمِ

وله من أُخرى :

أخـو غـزواتٍ كالعُقُـودِ تناسقـتْ تحـلُّ بأجيـادِ الجيـادِ وتقعُـدُ
لسـانٌ بـذكْـرِ الله يكسـو نهـارَهُ بهاءً وجفنٌ في الدُّجَى ليس يرقُدُ
وبـذْلٌ وعـدْلٌ أغرقـا وتـألَّقـا فلا الوردُ مثمودٌ ولا الباب موصَدُ
مَـرامٌ سمـائـيٌّ وحـزْمٌ مُسَـدَّدٌ ورأْيٌ شهـابـيٌّ وعـزْمٌ مـؤيَّـدُ

وله فيه من قصيدة أُخْرى :

محمـودٌ المُـرْبـي علـى أسلافِـهِ أن زادَ في حَسَبِ الحَسِيبِ نِجارُ
ملـكٌ إذا تُـلِيـتْ مـآثـرُ قـومِـهِ كسـدَ اللّطيـمُ وهُجِّـنُ النُّـوّارُ
ملأَ الفِـرَنْجَ جَـورُ سَيْفِك فيهـمُ فلَهـمْ على سيفِ المحيطِ جُوارُ
عفَّى جهادُك كلَّ رسْمِ مَخُوفةٍ وعَفَتْ بصفْوةِ عدْلِك الأكْدارُ
ومحا المظالمَ منك نظرةُ راحمٍ للهِ فـي خَطَـراتِـهِ أسـرارُ
غضبـانُ للإسـلامِ مـالَ عمـودُهُ فلنُـورِهِ ممَّـا عَـراهُ نَـوارُ
لم يَبق ماكِسُ مسلمٍ سَلْقًا ولا سـاعٍ لمظلمـةٍ ولا عَشَّـارُ
هَمَدُوا كما همدتْ ثمودُ وقادَهُمْ لخَسَـارِهـم ممَّـا أتـوْهُ قـدارُ
العـارُ فـي الـدنيـا شَقُـوا بلباسِهِ ولباسُهمْ يـومَ الحسـابِ النَّـارُ
كـم سِيـرةٍ أحييتهـا عُمَـرِيَّـةٍ رُفِعـتْ لهـا فـي الخَـافقَيْنِ مَنَارُ

وَنَـوَافِـل صيَّـرْتَهُـنَّ لوازمًـا ... بـأقلِّهـا تُستعبَـدُ الأحـرارُ
أمَّا نهارُك فهو ليـلُ مجاهـدٍ ... واللَّيلُ من طُولِ القيامِ نهـارُ
فلذلـك النَّصْـرِ العـزيزِ أدلَّـةٌ ... كيف اتَّجهتَ وللفُتُوحِ أمَارُ

ولله درُّ العماد حين يقول في رثاء نور الدين :

الـدِّينُ في ظُلَمٍ لغيبـةِ نُـورِهِ ... والدَّهر في غُمَمٍ لفقْدِ أميـرِهِ
فَلْينـدُبِ الإسـلامُ حامـيَ أهْلِهِ ... والشـامُ حافـظَ مُلْكِـهِ وثُغُـورِهِ
ما أعظـمَ المقـدارَ في أخطارِهِ ... إذ كان هذا الخَطْبُ في مَقْدُورِهِ
ما أكثَـرَ المُتـأسِّفينَ لفقْـدِ مَـن ... قرَّتْ نواظِـرُهـم بفقْـدِ نظيرِهِ
ما أغْوَصَ الإنسـانَ في نِسيانِـهِ ... أوَ مَا كفاه الموتُ في تذكيـرِهِ
مَنْ للمساجدِ والمـدارسِ بانيًا ... لله طوْعًا عن خُلُـوصِ ضميـرِهِ
مَنْ ينصُرُ الإسـلامَ في غَزَواتِـهِ ... فلقـد أُصيـب بـرُكْنِهِ وظهيـرِهِ
مَنْ للفِرَنْجِ ومَن لأَسْرِ ملوكِها ... مَن للهُدَى يبغي فكـاكَ أسيـرِهِ
مَن للخُطُوبِ مُذلِّلا لجِماحِها ... مِـن للزمـانِ مسهِّـلًا لوُعُـورِهِ
مَن كاشِـفٌ للمُعْضِلاتِ برأيِـهِ ... مَن مُشرِقٌ في الدَّاجياتِ بنُورِه
مَنْ للكريمِ ومَنْ لنَعْشِ عِثارِهِ ... مَن لليتيمِ ومَنْ لجبْرِ كَسِيـرِهِ
مَن للبلادِ ومَن لنصْرِ جيوشِها ... من للجهاد ومَن لحفظِ أمورِهِ
من للفتوحِ مُحـاولًا أبكـارها ... بـرَواحِـهِ فـي غـزْوِهِ وبُكُـورِهِ
مَن للعُلا وعهودِها مَـن للنَّـدَى ... ووُفُودِهِ مَن للحِجَا ووُفُورِهِ
ما كنتُ أحْسَبُ نُورَ دِينِ محمدٍ ... يخبو وليلُ الشـرك في دَيْجُـورِهِ
أعـزِزْ عليَّ بَـلَيْثٍ غـابٍ للهُـدى ... يخلو الشَّرى مِن زَوْرِهِ وزئيـرِهِ
أعـزِزْ علـيَّ بـأن أراه مُغيَّبًـا ... عن مَحْفِلٍ متشـرِّفٍ بحُضُـورِهِ
لهفـي علـى تلـك الأنـاملِ إنَّهـا ... مُذ غُيِّبتْ غاضَ النَّدَى ببحـورِه
ولقد أتى مَنْ كنت تُجري رسْمَهُ ... فضَعِ العلامةَ منك في منشورِهِ

ولقد أتى من كنتَ تكشفُ كَرْبَه ... فارفعْ ظُلامَتَهُ بنَصْرِ عَشيرِهِ
ولقد أتى مَن كنت تُؤْمِنُ سِرْبَهُ ... وقِّعْ له بالأمْنِ من محذورِهِ
ولقد أتى مَن كنتَ تُؤْثِرُ قُربَه ... فأدِمْ له التَّقريبَ في تقديرِهِ
والجيشُ قد رَكِبَ الغداةَ لعرْضِهِ ... فاركبْ لتُبْصِرَهُ أوانَ عُبُورِهِ
أنتَ الذي أحييتَ شرعَ محمدٍ ... وقضيتَ بعد وفاتِهِ بنُشُورِهِ
كم قد أقمتَ من الشريعةِ مَعْلَمًا ... هو منذ غِبتَ مُعَرَّضٌ لدُثُورِهِ
كم قد أمرتَ بحفرِ خندقِ مَعْقِلٍ ... حتى سكنتَ اللَّحْدَ من محفورِهِ
كم قيصرٍ للرومِ رُمتَ بقَسْرِه ... إرواءَ بِيضِ الهندِ من تامورِهِ
أُوتيتَ فتْحَ حصونِهِ وملكتَ عُقْـ ... ـرَ بلادِهِ وسبيْتَ أهلَ قصورِهِ
أزهدتَ في دارِ الفناءِ وأهْلِها ... ورغبتَ في الخُلدِ المُقيمِ وحُورِهِ
أوَ مَا وعدتَ القُدسَ أنَّكَ مُنجزٌ ... ميعادَهُ في فتْحِهِ وظهورِهِ
فمتى تُجيرُ القدسَ من دَنَسِ العِدا ... وتقدِّسُ الرحمنَ في تطهيرِهِ
يا حامِلين سريرَهُ مهْلًا فمِنْ ... عَجَبٍ نُهوضُكُمُ بحمْلِ ثَبيرِهِ(١)
يا عابرين بنَعْشِهِ أَنَشِقْتُمُ ... من صالحِ الأعمالِ نَشْرَ عبيرِهِ
نزلتْ ملائكةُ السماءِ لدفْنِهِ ... مُستجمِعِين على شَفِيرِ حفيرِهِ
ومِن الجفاءِ له مقامي بَعْدَهُ ... هلَّا وفيتُ وسرتُ عندَ مسيرِهِ
حيَّاك معتلُّ الصَّبا بنسيمِهِ ... وسقاكَ مُنْهَلُّ الحَيَا بدُرُورِهِ
ولَبِستَ رضوانَ المهيمنِ ساحِبًا ... أذيالَ سُندُسِ خَزِّهِ وحريرِهِ
وسكنتَ عِلِّيِّين في فِرْدَوسِهِ ... حلفَ المسرَّةِ ظافرًا بأُجورِهِ(٢)

وفي عصرنا يا نور الدين :

قطيعٌ نحنُ والجَزَّارُ راعينا
ومنفِيُّون نمشي في أراضينا

---

(١) ثبير: جبل بمكة. وهي أربعة أثبرة ثبير غيناء، وثبير الأعرج، وثبير الأحذب،و ثبير حراء.
(٢) عيون الروضتين في أخبار الدولتين .

ونحملُ نَعْشَنا قَسْرًا بأيدينا
ونُعرِبُ عن تعازينا لنا فينـا
فـوالِينــا أدامَ اللهُ والِينـا
رآنا أُمَّةً وَسْطًا فما أبْقَى لنا دنيا
ولا أبقى لنا دينا
ولاةَ الأمْرِ ما خُنتم ولا هنتُمْ ولا أبْدَيْتُم اللِّينَا
ففي تهديدكم حِينا وفي تنديدكم حينا
سحقْتُم أنف أمريكا ولو نُقلتْ سفارَتُها
معاذَ الله لو نُقلتْ لضيَّعْنا فلسطينا
ولاةَ الأمر هذا النَّصرُ يكفيكم ويكفينا
تهانينا

* * *

بالأمسِ كان لهم وطنْ
واليوم صار لهم كَفَنْ
مَنْ باع شِبرًا من بلادي بِعتُهُ وبلا ثَمَنْ
يا سقطةَ الأبطال إن شاخَ البَدَنْ
يا ضيعةَ الفرسانِ إن وَهنَ الرَّسَنْ
كلّ المخازي والجرائِمِ باسمهم باسمِ الوطنْ
كلُّ الذي حاكُوهُ خلفَ ظُهُورِنا
اليوم يخرُجُ للعَلَنْ
واللّدّ يا أهلي عيونُ الوطنْ
والمَجْدلُ المذبوحُ قربانُ وطنْ
لا أنت مِن صُلبي
ولا من رَحِم أُمِّكَ
مَنْ إذَنْ ؟!

هل أنت في صدري دَرَنْ
هل أنت في عيني قَذًى
مَنْ باعَ شِبرًا من بلادي بِعتُه وبلا ثمَنْ
ولدي هنا في قلْبِهِ القرآنُ تمنعُهُ المساجدْ
ولدي يثور على التَّراجُعِ والتَّردِّي والمفاسدْ
أحجاره تهوي على الأعداء ترْجُم كلَّ قاعدْ
لم يَجْرِ خلفَ سَرَابِ أمريكا
حدودُ بلادِهِ زرعتْ سَوَاعِدْ
ولدي يُنادي هذه بيسانُ خالدْ
ولدي ومسجدُهُ القيادةُ والقواعدْ
يا عابدَ الحرميْنِ والأقصى به مليونُ عابِدْ
يا نازِلين إلى الحَضيضِ وشعبُنا للنَّجْمِ صاعِدْ
كُفُّوا فما أنتم بنيَّ ولا أنا لكُمُ بوالِدْ
والقدسُ تحميها النساءُ وعندكم خمسون قائدْ
والاحتفالاتُ هناك ودمْعتي للغدْرِ شاهِدْ
والأرضُ تنتظرُ البِذارَ فكنتمُ قَحْطَ الزَّمَنْ
بالأمسِ كان لهم وطنْ
واليوم صار لهم كَفَنْ
من باعَ شِبرًا من بلادي بِعتُه وبلا ثمنْ .

* * *

صلاح الدين الأيوبي سلطان يحمل جَبَلًا في فكره :

يا صلاحُ إذا العوالي تغنَّتْ ثم جالتْ ليوثُهُ الرِّقصاتُ
يا صلاحَ الإسلام حَييتَ ذُخرًا قد حباكَ التَّاريخُ مِنْهُ هِباتُ
يومُ حطِّينَ سوفَ يَبقى مُهابًا رُسمتْ في أديمِهِ البسَماتُ
أقبلوا والصّليبُ يكْسو صدورًا هِيَ أحقادُهم بها كائناتُ
فتحركَّتْ بالبُنُودِ عزيزًا ظن أنَّ الحصا أَتَتْهُمْ مشاةُ
والصليبُ الذي لهم حَمَلُوه دِيسَ تحتَ الأقدامِ فَهْوَ رُفاتُ
وتولّوْا الويلُ يُشعلُ فيهم « والفرار الفرار فيه النجاةُ »

تكلمنا عن صلاح الدين وجهاده في «علو همَّة القادة»، وسنفرد له فصلًا كاملًا في كتابنا « عَبَقُ النِّسْرين في ذِكْر المجددين » ... ونورد هنا ورقات :

بعض أعمال صلاح الدين :

١ - إرجاع مصر إلى السُّنَّة :

عزَل صلاح الدين قضاة مصر ؛ لأنهم كانوا شيعة ، وولّى رئيسًا للقضاة : عبد الملك بن درباس الشافعي ، كما قطع الأذان بـ (حي على خير العمل) ، وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر (٢٠٨) سنة ، وقد بشَّر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك ، وفرح الناس ، ونظم العماد الأصفهاني في هذه المناسبة :

توفِّي العاضدُ الدَّعيّ فما يفتح ذو بدعةٍ بمصرَ فَمَا
وعصرُ فرعونها انقضَى وغدا يُوسُفُها في الأمورِ مُحْتكِمَا
وصار شمْل الصّلاح ملتئمًا بها وعِقْدُ السّدادِ مُنتظمَا

٢ - توحيد بلاد الشام ومصر :

بعد وفاة نور الدين رحمه الله ، واضطراب بلاد الشام ، جاء صلاح الدين فاستلم دمشق ، ثم حمص وحماه ، وحاصر مدينة (حلب) ولكن المتنفذين فيها - الأوصياء على ابن نور الدين (إسماعيل) لصغر سنه - طلبوا المساعدة من الشعب ،

ويبدو أنَّ قسْمًا كبيرًا من هذا الشعب كان يَحنُّ إلى التشيُّع الذي أبطله نور الدين ، فاشترطوا للمساعدة العمل بأقوالهم وأفعالهم ، فاستجاب زعماء المدينة لهذا الشرط ، ولم يكتفوا بهذا فعندما رأوا قوة صلاح الدين واستمراره في الحصار طلبوا المساعدة من الحشاشين الإسماعيلية الذين اتخذوا من مدينة (بانياس) مقرًّا لهم . فحاول هؤلاء - على طريقتهم - اغتيال صلاح الدين ولكن الله نجّاه منهم ، وترك حصار حلب فترة ثم رجع لها مرة أخرى ، وحاول الحشاشون اغتياله للمرة الثانية ففشلوا وقتل من جاء منهم لهذه العملية والذين يسمونهم (الفداوية) ولم يكتف أهل حلب بذلك بل استعانوا بصاحب طرابلس الصليبي ، فلم يهتم به صلاح الدين وأرسل كتيبة تناوشه عند حمص . ومع ذلك فقد تراجع صلاح الدين عن حلب مؤْثرًا عدم الدخول في حرب طاحنة مع أهلها ، خاصة وأنهم طلبوا الصلح ، وشفعوا في ذلك بابنة نور الدين محمود ، ولكن نية السلطان لا تزال في توحيد بلاد الشام ومصر حتى تقوى على الوقوف في وجه العدو ، وأثناء هذا أراد قَطْعَ دابر الفساد وضَرْب (الحشاشين) فهاجمهم في عُقْر دارهم ، وقتل منهم وسبى،ولكن خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة شفع بهم فقبل السلطان شفاعته ، ولم يتمكن صلاح الدين من ضم حلب إلا بعد وفاة ابن نور الدين واختلاف أقاربه بعده فسلموها للسلطان ، وبذلك يكون قد اطمأن إلى القاعدة الأساسية الراسخة للصدام مع الصليبيين ، كما قال القاضي ابن شداد : « لما تحقّق صلاح الدين وفاة نور الدين وكوْن ولده طفلًا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقلّ بدفْع عدو الله عن البلاد ، تجهَّز للخروج إلى الشام إذ هو أصْل بلاد الإسلام » . ومع ذلك فلم يترك صلاح الدين الجهاد في هذه الفترة ، بل اصطدم مع الصليبيين في عدة معارك ، مثل (مرج عيون) وغيرها ، ولكنه لم يكن مطمئنًّا إلى الصدام الكامل مع الفرنجة .

قال ابنُ شدَّاد : وكان - رحمة الله عليه - حَسَنَ العقيدة ، كثيرَ الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر

الفقهاء ، وتفهَّم من ذلك ما يحتاج إلى تفهُّمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديْه يقول فيه قولًا حسنًا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كَدَر التَّشبيه ، غير مارقٍ سَهْمُ النَّظَر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جاريةٌ على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضيّة عند أكابر العلماء .

وكان - رحمه الله - قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري - رحمه الله - عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدّة حرْصه عليها يُعلِّمها الصغار من أولاده حتى ترسُخ في أذهانهم في الصِّغَر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرءونها من حفْظهم بين يديه ، رحمه الله .

وأما الصلاة :

فإنه - رحمه الله تعالى - كان شديدَ المواظبة عليها بالجماعة ، حتى إنه ذَكَر يومًا أن له سنين ما صلَّى إلا جماعة ، وكان إنْ مرِض يستدعي الإمام وحدَه ويُكلِّف نفسه القيام ويُصلِّي جماعة ، وكان يواظب على السُّنن الرواتب .

وكان له ركعات يصلِّيها إن استيقظ بوقت في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيتُه - قدَّس الله روحه - يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائمًا ، وما تَرَك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيَّب فيها ذهنُه ، وكان إذا أدركتْه الصلاة وهو سائرٌ ، نزل وصلّى .

وأمَّا الزكاة :

فإنه مات - رحمه الله تعالى - ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة .

وأما صدقة النفْل فإنها استنفدت جميعَ ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك ما ملك ومات ، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ناصرية ، وجرمًا واحدًا ذهبًا صوريا ، ولم يُخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ، ولا قريةً ، ولا مزرعةً ولا شيئًا من أنواع الأملاك ، رحمة الله عليه .

وكان - رحمه الله تعالى - يحبّ سماعَ القرآن العظيم ، حتى إنه كان يستَخْبِر إمامه ، ويشترط أن يكون عالمًا بعلوم القرآن العظيم ، متقنًا لحفظه .

وكان يستقرئ مَنْ يحضره في الليل - وهو في برجه - الجزأين والثلاثة والأربعة ، وهو يسمع .

وكان يستقرئ - في مجلسه العام - مَنْ جرتْ عادتُه بذلك : الآية والعشرين ، والزائد على ذلك .

ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءتَه ، فقرَّبه ، وجعل له حظًّا من خاصِّ طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءًا من مزرعةٍ .

وكان - رحمه الله تعالى - رقيق القلب ، خاشع الدمعة ، إذا سمع القرآن يخشع قلبهُ وتدمع عينُه في معظم أوقاته .

وكان - رحمه الله - شديدَ الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي روايةٍ عاليةٍ وسماعٍ كثيرٍ ؛ فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالًا له ، وإن كان ذلك الشيخُ ممن لا يطرق أبوابَ السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه . تردَّد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية - حرسها الله تعالى - وروى عنه أحاديث كثيرة .

وكان - رحمه الله تعالى - يحبّ أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضِرُني في خَلْوته ، ويُحضر شيئًا من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عِبرةٌ رقّ قلبُه ، ودمعتْ عينُه .

وكان - رحمة الله عليه - كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلًا ببعْث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مُصدِّقًا بجميع ما وردت به الشرائع ، منشرحًا بذلك صدرُه ، مبغضًا للفلاسفة والمعطِّلة والدهرية ومَن

يُعاند الشريعة ، ولقد أمر ولَدَه صاحبَ حلب الملكَ الظاهر - أعزَّ اللهُ أنصاره - بقَتْل شابٍّ نشأ،يقال له : السُّهْرَوَرْدِي ؛ قيل عنه أنه كان معانِدًا للشرائع مبطلًا ، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور ؛ لِمَا بلغه من خبره ، وعرَّف السلطانَ به ، فأمره بقتله ، وصلبه أيامًا ، فقتله .

وكان - قَدَّس الله روحه - حَسَنَ الظن بالله ، كثيرَ الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه : وذلك أن الفرنج - خذلهم الله - كانوا نازلين ببيت (نوبة) ، وهو موضعٌ قريب من القدس الشريف - حرسها الله تعالى - بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يَزَكًا على العدو محيطًا به ، وقد سيَّر إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القتال عليه واشتدَّ خوفُ المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرَّفهم ما قد دَهَم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمُجاملةٍ باطنُها غيرُ ظاهرها ، وأصرَّ الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مُخاطَرَةٌ بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو - رحمه الله - بطائفةٍ من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعَكَّا ، ويكون هو ومَن معه بصَدَد منْع مِيرتهم والتَّضييق عليهم ، ويكونون هم بصَدَد حفْظ البلد والدفْع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرٌّ على أن يقيم هو بنفسه ، عِلْمًا منه أنه إن لم يُقِم ، ما يُقيم أحدٌ ، فلمَّا انصرف الأمراء إلى بيوتهم ، جاء مِنْ عندهم مَنْ أخبر أنهم لا يُقيمون إلا أن يُقيم أخوه الملك العادل أو أحدُ أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارةٌ منهم إلى عَدَم الإقامة ، وضاق صدرُه ، وتقسَّم فِكْرُه ، واشتدَّتْ فِكْرته . ولقد جلستُ في خِدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أوّل الليل إلى أنْ قارَبَ الصُّبحَ ، وكان الزمانُ شتاءً ، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسِّم أقسامًا ، ونرتِّب على كل قسْم بمقتضاه ، حتى أخذني الإشفاقُ عليه والخوفُ على مزاجه ،

فإنه كان يَغلِب عليه اليُبْس ، فشفعتُ إليه حتى يأخذ مضجعه لعلَّه ينام ساعةً ، فقال - رحمه الله -: لعلّك جاءك النوم . ثم نهض . فما وصلتُ إلى بيتي ، وأخذتُ لبعض شأني ، إلا وأذَّن المؤذِّنُ ، وطلعَ الصُّبح ، وكنتُ أصلِّي معه الصُّبح في معظم الأوقات ، فدخلتُ عليه وهو يُمِرُّ الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلًا . فقلتُ : قد علمتُ . فقال : من أين ؟ فقلتُ : لأني ما نمتُ ، وما بقي وقْتٌ للنوم . ثم شُغلْنا بالصلاة ، وجلسْنا على ما كُنّا عليه ، فقلتُ له : قد وقع لي واقعٌ ، وأظنُّه مفيدًا إن شاء الله تعالى . فقال : وما هو ؟ فقلتُ له : الإخلاد إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد في كَشْف هذه الغمَّة عليه . فقال : وكيف نصنع ؟. فقلتُ : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلّي على العادة بالأقصى ، موضع مَسْرى النبي ﷺ ، ويقدِّم المولى التَّصدُّق بشيءٍ خُفْية على يد مَنْ يثق به ، ويصلِّي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : « إلهي ، قد انقطعت أسبابي الأرضيَّة في نُصرة دينك ، ولم يبقَ إلَّا الإخلادُ إليك ، والاعتصامُ بحبِّك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ، فإن الله تعالى أكرمُ من أن يخيِّب قصْدَك . ففعل ذلك كلَّه ، وصلَّيتُ إلى جانبه على العادة ، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيتُه ساجدًا ، ودموعه تتقاطَرُ على شَيْبته ، ثم على سجَّادته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقضِ ذلك اليوم حتى وصلتْ رقعةٌ من عز الدين جُرْديك - وكان على اليَزَك - يُخبر فيها أن الفرنج مُخْتَبِطون ، وقد ركب اليومَ عسكرُهم بأسْرِه إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظَّهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم . وفي بكرة السبت جاءت رقعةٌ ثانية ، تخبر عنهم بمثل ذلك . ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا ، فذهبتْ الفرنسيسية إلى أنَّه لا بد لهم من محاصرة القدس، وذهب «الانكتار» وأتباعُه إلى أنه لا يُخاطر بدين النصرانيَّة ويرميهم في هذا الجبل مع عَدَم المياه ؛ فإن السلطان كان قد أفسدَ جميعَ ما حول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا

للمشورة ، ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفُس منهم وحكَّموهم ، فأيّ شيءٍ أشاروا به لا يُخالفونهم .

ولمَّا كانت بُكرة الإثنين ، جاء المبشِّر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة .

فهذا ما شاهدته من آثار اسْتنابَتِهِ وإخلاده إلى الله تعالى .

ولقد كان - رحمه الله - عادلًا ، رؤوفًا رحيمًا ، ناصرًا للضعيف على القوي .

وكان يجلس للعدْل في كل يوم إثنين وخميس في مجلسٍ عامّ ، يحضره الفقهاء والقُضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصلَ كلُّ أحدٍ ؛ من كبير وصغير ، وعجوز هَرِمة ، وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سَفَرًا وحَضَرًا .

على أنه كان في جميع أزمانه قابلًا لجميع ما يُعرض عليه مِنَ القصص كاشفًا لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كلّ يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يردَّ قاصدًا للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعةً ، إمّا في الليل أو في النهار ، ويوقِّع على كلِّ قصَّة بما يُطلق الله على قلبه ، ولم يردَّ قاصدًا أبدًا ولا مُنتحِلًا ولا طالِبَ حاجةٍ ، وهو مع ذلك دائم الذكْر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه .

ولقد كان رؤوفًا بالرَّعيَّة ، ناصرًا للدِّين ، مُواظِبًا على تلاوة القرآن العزيز ، عالمًا بما فيه ، عاملًا به ، لا يعدوه أبدًا ، رحمة الله عليه ، وما استغاث إليه أحدٌ إلا وقف وسمع قضيَّته ، وكشفَ ظُلامَتَه ، وأخذَ بقصَّته ؛ ولقد رأيتُه وقد استغاث إليه إنسانٌ من أهل دمشق يُقال له : ابنُ زهير ، على تقيّ الدين - ابن أخيه - فأنفذَ إليه ليُحضره إلى مجلس الحُكم ، فما خلَّصه إلا أن أشهدَ عليه شاهديْن معروفيْن مقبولي القول، أنه وكَّل القاضيَ أبا القاسم أمين الدِّين -

قاضي حماه - في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه - رضي الله عنه - بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخَصْم ، فلمَّا ثبتت الوكالةُ ، أمرتُ أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه ؛ وكان من خواصِّ السلطان - رحمه الله - ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتَّجهت اليمينُ على تقيّ الدين ، وانقضى المجلس على ذلك ، وقَطَعَنا عن إحضاره دخولُ الليل ، وكان تقي الدين من أعزّ الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنّه لم يُحابِه في الحق .

وأعظم مِن هذه الحكاية ، ممَّا يدلّ على عدْله - رحمه الله - قضيَّة جرتْ له مع إنسانٍ تاجر يُدعى : « عمر الخلاطي » ، وذلك أني كنتُ يومًا في مجلس الحُكم بالقدس الشريف ، إذْ دخل عليَّ شيخٌ حَسَنٌ تاجرٌ معروف ، يسمَّى : « عمر الخلاطي » ، معه كتابٌ حُكمي يسأل فَتْحه ، فسألتُه : مَنْ خَصْمُك ؟. فقال : خصمي السلطان ، وهذا بساطُ الشَّرع ، وقد سمعنا أنك لا تُحابي . قلتُ : وفي أيّ قضيَّةٍ هو خَصمُك ؟ فقال : إن « سُنْقُر الخلاطي » كان مملوكي ، لم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموالٌ عظيمةٌ كلُّها لي ، ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مُطالبُه بها . فقلتُ له : يا شيخ ، وما أقعَدَك إلى هذه الغاية ؟ فقال : الحقوق لا تبطُل بالتأخُّر ، وهذا الكتاب الحُكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات . فأخذتُ الكتاب منه ، وتصفَّحتُ مضمونه ، فوجدتُه يتضمَّن حِلْيَةَ « سُنْقُر الخلاطي » ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، اليوم الفلاني ، من شهر كذا ، من سنة كذا ؛ وأنه لم يزل في ملْكه إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا ، وما عَرف شهودُ هذا الكتاب خروجَهُ عن ملكه بوجهٍ ما ، وتمَّ الشرطُ إلى آخره . فتعجَّبتُ مِن هذه القضيَّة ، وقلتُ للرجل : لا يَسَعني سماعُ الدعوى مع وجود الخَصْم ، وأنا أُعرِّفه وأُعرِّفُك ما عنده في ذلك . فرضي الرجلُ بذلك ، واندفَعَ ، فلمَّا اتَّفق المُثول بين يديه في بقيَّة ذلك اليوم عرَّفتُه القضيَّة ، فاستبعد ذلك استبعادًا عظيمًا ،

وقال : كنتَ نظرتَ في الكتاب ؟ فقلتُ : نظرتُ فيه ، ورأيتُه متَّصل الورود والقَبُول إلى دمشق، وقد كُتب عليه: كتاب حُكمي من دمشق، وشهدَ به على يد قاضي دمشق شهودٌ معروفون. فقال: مبارك، نُحضر الرجل ونحاكمه، ونعمل في القضيَّة ما يقتضيه الشّرع . ثم اتَّفق بعد ذلك جلوسه معي خَلْوةً ، فقلتُ له : هذا الخصم يتردَّد ، ولا بد أن نسمع دعواه . فقال : أقم عني وكيلًا يسمع الدعوى ، ثم يُقيم الشهودُ شهادتهم ، وأخِّر فتْح الكتاب إلى حينِ حضور الرجل ها هنا . ففعلتُ ذلك ، ثم أُحضِر الرجل ، واستَدْناهُ حتى جلس بين يديه ، وكنتُ إلى جانبه ، ثم نزل من طراحَتِه حتى ساواه ، وقال : إن كان لك دعوى فاذكُرها . فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أوّلًا ، فأجابه السلطان : إن « سُنْقُر » هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى أعتقتُه ، وتوفِّي وخلَّف ما خلَّف لورثته . فقال الرجل : لي بيِّنةٌ تشهد بما ادَّعيتُه . ثم سأل فتْح كتابه ، ففتحتُه ، فوجدته كما شرحه ، فلمّا سمع السلطان التاريخ ، قال : عندي من يشهد أن « سُنْقُر » هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريتُه مع ثمانية أنفُس في تاريخ متقدِّمٍ على هذا التاريخ بسنةٍ ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقتُه . ثم استحضر جماعةً من أعيان الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذَكَر القصَّةَ كما ذكَرها ، والتاريخ كما ادَّعاه ، فأُبْلَسَ الرجلُ ، فقلتُ له : يا مولاي ، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبًا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ، ولا يَحْسُن أن يَرجع خائبًا للقصد . فقال : هذا بابٌ آخر . وتقدَّم له بخلعة ونفقة بالغة ، قد شذ عني مقدارها .

فانظر إلى ما في طَيّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، والتواضُع ، والانقياد إلى الحقّ ، وإرغام النفس ، والكرم في موضع المؤاخذة ، مع القُدرة التّامَّة ، رحمه الله رحمة واسعة .

وكرمُه - قدَّس الله روحه - كان أظهر من أن يُسطَر ، وأشهر من أنْ يُذْكر ،

لكن نُنَبِّه عليه جملةً ، وذلك أنه ملكَ ما ملكَ ومات ، ولم يُوجَد في خزانته من الفضة إلَّا سبعة وأربعون درهَما ناصريَّة ، ومن الذهب إلا جرْمٌ واحدٌصوريّ ، ما علمتُ وزنه .

وكان - رحمه الله - يَهَب الأقاليم ؛ وفتح « آمد » ، وطلبها منه ابنُ قرَّة أرسلان ، فأعطاه إياه .

ورأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التَّوجُّه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يُعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معفاهم حتى باع قريةً من بيت المال ، وفَضَضْنا ثمنها عليهم ، ولم يفضُل منه درهم واحد .

وكان - رحمه الله - يعطي في وقْت الضِّيق كما يعطي في حال السَّعة ، وكان نُوّاب خزائنه يُخفون عنه شيئًا من المال ؛ حذرًا أن يُفاجئهم مُهِمٌّ ، لعِلْمهم بأنه متى علمَ به أخرجَهُ .

وسمعتُه يقول في معرض حديثٍ جرى : يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب . فكأنه أراد بذلك نَفْسَه ، رحمه الله تعالى .

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطالبُ ، فما سمعتُه قطُّ يقول : أعطينا لفلان ، وكان يعطي الكثير ، ويبسُط وجهه للمعْطَى بسْطَه لمن لم يُعْطِه شيئًا .

وكان - رحمه الله - يعطي ، ويُكرم أكثر مما يعطي ، وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، وما سمعتُه قط يقول : قد زدتُ مرارًا ، فكم أزيد ؟ .

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي ، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم ، لعلمي بعَدَم مؤاخذته في ذلك ، وما خدمه قطُّ أحدٌ إلّا وأغناه عن سؤال غيره .

وأمّا تعداد عطاياه وتعداد صنوفها، فلا تطمع فيها حقيقة أصلًا ، وقد سمعتُ من صاحب ديوانه يقول لي : قد تجارينا عطاياه ، فحصرْنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكّا لا غير ، فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد عطاياه يستقلُّ هذا القدْر .

اللهم إنك ألهمْته الكرم ، وأنت أكرم منه ، فتكرَّمْ عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

هذا صلاح .... وأمّا غير صلاح ؛ ففي عصر ملوك الطوائف وعلى مساحة ثلاثين فرسخًا ، يتنازع الملك أربعة كلٌّ منهم يسمِّي نفسه أمير المؤمنين . بل وربما تصل شهوة الحكم أن ينادي ملك : بايعوني على الملك . فيقول له الناس نخشى عليك القتل . فيقول : بايعوني اليوم ، واقتلوني غدًا .

بل وفي بداية عصر السلاجقة وفي الشام ، يحاول ملك إحدى المدن الشاميّة أنْ يُبطل بِدع الشيعة في الأذان بـ (حيّ على خير العمل) ... فيثور الغوغاء والدهماء حتى يشدُّوا الحُصْر من تحت أرْجُل المصلِّين ، ويقولون : هذه حُصْر علي بن أبي طالب ، فإذا أراد أبو بكر المسجد فليأتِ له بحُصْر .

وفي عصرنا ... أشباه الرجال ولا رجال .

المُعْلنون مِنَ القصور قصورَهمْ والّلاقِطونَ لقيطةَ اللُّقَطاءِ
والتّاركونَ هزيمةً لم يعترف أحدٌ بها من كثرةِ الآباءِ

عبدُ الرحمَنْ الدَّاخِل (صَقْر قريش) :

تمضي السنون ، آحادها وعشراتها ومئاتها ، وحتى ألْفهُا ، ولا زال صقر قريش ملء سمْع الدنيا وبصرها ؛ فهو واحد من أعظم الرجال في السياسة والحرب ، وهو مؤسِّس الدولة الأموية في الأندلس ، التي بقيت زمنًا طويلًا رمزًا للحضارة العربية الإسلامية .

وقضية عبد الرحمن الداخل هي قضية العصر وكل عصر ، قضية الاعتماد على القدرة الذاتية التي وفّرها الإسلام للمسلمين ، ومن هنا فإن سيرة صقر قريش تكتسب أهميتها ، وتكتسب قيمتها .. لا في مجال الحرب فقط ، وإنما في مجال السياسة الاستراتيجية ، وفي مجال بناء الدولة .

فقد خرج يمضي والخوف يطارده من الرايات السوداء التي داهمت قريته ، وخطرُ القتل يلاحقه .. حتى يرمي بنفسه إلى الفرات سباحةً ، وهو يرى رأس أخيه ابن الثلاث عشرة سنة وقد قطعوها ، وبعد قطعه للفرات سباحةً . ومضىٰ وهو يحسب أنه طائر وهو ساعٍ على قدميْه ، فيلجأ إلى غيضة أشبة فتوارى فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرج يؤمُّ المغرب ، ولم يكدْ يتجاوز العشرين من عمره ، ليس لديه من المال إلا القليل ، وليس لديه من الأنصار إلا النذْر اليسير ، ولكن كانت له همّة عالية وتصميم كبير وإرادة صلْبة ، سهّلت له العسير وقرّبت إليه ما كان صعبَ المنال ، فبقي رجلَ الدنيا وواحدها في علم السياسة وفنّ الحرب ، وأقام دولةً ستبقى حديثَ الزمان .

قال ابن حَيَّان : « كان الإمام عبد الرحمٰن الداخل كثيرَ الحزْم نافذَ العزْم ، لم ترفع له راية على عدوٍّ قطُّ إلا هزمه ، ولا بلدٍ إلا فتحه . شجاعًا مقدامًا ، شديدَ الحذَر ، قليل الطمأنينة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ، ولا يكلُ الأمر إلى غيره ، يعود المرضىٰ ويشهد الجنائز ، ويصلّي بالناس في الجُمعَ والأعياد ، ويخطب بنفسه . جنّد الأجناد ، وعقد الرايات ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس » .

فجابَ قفْرًا وشقّ بحرًا ... مساميًا لُجّةً ومحلّا
دبّر مُلْكًا وشاد عزًّا ... ومِنْبرًا للخطاب فصْلَا
وجنّد الجند حين أودى ... ومصّر المصر حينَ أجلىٰ

رحم الله صقر قريش ؛ فقد كان لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ،

ولا يكِلُ الأمور إلى غيره ، شجاعًا مقدامًا ، بعيد الغَوْر .

قال الداخل :

لا يلفَ ممتنٌّ علينا قائلٌ   لولايَ ما ملَكَ الأنامَ الداخلُ
سعدي وحزمي والمهنّدُ والقَنَا   ومقادرٌ بلغتْ وحالٌ حائلُ
إنَّ الملوكَ مع الزمانِ كواكبٌ   نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفلُ
والحزمُ كلُّ الحزم أنْ لا يغفلُوا   أيرومُ تدبيرَ البريةِ غافلُ
ويقول قومٌ سَعدُه لا عَقلُهُ   خيرُ السعادةِ ما حماها العاقلُ

ألفى الداخلُ الأندلس ثغرًا قاصيًا، غفْلًا من حلية المُلْك، عاطلًا، فأرهف أهلَها بالطاعة السلطانية ، وحنّكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءةَ ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدوَّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأُعطية ، وعقد الألوية ، وجنّد الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدّته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحامَوْا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقلّ له الأمر فيها .

لقد عانىٰ الداخل من ثورات كثيرة ، أخمدها ووطَّد الأمن والاستقرار في مملكته ؛ فلقد قضىٰ على ثورتي يوسف الفِهْري والصميل ، وقضى على ثورة العلاء بن المغيث اليحصبي ، وأرسل رؤوس قادة الثورة إلى القيروان ومكة المكرمة في موسم حجّ أبي جعفر المنصور ، وقضى على ثورة هشام ابن عروة في طُليطلة ، وقضى على ثورة سعيد اليحصبي ، وقضى على ثورة البربر في شنت برية ، وثورة سفين بن عبد الواحد البربري ، وثورة أشبيليَّة بقيادة عبد الغافر اليحصبي ، وثورة سرقسطة بقيادة الحسن بن يحيى الخزرجي ، وثورة الرمامس بجنوب الأندلس .

« قال أبو جعفر المنصور يومًا لأصحابه : مَن صقر قريش ؟ قالوا : أمير

المؤمنين الذي راضَ المُلْك وسكّن الزلازل ، وحسم الأدواء . قال : ما صنعتم شيئًا . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك من مروان . قال : لا . قالوا : فمَن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية ، الذي تخلّص بكَيْده عن سنن الأسنَّة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلدًا أعجميًّا ، فمصّر الأمصار وجند الأجناد ، وأقام ملكًا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدَّة عزمه . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذلّلا له صعبَه ، وعبد الملك ببيعة تقدَّمت له ، وأمير المؤمنين بطلب عِترتهِ واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفردًا بنفسه ، مؤيَّدًا برأيه مستصحبًا لعزمه »[1][2] .

أترىٰ الصقرَ للمعاليَ يسعىٰ أتُرى في تُرب لحْدِهِ غلّاتُ
دولة الداخل المبارك صقرٌ أمويٌّ تخاف منه العُتاةُ
أسعفَ الغربَ بالحضارةِ حتى أصبحت منه عندهم مِنَّاتُ
أيُّها الغربُ فاذكروه وقولُوا يهبُ الطلعَ دوْحُه الطيباتُ
فأيادٍ خُضرٌ لكم منه تترىٰ فاذكروها فإنها نفحاتُ

هِشام بن عبد الرحمن الداخل شَبيهُ عمر بن عبد العزيز في سيرته :

حكم الأندلس بعد أبيه ثمانية أعوام ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر ابن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُور « النواحي » ، فيسألون الناس عن سير عمّاله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيْفٌ من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

وفي أيامه فُتحت أربونة (ناربون) الشهيرة ، واشترط على المعاهدين من أهل « جيليقية » ، من صِعاب شروطه : انتقال عدد من أعمال التراب من

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥ / ١٨٢ .

(٢) عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » . لبسام العسيلي – طبع: دار النفائس .

سور « أربونة » المفتتحة ، يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، وبنى منه المسجد الذي قُدّام باب الجنان .

وقصد - رحمه الله - إلى بلاد الشرْك غازيًا ؛ فغزا «ألبة» وظفر بعدوّه ، وبعث العساكر إلى « جيليقية » فهزموا ملكها « برمند » وأثخنوا في الأعداء . وبعدها بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد لغزاة العدو، فأثخن في العدو في «ألبة» « وأربونة » و « جرَندة » ، ووطئ أرض « برطانية »، وتوغّل في أرض الصليبيين حتى وصل إلى « أسترقة » .

عبدُ الرحمٰنِ بنُ الحكَم وحكْمُه للأندلس (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) :

كان من أكبر الوقعات المعروفة في عهده وقعةُ « البيضاء » سنة ٢٣٧ هـ ، وفيها قاد موسى بن موسى جيش الصائفة حتى وصل إلى بلدة « البيضاء » ، وهناك اصطدم بجيش كبير من « غاسكونيا » أو « الجاشغبين » ، كما يسمِّيهم الغرب ، ودارت معركة صعبة ، لقي المسلمون فيها عناءً كبيرًا ، وبذلوا جهدًا رائعًا ، حتى أمكن لهم الصمود ، وأُصيب موسى نفسُه بخمسة وثلاثين جرحًا ، وفي اليوم التالي ، وعلى الرغم مما نزل بجيش المسلمين وقائدهم ، أعاد تنظيم جيشه ، وتحامل على نفسه ، وانطلق بهجوم كاسح ، واستطاع به أن يُحرز النصر ، وهُزِم جيش الغاسكون هزيمة منكرة ، وتكبَّد فادحَ الخسائر حتى فُرشت الأرض بصرْعاهم .

ومن أعظم أعمال عبد الرحمن بن الحكم : قضاؤه على ثورة النصارى بـ « ماردة » وتدمير المدينة الثائرة التي ظلت ثورتها سبع سنوات كاملة ، من سنة ٢١٣ هـ حتى ٢٢٠ هـ ، بعد أن حرَّضهم على الثورة والتمرُّد « لويس الحليم » ملك فرنسا ، وقام أهل ماردة بذبح المسلمين ، فقاد عبد الرحمٰن جيشًا كبيرًا بنفسه ، وشدّد قبضته ، وأشفى أهلَ ماردة على العطْب ، ونظر الأمير عبد الرحمن إلى جنده وقد تعلّقوا بشرفات السور وَتغلَّبوا عليه ، وضعف أهلُ ماردة عن

مدافعتهم ، فسمع صراخ النساء وعويل الصبيان وعجيج البكاء ، فأمر بالإمساك عنهم ، وأوقف الجند عن الاستمرار في قتالهم ، ثم دعا وزراءه وقوّاده وقال لهم : « قد علمنا ما كان من تغلُّب رجالنا على هؤلاء الظلَمَة أنفسهم ، ولم يكن رفعنا ما رفعْناه عنهم إلَّا قربىٰ لله عز وجل فيهم ، ورأفةً من قتل أولادهم وأطفالهم ومَنْ لا ذنب لهم ، ممّن استكره على نفسه منهم . ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عوّدنا الله وعرَّفنا من الصفحِ والعفو ، وقد عزمتُ على الانتقال عنهم ، فإن أبصروا قدْر يدنا في الإبقاء عليهم ومراقبة اللهِ فيهم ، وإلا كان الله من ورائهم محيطًا ، وعلى الانتقام منهم قديرًا ، فهو الذي أيَّدنا وقهرهم ، ونَصَرَنا وكَبَتَهُم » . فلم ينتقل من موضعه حتى وافته رسلهم بطاعتهم ، والإلقاء إليه بأيديهم ، وإخراج أصحاب الفتنة من بينهم .

وأخمد أيضًا فتنةَ وثورة النصارى في قرطبة بعد إعدام القسيس « هارفكتس » الذي نال من قدْر رسول الله ﷺ .

محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام ، صاحب موقعة « سليط » :

قال الذهبي في السير (١٣/١٧١ - ١٧٢) : « من خيار ملوك المروانية ، كان ذا فضلٍ وديانة ، وعلْمٍ وفصاحةٍ ، وإقدام وشجاعة ، وعقل وسياسة .

بُويع بعد أبيه في سنة ثمان وثلاثين ومائتين على مدائن الأندلس ، وكان كثير الغزو والتوغُّل في بلاد الروم ، يبقىٰ في الغزوة السنة والسنتين ، قتْلًا وسبْيًا .

قال الحافظ بقي بن مخْلد : ما رأيتُ ولا علمتُ أحدًا من الملوك أبلغ لفظًا من الأمير محمد بن عبد الرحمن ، ولا أفصح ولا أعقل منه .

قال سبط الجوزي : هو صاحب موقعة سليط ، وهي ملحمة عُظمى . يقال : إنه قُتل فيها ثلاثمائة ألف كافر ، وهذا شيء ما سُمِع بمثله قطُّ » .

جاء في البيان المغرب (٢/١٦٨ - ١٦٩) ، حول وقعة وادي سليط :

« قال أبو عمر السالمي : كانت أولى غزواته إلى بلد العدو ، وحشد لها ، وجنّد ، وصوّب كيف شاء ، وقد ألفى العدوَّ وقد ضاق بخيله الفضاء الواسع ، والمكان الداني والشاسع ، وهو متأهِّب للقائه ، متوجّه إلى تلقائه ، فخامر الأمير محمد الجزَع ، وشابه الروع والفزع ، وظن أن لا مَنْجاة من الكفار ، وأن المسلمين هناك طعمُ الشفار ، فرأى من الحزم الأوكد ، والنظر الأحمد الأرشد ؛ الرجوعَ عن تلك الحركة ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، فقام رجل ، فقال : أيُّها الأمير ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **الذينَ قالَ لهُمُ الناسُ إنّ الناسَ قدْ جمعُوا لكم** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٣] فقال له الأمير محمد : والله ما حذَّرتُ نفسي ، إلا أنه لا رأي لمن لا يُطاع ، ولستُ أستطيع أن أجاهد وحدي . فقال له العتبي : والله ما أراه قذف بها على لسانه إلا ملَك ، فاستخرِ اللهَ في ليلك هذا وفي يومك ، فأراه الله في مقابلة العدو الرشاد ، والهمة والتوفيق والسداد ، فندب الناسَ إلى لقاء أعداء الله ونصْر دينه ، وأن يكون كلٌّ على أحسن ظنِّه من الظَّفر ويقينه . فلمّا انعقدت راياتُهم ، وتأكَّدت على المقارعة نيّاتُهم ، قدَّم عليهم الأمير محمد ابنَه المنذر ؛ إذْ كان مشهورًا بالبأس ، محبوبًا في الناس ، فسار المسلمون إلى أن التقىٰ الجمعانِ ، والتفَّ الفريقان ، فأعقب الله لأوليائه ظفرًا ونصْرًا ، وجعل بعد عسرٍ يُسرًا » .

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ونصرُه على تحالف النصارى في وادي سُليط :

وفيها تحالف ملك جيليقية وملك قشتالة وملك البشكنس على المسلمين ، فلقيهم الأمير محمد علىٰ وادي سُليط ، وقد أكمن لهم فأوقع بهم ، وبلغت عدّة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفًا . وفي عهده عادت ماردة إلى التمُّرد ، فتمَّ تدميرها .

ويلٌ لماردةَ التي مَرَدَتْ ... وتكبَّرتْ عند عدْوة النهرِ

فالويلُ ثم الويحُ حين غزَا بجميعهم مِن صاحب الأمِر

ولمّا عاد النصارى في قرطبة إلى التمرد ثمَّ قمع ثورتهم ، ونفذ حكم الإعدام في القِسِّ « إيلوج » ، وكذا صاحبته ومعاونته « ليوكريسيا » .

عزّ الإسلام بالأندلس :

لقد وضع عبد الرحمن الداخل أساسَ مُلْك بني أُمية بالأندلس ، وجاء ملوك بني أُمية تباعًا وهم يزيدون من رفعة البنيان سموًّا وشموخًا :

عبد الرحمن الناصر :

بلغتِ الدولة الأموية في عصره غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنته الروم ، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبقَ أمة سمعتْ به من ملوك الروم والإفرنج والمجوس وسائر الأمم إلا وفدتْ إليه خاضعةً راغبةً . ومن جملتهم « قسطنطين » صاحب القسطنطينية العظمى .

خمسون عامًا قضاها الناصر في الحكم في جهاد دائم ، لم يعرف خلالها مِن أيام الهناء إلّا قليلًا ، ولم يركن إلى الراحة أثناءها إلا نذْرًا يسيرًا ، اضطلع بأعباء المسئولية وهو شابٌّ قويّ المنكبين، لا يزيد في عمره على العشرين إلا قليلًا، وترك هموم الدنيا للدنيا وهو شيخ وهَن العظم منه واشتعل الرأسُ شيبًا . ولكن كم كان الفارق كبيرًا بين ما كانت عليه أندلس المسلمين يوم تولّاها الناصر ، وبين ما أصبحت عليه يوم سلّم الأمانة لابنه الحكَم المستنصر ، حتى يتابع السير بأندلس المسلمين على النهج الذي سار . كانت الأندلس تضطرم نارًا ، والفتن في كل مكان ، وأعداء الخارج يتربّصون بأعداء الداخل ، وهؤلاء يتربّصون بعضهم ببعض ، قد شغلتهم صغائر الأمور عن كبائرها ، وصرفتْهم الدَّعَة والسكون عن التفكير بعظائمها ، فجاء الخليفة الناصر لدين الله ، يحمل همَّ الشباب وحكمة الشيوخ .

ولئن كان ذكر الأندلس يرتبط بأسماء القادة من روّاد الفتح الأوائل ، أمثال

موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الغافقي والسمح بن مالك وعنبسة ابن سحيم ، ولئن كان تجديد الفتح يرتبط باسم صقر قريش ؛ فإن مجد الإسلام والمسلمين سيبقى أبدًا شديد الالتصاق بالخليفة الناصر ؛ فقد كان رجلًا في أُمة ، وأُمة في رجل .

الناصر يؤدِّب مَلِكَي « ليون » و « نافار » في غزوة « موبش » :

لمّا استوى ملك ليون « أردونيو الثاني » على مدينة « ماردة » وبعض القلاع الإسلامية ، أباد الحامية المدافعة عنها ، وسبى الأطفال والنساء ، وجعل القرى ركامًا من الدماء ، ولم يغادر إقليم « طلبيرة » إلا بعد أن ترك المدن وهي حرائق مشتعلة . وكذا فعَل « سانشو » ملك « نافار » لمّا استولى على مدينة «بلتيرة » ، وأحرق مساجدها ، وأذلَّ أهلها قتلًا وسبيًا . وبلغ من جرأة « أردونيو » توعُّده للناصر في رسائل بعثها إليه بإجلائه عن الأندلس بمواعيد وعدها من نفسه ، وتحالف الملكان على الناصر ، فتقدّم الخليفة الناصر بنفسه على رأس جيشه ، ودارت رحى معركة كبيرة انتهت بهزيمة ليون ونافار ، فهربوا لا يَلْوُون على مكانِ مُضْطَرِبِهِمْ ، ولا يهتدون لوجه منقلبهم ، والمسلمون على آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم . ولمّا هرب إلى حصن « موبش » ما يزيد على ألف مقاتل ، دفع الناصر بالمجانيق إلى الحصن حتى فتحه ، وأخرج مقاتلي النصارى من صياصيهم ، وقدموا إلى الناصر حيث قُتلوا جميعًا ، وغَنم المسلمون ما في الحصن . ودمّر الناصر قلعة « بقيرة » وأحرق ما يحيط بها من معاقل المشركين ، حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أميال في مثلها .

غزو « بنبلونة » عاصمة نافار :

تولّى الناصر قيادة جيشه لتأديب ملك نافار « شانجة » ، وقاد حملات وغزوات استمرت أربعة أشهر ، وجمع العِلْج شانجة كفرته ، واستمدَّ بنصرانيته من كلّ مكان طمع أنْ يُغاث منه . وفي تقدُّمهم في بلاد نافار سبى المسلمون

الذراري وغنموا الأمتعة ، وهدَموا الحصون ، حتى لم يبق منها صخرة قائمة ، واقتلع المسلمون أعداءهم من مواضعهم ، ووضعوا سيوفهم ورماحهم فيهم ، وبُسطت الأرض بأجساد المشركين ، واستمرت الخيل المغيرة في بسيطهم ، فأصابت الغنائم والسوائم وضروب النعم وواصل المسلمون تقدمهم وفي لحظة طرف في صخرة قيس اقتلع المسلمون جيش نافار ، وأخربت الكنيسة التي أنفق عليها ملك نافار الأموال الكثيرة ، وأحرق المسلمون قلاع الكفرة وحصونهم . ومرة ثانية يصل إلى عاصمة نافار- بعد موت ملكها، وأصْبحت «طوطة» وصيّةً على العرش - ويدمِّر في طريقه إليها كلّ الحصون ، ويُبيد كل الحاميات المدافعة عنها ، واستسلمت طوطة للخليفة الناصر ، وتقدَّمت إليه بطلب الخضوع والطاعة ، فقبل الناصر طلبها .

لله درُّ الناصر مِن خليفةٍ أذلَّ ملوك النصارى في شمال الأندلس !! لقد احتمل الناصر المشاقّ والصعوبات في سبيل الله من أجل رفع راية الإسلام ، وتعجز الكلمات عن وصف غزواته ، ويكفي أن نعرف أن فترة غزوة من غزواته كانت تتراوح مدّتها بين ثلاثة أشهر وأربعة أشهر .

استلم رحمه الله الحكم وخزانة بني أُمية تكاد تكون فارغة ، وترك الدنيا وخزانة المسلمين عامرة بمبلغ خمسة آلاف ألف ألف ألف - ثلاثَ مرات - من الدنانير[١] .

المستنصِرُ (الحكَم بن عبد الرحمٰن الناصر) على درْب أبيه :

وفي عهده زادت دولة بني أُمية عزًّا على عزتها ، وسَمَت رفعة على رفعتها ، وتعاظمت بقوتها حتى ازدهت على الدنيا ، وتابع الحكَم سيرة أبيه في بذل المستطاع وأكثر من المستطاع ، من أجل زيادة قوة الدولة ورفعتها . عظمت

---

(١) عبد الرحمن الناصر لبسَّامَ العسيلي - طبع دار النفائس .

الدولة بالأندلس ، فكبرت همم الرجال .

كانت للناصر في جهاد النصارى اليدُ البيضاء ؛ فقد غزا جيليقيّة وملكها أردون بن أذفونش ، فاستنجد بالبشكنس والفرنج فهزمهم الناصر ، ووطئ بلادهم ، ودوّخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم .

وعندما توفي الناصر ، طمع الجلالقة في الثغور فغزا المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد فردينـاند ، فنازل شنت أشتيبين وفتحها عَنوة ، واستباحها وقفـل ، فبادروا إلى عقد الصلح معه ، وعظمت فتوح الحكَم وقوّاد الثغور من كل ناحية ، وكان من أعظمها فتْح « قلهرة » من بلاد البشكنس ، ثم فتْح « قطريبة » .

لله درُّ المستنصر :

يأتي إليه أردون بن أذفونش ملك الجلالقة ، ومعه وجوه أهل الذمة بالأندلس وقاضي النصاري وليد بن خيزران ، وعبيد الله بن قاسم مُطران طليطلة وغيرهم ، لما عرف أن المستنصر سيغزوه من عامِه هذا ، « فلما قابل سرير الخليفة خرَّ ساجدًا سُويعة ، ثم استوى قائمًا ، ثم نهض خطوات وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مرارًا ، إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، وأهوىٰ إلى يده ، فناوله إياها وكـرَّ راكعًا مقهقرًا على عقبه ، والبهر قد علَاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم .

مرة أخرى يقبِّل الملك أردون البساط ، ويقول للخليفة : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورِّك على فضله ، القاصد إلى مجده، المحكَّم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته ، رجوتُ أن أتقدّم فيه بنيّة صادقة ونصيحة خالصة.فأجـابه الخليفة في عزّ المسلم : يترادف من إحساننا إليـك أضعاف ما كان من أبينا رضي الله عنه إلى نِدِّك . فكرّر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ،

وقام للانصراف مقهقرًا لا يُولّي الخليفة ظهره ؛ وقد علاه البهر وأذهله ؛ من هوْل ما باشره وجلالة ما عاينه من بهاء عزّة الخليفة ، وتكنَّفه الفتيان فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليًا منه ، انحط ساجدًا إعظامًا له ، ولما بصر بالحاجب جعفر قام إليه وخنع له ، وأوْمأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، ووعده من إنجاز عداتِ الخليفة له بما ضاعف سروره » .

واستشعر الناس من مسرّة هذا اليوم وعزَّة الإسلام فيه ، ما أفاضوا في التبجُّح به والتحدُّث عنه أيامًا ، وقال عبد الملك بن سعيد المرادي :

مُلْكُ الخليفةِ آيةُ الإقبالِ ... وسعودُه موصولةٌ بتوالي
والمسلمونَ بعزَّةٍ وبرِفْعةٍ ... والمشركون بذلّةٍ وسفالِ
ألقتْ بأيديها الأعاجمُ نحوَهُ ... متوقّعين لصوْلةِ الرئبالِ
هو حشر يوم الناسِ إلّا أنهم ... لم يُسألُوا فيه عن الأعمالِ
أضحى الفضاءُ مُفعَّمًا بجيوشهِ ... والأفْقُ أقتمَ أغبرِ السربالِ
لا يهتدي الساري لليلِ قتامِهِ ... إلّا بضوْءِ صوارمٍ وعوالي
وكأنَّما العقبانُ عقبانُ الفلَا ... منقضّةٌ لِتَخَطُّفِ الضُّلالِ

الحاجِب المنصور ... يجمع غُبارَ معارِكه ليكونَ في حَنُوطه :

هو محمد بن أبي عامر المعافري الحاجب المنصور ، نسيجٌ فريد بين الرجال ، تولَّى الحكم في أصعب الفترات في حياة الأندلس الإسلامية .. ومَمَالكُ النصارى في الشمال قد أخذت في توجيه جهدها لحرب المسلمين ، مِن قبل أن تعلن الحرب الصليبية بصورة رسمية ... فتصدّى المنصور لرفع راية الجهاد في سبيل الله ، وقاد الحرب طَوالَ حياته ، فأحرز من الانتصارات ما لم يحصل عليه رجل من قبل ومن بعد ، فترك بذلك مجدًا خالدًا بقي متألِّقًا على مرِّ الأيام ومفخرة لجند الإسلام .

جـاء في كتاب « تاريخ الحروب الصليبية » : « تُوفِّي الحكـم الأموي سنـة ٩٧٢ م، وسيطر على الموقف من بعده الوزير محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، وهو الذي كان يميل إلى القتال والجهاد ، وكانت مملكة « ليون » أهمَّ مملكة مسيحيـة في أسبانيا ، وقد تعرضت لهجمات المنصور ؛ ففي سنـة ٩٨١ م : استـولى المنصور على « زامورا » بجنوب مملكة ليون ، وفي سنـة ٩٩٦ م : نهب ليون ذاتهـا ، وفي السنة التالية أشعل الحرائق في « شنـت يعقـوب » في « كومبوستيللا » التي تُعتبر ثالثَ المواضع التي يقصدها الحجَّاج بعد بيت المقدس وروما ، وفي سنة ٩٨٦ م : استولى المنصور على برشلونه ، وتراءى له أنه لن يلبث أن يعبر جبال « ألبيرنيه » – البرانس – حين وافته منيّته سنة ١٠٠٢ م ، وأخذت قوة المسلمين في التداعي بعد وفاة المنصور »[١] .

وفي « البيان المُغرب »: « انفرد المنصور بنفسه ، وصار ينادي صروفَ الدهر : هل من مبارز ؟فلم يجده، واستقام أمرُه منفردًا بمملكةٍ لا سلَفَ له فيها ، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكبْ قطُّ في حرب شهدها ، وما توجَّهت عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلّا قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومَارسَ من الأعداء، وواجه من الأمم ، وإنها لَخاصَّةٌ ما أحسب أحدًا من الملـوك الإسلامية شاركه فيها . ومن أعظم ما أُعين به مع قوَّة سعده وتمكُّن جدّه : سَعةُ جوده وكثرة بذْلِه ؛ فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان ، وأول من اتكأ على أرائك الملوك وارتفق ، وانتشر عليه لواءُ السعد وخفق »[٢] .

قال الحاجب المنصور :

رميتُ بنفسي هوْلَ كلِّ عظيمةٍ وخاطرتُ والحُرُّ الكريمُ يخاطرُ

(١) تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن / نسيمان ١/١٣٤ .

(٢) البيان المغرب ٢/٤٢٧ .

وما صاحبي إلا جنانٌ مُشَيَّعٌ وأسمرُ خَطيٌّ وأبيضُ باترُ
فسُدتُ بنفسي أهلَ كلِّ سيادةٍ وفاخرتُ حتى لمْ أجدْ مَن أفاخرُ
رفعنا المعالي بالعوالي حديثةً وأورثناها في القديم مَعَافِرُ

قالوا عن الحاجب المنصور : « ساسَ الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كلّ طريق ، واستشعر اليُمْنَ كلُّ فريق . ملَك الأندلس بضعًا وعشرين حجَّة ، لم تدحضْ لسعادتها حجَّة ، ولم تزخر لمكروهٍ بها لجَّة ، لبست فيه البهاء والإشراق ، وتنفَّست عن مثل أنفاسِ العِراق ، وكانت أيامُه أحمدَ أيام ، وسهامُ بأسه أشدَّ سِهام ، غزا الروم شاتيًا وصائفًا ، ومضى فيما يروم زاجرًا وعائفًا ، فما مرّ له غير سنيح ، ولا فاز إلا بالمعلَّى لا بالمنيح ، فأوغل في تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليثَ الغاب ، انتظمتْ له الأندلس بالعدوة ، واجتمعت في ملكه اجتماعَ قريش بدار الندوة » .

الجهادُ الرائع للحاجبِ المنصور :

بلغ جيش المسلمين في أيام الحاجب المنصور مبلغًا عظيمًا ؛ « وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده ، فنيَّف الفرسان على مائتي ألف ، والرجَّالة على ستمائة ألف ، وبها من صناديد المسلمين وقوَّادهم مَن لا يفترُ عن محاربة ، ولا يملُّ عن مضاربة ، أسماؤهم بأقاصي بلاد النصارى مشهورة ، وآثارهم فيها مأثورة ، وقلوبهم على البعد بخوفهم مأمورة »[1] .

« ومن مناقب المنصور التي لم تتفق لغيره من الملوك - في غالب الظنِّ - أن أكثر جنده من سبْيه ، على ما حقّقه بعض المؤرخين . ومن أخباره أيضًا أنه ما عاد قطُّ من غزوة إلا استعد لأخرى ، ولم تُهزم له قطُّ راية ، مع كثرة

(١) نفحْ الطيب للمقَّري ٣/٢١٦ .

غزواته شاتية وصائفة ! وكفاه ذلك فخرًا »[١] .

وقد بلغت غزواته خمسين غزوة .

وعمل المنصور على زيادة جامع قرطبة ، ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية ، استخدام أعلاج النصارى الذين أحضرهم مصفَّدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عِوضًا من رجالة المسلمين ، إذلالًا للشرك وعزَّةً للإسلام[٢] .

وانظر إلى علو همته في نجدة أسيرتَيْن مسلمتين ؛ فقد قال صاحب « نفح الطيب » : « تمرَّس ابن أبي عامر ببلاد الشرك أعظم تمرُّس ، ومحا من طواغيتها كل تعجرُف وتغطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم أذلَّ من وتدٍ بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغصَّ بالحِمَام أرواحهم ، ونغصَّ بتلك الآلام بكورهم ورواحهم .

ومن أوضح الأمور هنالك ، وأفصح الأخبار في ذلك ؛ أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب ، فسار في بعض مسيراته إلى « غُرْسيه » صاحب البشكنس ، فوالى في إكرامه ، وتناهى في بِرِّه واحترامه ، فطالت مدته ، فلا متنزَّهَ إلا مرَّ عليه متفرِّجًا ، فحلَّ في ذلك أكثر الكنائس ، فبينا هو يجول في ساحتها ، ويُجيل العين في مساحتها ، إذْ عرضت له امرأة قديمة الأسر ، قويمة على طول الكسر ، فكلَّمته ، وعرَّفته بنفسها ، وأعلمته ، وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعُّمِهِ بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نَضَّت لبوسَها ؟ وزعمتْ أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة ، وبكل ذلٍّ وصَغار ملبسة ، وناشدته الله في إنهاء قصتها ، وإبراء غُصَّتها ، واستحلفته بأغلظ الأيْمان ، وأخذت عليه في

---

(١) نفح الطيب ٣/٥٩٦ .

(٢) نفح الطيب ٣/٥٤٦ .

ذلك أوْكد مواثيق الرحمٰن ، فلما وصل إلى المنصور عرَّفه بما يجب تعريفه به وإعلامُه ، وهو مُصغ إلى كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفت على أمر أنكرتَه ، أم لم تقف على غير ما ذكرتَه ؟ فأعلمه بقصة المرأة ، فعتبه ولامه ، على أن لم يبدأ بها كلامه ، ثم أخذ للجهاد من فوره ... وأصبح غازيًا على سرْجه ، حتى وافى ابن شانجة في جَمْعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجليَّة ، ويحلف له بأعظم ألِيَّة ، أنه ما جنى ذنبًا ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبًا، فعنَّف أرْسَاله وقال لهم: كان قد عاقدني أن لا يبقى ببلاده مأسورة ولا أسير ، ولو حملَتْه في حواصلها النسور ، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة ، والله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها . فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها ، وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهنَّ ، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها ، قد بالغ في هدمها ، تحقيقًا لقوله ، وتضرَّع إليه في الأخذ فيه بطَوْله ، فاستحيا منه وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة بنفسه، وألْحَفَ توحُّشها بأُنْسِهِ، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحَّلها بما كان شرد من نومها »[(١)] .

والحادثة الثانية وردت كالتالي :

« عاد المنصور من بعض غزواته ، فلقيته امرأة ، وقالت له : يا منصور ، استمع ندائي ؛ أنت في طيب عيشك وأنا في بكائي . فسألها عن مصيبتها التي عمّتها وغمتها ، فذكرت له أن لها ابنًا أسيرًا في بلاد سَمتها ، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ، ولا يخبو ضرامُ قلقها من وقده ، وأنشد لسان حالها ذلك المِلكَ المعلّى : (أياويح الشجيّ من الخليّ) فرحَّب المنصور بها ، وأظهر الرقة بسببها ، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التي فيها ابنها ، وجاس أقطارها وتخلَّلها حتى دوَّخها ، إذْ أناخ عليها

(١) نفح الطيب ١/٤٠٤ .

بكلكلهِ وذلَّلها ، وأعراها من حماتها ، وببنود الإسلام المنصورة ظلَّلها ، وخلص جميع ما فيها من الأسرىٰ ، وجلبت عوامله إلى قلوب الكفرة كسْرا ، وانقلبت عيون الأعداء حسرىٰ »[1] .

« لا نكادُ نصل إلى بلادنا إلَّا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد هاهنا إلى وقت الغَزَاة ، فإذا غزوْنا عُدنا » :

قال صاحب «نفح الطيب»: «مِن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبلَيْن عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج ، فلما جاوز ذلك المحلّ وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يمينًا وشمالًا ، لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا من ورائهم ، وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين ، وكان الوقت شتاءً ، فلما رأى ما فعلوه ، رجع واختار منزلًا من بلادهم أناخ به بمن معه من العساكر ، وتقدَّم ببناء الدور والمنازل وبجمْع آلات الحرث ونحوها ، وبثّ سراياه فسبَتْ وغنمت ، فاسترقَّ الصغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جثثهم حتى سدَّ بها المدخل الذي من جهته، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلدًا خرابًا ، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح ، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردَّد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسْرِه ، فأجابهم : إن أصحابي أبوا أن يخرجوا . وقالوا : إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد هاهنا إلى وقت الغزاة ، فإذا غزونا عُدنا . فما زال الإفرنج يسألونه ، إلى أن قرَّر عليهم أن يحملوا على دوابِّهم ما معه من الغنائم والسبي ، وأن يُمدُّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده ، وأن يُنحُّوا جِيَفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كلَّه ،

---

(١) نفح الطيب ١/٥٩٧ .

وانصرف، وكان ذلك عِزًّا ما وراءه مَطْمَح، ونصرًا لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح ، خصوصًا إزالتهم جِيف قتلاهم من الطريق ، وغصصهم في شرب ذلك بالريق »[1] .

كان للمنصور في كل عام غزوتان أو أكثر ، ما بين صائفة وشاتية ، وكان من أكبر أعمال المنصور سنة ٣٧١ هـ الهجوم على «سمورة» - أو زمورة - حيث عملت قوات المسلمين على تدمير أقوى معاقل الشمال ، ولم تغادر « سمورة » إلّا بعد أن تركتها طعمة للنيران ، والدمار يخيم عليها ، انتقامًا لِمَا كانت تمارسه هذه المدينة ضدَّ ثغور المسلمين .

غزو مملكة « ليون » سنة ٣٧٣ هـ :

« انطلق الحاجب المنصور بجيشه إلى العاصمة « ليون » ، وعندما وصلَها ضرب حصارًا حولها ، وطلب ملك ليون الدعم من الدول المجاورة فأمدّه الإفرنج بجيوش كثيرةٍ ، ووقعت معارك ضارية اتصل فيها القتال ليلًا ونهارًا ، وأظهر الإفرنج قدْرًا كبيرًا من الصمود ، كما أظهر المسلمون تصميمًا أكبر على انتزاع النصر ، واستُشهد عدد كبير من المسلمين ، كما قُتل عدد كبير من قادة الإفرنج ، وأخذ الموقف في النهاية بالتحوُّل لمصلحة المسلمين الذين حملوا على النصارى ، فانهزموا إلى بلادهم وقُتل منهم ما لا يُحصىٰ ، وملكُ المدينة «ليون» ، وغنم ابن عامر غنيمة لم يُرَ مثلها ، واجتمع له من السبي ثلاثون ألفًا ، وأمر بالقتلى فنضد بعضها على بعض ، وأمر مؤذِّنًا فَأَذَّن للمغرب فوق القتلى ، وعاد جيش المنصور إلى قرطبة »[2] .

استعادة برشلونة إلى حكم المسلمين :

في سنة ٣٧٦ هـ استطاع المنصور اقتحام أسوار برشلونة بجيشه ، وفرض

---

(١) نفح الطيب ٥٩٥/١ - ٥٩٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٢٠/٧ .

سيطرته عليها بعد أن طال انفصالها عن دولة الأندلس الإسلامية ، وخضوعها لملوك فرنسا الكارولنجيين بصورة اسمية .

غزوة البياض ، وأسْر ملك ليون :

في سنة ٣٧٩ هـ جابه الحاجب المنصور جيش البشكنس ، فمزقه وتابع تقدُّمه ، فاحتل حصن وخشمة - أوسمة - ونزل « غرسيه » ملكُ « ألبةَ » والقلاعِ على شروط المنصور .

والتقى جيش الثغور الذي كان يقوده الوزير «قند» بجيش «ليون»، وعلى رأسه الملك « غرسيه » ، وأمكن للمسلمين انتزاع النصر ، ووقع ملك ليون أسيرًا في أيدي المسلمين ، وأدت جراحه البالغة إلى وفاته ، وجزّ رأسه ووضعه في تابوت ، وأرسله إلى قرطبة ، واحتفظ الوزير « قند » بجسده .

وفي سنة ٣٨٥ هـ قاد المنصور بنفسه الحملة على مملكة ليون ، وحقَّق انتصارًا كبيرًا وأمكن له أسر أعداد كبيرة كان فيهم « غرسيه بن شانجة ابن غرسيه » ابن ملك ليون ، ودمّر الحاجب حصون مملكة ليون مثل : «سمورة» و « شنت أشتبيين » و « وشقة » و « خشمة » و حصن « الحامة » و « سلمنقة » .

غزو المنصور لـ « شنت ياقب » أعظم مدن النصارى سنة ٣٨٧ هـ :

لقد بقيت جيليقية باستمرار مركز مقاومة النصارى لوجود المسلمين في الأندلس ، ولقد كانت جيليقية منطقة جبلية وَعرة التضاريس ، وكانت أيضًا قاعدة روحية لها مكانتها المعنوية للتحريض على الثورة ، نظرًا لوجود « شنت ياقب » في هذا الإقليم - جيليقية - الذي يقع شمال غرب الأندلس . ومدينة شانت ياقب هي أعظم مشاهد النصارى ببلاد الأندلس ، وكنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا - وللكعبة المثل الأعلى - فإليها يحجُّون من أقصى بلاد روما وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبرُ ياقب « يعقوب » الحواري ، أحد الاثني عشر وأخصُّهم

بعيسى ، ويسمُّونه أخاه ، للزومه إياه . ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصْدها ، ولا الوصول إليها ؛ لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، وبُعد شُقَّتها . وهـذه المدينة كان يقصدها الحجيج المسيحي من أوربا كلهـا ، وجعل لهـا المركز الثالث بعد القدس وروما ، وبعث ألفونسو الثاني ملك أراغون أسطورة القديس « يعقوب » ، وجعل منه حامي شبه الجزيرة « الأيْبيرية » وسيـدها ، وكان لنصارى الأندلس طقوس خاصَّة وتراتيل حماسيّة ، لتمجيد القديس يعقوب ودفع النصارى للجهاد ضد المسلمين الكفار ؛ وتوافر لهذه المدينة المقاتلون الأشداء الذين لم يُهزَمُوا .

ولقـد خطَّط الحاجب المنصور لغزو « شانت ياقب » في إطار حمـلة بريَّة بحـرية ، وضجّت القاعدة البحرية (قصر أبي دانس) بالاستعدادات للغـزوة الكبـرى ، وكان المنصور قد أنشأ في هذه القاعدة أسطوله البحري وجهَّـزه برجاله البحريين ، وصنوف المترجّلين والأطعمة والعُدَد والأسلحة ؛ استظهارًا على نفوذ العزيمة . وكانت العاصمة قرطبة تشهد استعداداتٍ مماثلة في تجهيز قوات الفرسان وحَشْدها من كلِّ أقاليم الأندلس ، وأصدر الحاجب المنصور أوامره بالتحرُّك ، وفي مدينة « بورتو » التقتْ القوَّات البريَّة وقوات الإنزال البحري ، وقطـع الحاجب المنصور أرضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عـدَّة أنهـار كبـار ، وخلجان يمدُّها المحيط الأطلسي ، ثم أفضى العسكر بعد ذلـك إلـى بسائط جليلة من بلاد « فرطارش » ، ثم أفضى إلى جَبَل شامخ شديد الوعر لا مَسْلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدِلَّاءُ إلى سواه ، فقدَّم المنصور مُهندسِيه ؛ لتوسعـة شِعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعـده وادي مِنيـة أوْ (منهـو) ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عـريضة وأرضين أريضة ، وانتهت مغيرتُهم إلى دير قسطان وبسيط « بلنبو » على البحر الميحط ، وفتحوا حصن « شنت بلاية » وغنموه ، وعبروا سباحةً إلى جزيرة من البحر المحيط ؛ لجأ إليها خَلْقٌ عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبَوْا مَن فيها ممَّن لجأ إليها ،

وانتهى العسكر إلى جبل « مراسية » ، فتخلَّلوا أقطاره ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجًا في معبرين ، ثم نهر أَيْلة - أو « أوللا » - إلى أن أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة الفائدة ؛ منها : بسيط أونبة ، وقرجيطة ، ودير شنت برية ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد صاحب القبر تِلْوَ مشهد قبره عند النصارى في الفَضْل ، يقصده نُسَّاكهم من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعًا ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان سنة ٣٨٧ هـ ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ولم يجد المنصور بشانت ياقب - بعد أن هرب منها أهلها - إلّا شيخًا من الرهبان جالسًا على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : « أونس يعقوب ».فأمر بالكفِّ عنه . وكانت مصانع شانت ياقب بديعة محكمة ؛ فغُودرت هشيمًا كأنْ تغنَ بالأمس . وانتسفتْ بعوثُه بعد ذلك سائر السهول ، وانتهت الجيوش إلى جزيرة « شنت مانكش » ، فقطع هذا الصُّقْع على المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم . فلم يكن بعدها للخيل مجال ، ولا وراءها انتقال . وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب ، وقد بلغ غايةً لم يبلُغها مسلم قبله .

واستغرقت المسيرة الشاقَّة من قرطبة حتى أقاصي جيليقية « شنت ياقب » ، فترة أربعين يومًا تقريبًا ، وهذا رقم قياسي ، وقد كان من المُحال انجازُ هذا التحرُّك بِمثْل هذه السرعة لولا التحرك البحري . كما كان من المُحال الوصول إلى شنت ياقب ، لولا ما قام به المهندسون ؛ من إقامة الجسور ، وتمهيد الطرق ، وشقِّ الأنفاق ، فلله درُّ الحاجب المنصور .

لله درُّ الحاجب المنصور : « الملك لا ينامُ إذا نامت الرعيَّة » :

« كان من قوة رجاء المنصور ، أنه اعتنى بجمْع ما علِق بوجهه من الغبار

في غزواته ومواطن جهاده ؛ فكان الخدَم يأخذونه عنه بالمناديل في كلّ منزلٍ من منازله حتى اجتمع له منه صرَّةٌ ضخمةٌ عَهِد بتصييره في حنُوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ؛ توقُّعًا لحلول منيَّته ، وقد كان اتَّخذ الأكفان من أطيب مَكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغَزْل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفَّاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك »[1] .

آثاره تُنبيكَ عن أخبارِه حتى كأنَّك بالعَيانِ تراهُ

تاللهِ لا يأتي الزمانُ بمثْله أبدًا ولا يحمي الثغورَ سواهُ

هكذا كُتِب على قبره لما دُفن بمدينة سالم،مُنْصرفه من بعض غزواته .

« تحدَّث واحدٌ ممَّن كانوا يلازمون المنصور ، فقال : قلت للمنصور ليلةً طال سهرُه فيها : قد أفرط مولانا في السَّهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو يعلم بما يحرِّكه عدمُ النوم من علَّة العصب . فقال : يا هذا ، الملك لا ينام إذا نامت الرعيَّة ، ولو استوفيتُ نومي ، لما كان في دُور هذا البلد العظيم عينٌ نائمة »[2] .

« لو تنفَّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ، ما سُمِع منك ما يُكره سماعُه ، ولا استقرَّ بك قرارٌ » :

وهذه خيرُ خاتمة بما يليق بعلوِّ همَّة بطلنا المنصور .

روى شجاع مولى المستعين بن هود القصَّة التالية ، عندما ذهب لمقابلة ألفونسو « الأذفونش » : « لما توجَّهت إلى « أذفونش » وجدتُه في مدينة سالم ، وقد نَصَب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره ، وامرأته متَّكئة إلى جانبه ، فقال لي : يا شجاع ، أما تراني قد ملكتُ بلاد المسلمين وجلست على قبر

(١) البيان المغرب ٢/٤٣٠ .

(٢) نفْح الطِّيب للمقَّري ١/٤١٦ .

مليكهم ؟ قال: فحمَلتْني الغيرة أن قلتُ له: لو تنفَّس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سُمِع منك ما يُكره سماعه ، ولا استقرَّ بك قرار . فهمَّ بي ، فحالتْ امرأته بيني وبينه ، وقالت له : صدقَك فيما قال ، أفيفجُر مثلك بهذا ؟ »[1] [2] .

أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين بطل موقعة الزَّلّاقة :

يوسف المغرب الذي لم يُوفَّ حقَّه .. الرجل الذي خُلق للزعامة والفتح .

استخلفه ابنُ عمِّه أبو بكر زكريا بن عمر على مراكش ، وأمره أن يتمَّ تخطيطها وبناءها سنة ٤٥٤ هـ ، وعندما عاد أبو بكر سنة ٤٦٥ هـ تلقَّاه يوسف بالهدايا الثمينة، فعرف أبو بكر أن الأمور استقرَّت ليوسف ، فتنازل ليوسف عن الملك ، وقال له : « أنت أخي وابن عمي ، ولم أرَ مَن يقوم بأمْر المغرب غيرك ، ولا أحقَّ به منك ، وأنا لا غناءَ لي عن الصحراء ، وما جئت إلّا لأسلم الأمر إليك ، وأهدنك في بلادك ، وأعود إلى الصحراء مقرّ إخواننا ، ومحلّ سلطاننا »[3] .

وهذه الحادثة الرائعة قلما يُسجِّل لنا التاريخ مثلها، حين يتنازل فيها مِلك عن الحُكْم للأكفأ والأفضل والأصلح والأمهر .

وَطَّد يوسف سلطانه في المغرب الأقصى ، ووحَّد المغرب كلّه – تحت سلطة مركزية، وتجلَّت مواهبُه، وعزيمته القويَّة، وعلوّ همَّته، منذ استلامه زمام السلطة ؛ لقد كانت شهامته وشغفه بالفتح لنشر الإسلام ، حيث قاد الحروب بنفسه بفطنةٍ وحُسْن طالع يُسبغان عليه المثالية، وكان صوَّامًا قوّامًا زاهدًا مُتقشِّفًا لم يكن يأكل

---

(١) الحلة السيراء ٢٧٣/١ .

(٢) الحاجب المنصور لبسام العسيلي – دار النفائس .

(٣) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، للأستاذ إبراهيم حركات صـ٥٣ .

سوى خبز الشعير ، ولحم الإبل ، وشرابه لبن النوق .

كوَّن رحمه الله جيشًا ضمَّ زُهاء مائة ألف مجاهد من قبائل صنهاجة ، وزناتة ، ومصامدة . وبلغتْ دولته من حدود غانا عبورًا بموريتانيا حتى البحر المتوسط ، ومن الأطلسي غربا إلى ولاية قرطاجنَّة (تونس) شرقًا .

ولما توحَّدت كلمة ملوك النصارى على سَحْق دولة الإسلام بعد سقوط طُليطلة ، وتحالف ألفونسو السادس ملِك « قشتالة » - الذي كان يحكم جليقية ، وجزءًا من البرتغال ، و « أشتوريس » ، و « ليون » ، و « بسكونيه » أيضًا - وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا ، والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة وأورجل ؛ لإخراج المسلمين من الأندلس ، وساروا بجيشٍ ضخم من جليقية وليون ، واحتلّوا مدينة « قوريتر » من بني الأفطس ، ووصلوا إلى ضواحي أشبيلية ، فأحرقوا قُراها وحقولها ، وحاصروا قلعة سرقسطة التي يضع سقوطها منطقة الأيبر « إبرة » في يد النصارى ، ويجعل الشواطئ الأسبانية مما يلي البحر المتوسط عُرضةً لغاراتهم ، وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلّها بالنار والسيف ، وخشي المسلمون سقوط سرقسطة يومًا بعد يوم ، فأرسل أمراء الطوائف رسالةً إلى يوسف بن تاشفين مُوقَّعةً من ثلاثة عشر أميرًا مستقلًا ، يناشدونه الإسراع إليهم قبل وقوع الطامّة الكبرى . وأرسل المعتمد بن عبَّاد إلى يوسف بن تاشفين : «إن كنت مُؤْثِرًا للجهاد فهذا أوانه ، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد ، فأسرع في العبور إليه »[1] .

وأمَّت مدينة مراكش وفودٌ كبيرة من الفقهاء ، ووفود شعبية تسأل يوسف إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرض المسلمين بالأندلس .

وبينما كان ابن تاشفين يهيئ العبور إلى الأندلس ، دفع الأمراء المسلمون

(١) وفيات الأعيان ٧/١١٦ .

الجزية إلى ألفونسو وهادنوه ، وأرسلوا إلى ابن عبَّاد يهوديًّا خبيرًا بالنقد ؛ لاستلام الجزية ، ومعه قرمط البرهانس ، فلما حُمل إليهما المالُ أبى اليهودي أنْ يتقبَّله دون فَحْص ، واقترح البرهانس أن يقدِّم ابن عباد بدل المال المطلوب سفنًا حربية ، وازداد غضب ابن عباد وصاح : « لا أستطيعُ أنْ أتحمَّل بعد طغيان النصارى الأوغاد » . وقبلها قال المعتمد لابنه - عندما قرَّر تسليمَ حصن الجزيرة للمرابطين -: « أي بني ، والله لا يُسمع عني أبدًا أنني أعدتُ الأندلس دار كُفْر ، ولا تركتها للنصارى ؛ فتقوم عليَّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري » . ولما خوفه بعض حاشيته من ابن تاشفين وقالوا : الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد . أجابهم : « تالله إنني لأوثر أنْ أرعى الجمال لسلطان مراكش ، على أنْ أغدو تابعًا لملك النصارى ، وأنْ أؤدي له الجزية ؛ إنَّ رعْي الجمال خير من رعْي الخنازير » . أو كما قال : « لَأنْ يرعى أولادُنا جِمال الملثَّمين ، أحبُّ إليهم من أنْ يرعَوْا خنازير الفرنج »[1] .

وكتب وزير ابن عباد - أبو بكر - كتابًا إلى ابن تاشفين : « لقد غصَّت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء الدين ، ونُشِرت الصلبان فوق المنائر التي كان يُتلى فيها الأذان من قبل ، وأُخِذت النواقيس تُقرع من فوقها للقداس ، بعد أن كان يُدعى للصلاة » . وختم الوزير كتابه بقوله : « إن يوسف بن تاشفين قد غدا معْقد الآمال ، وإنه يُعتقد أنَّ الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام » .

وعبر يوسف بجيشه من سبتة ، وصعِد ابن تاشفين إلى مقدِّمة سفينته ، ودعا : « اللهم إن كنت تعلم أنَّ في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين ، فسهِّلْ عليَّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه » . فسهَّل الله المركب ، وقرَّب المطلب ، وسجد ابن تاشفين لله شكرًا لمَّا نزل بأرض الأندلس .

---

(١) وفيات الأعيان ٤٨٣/٢ .

ولبث أمير المرابطين بإشبيلية ثمانيةَ أيام فقط يُرتِّب أثناءها قوَّاته ، « وكان في هذه الأيام صائمًا بالنهار ، قائمًا بالليل في تهجُّدٍ وتلاوةٍ لآيات كتاب الله الكريم ، وأكثر من الصّدقات وأعمال البرِّ ؛ فتملَّك قلوب الناس أكثر ، وكسب قلوب جنده بالنصفة وإيثار الحق وإنشاء العدل »[1] .

تحالف عُبَّاد الصليب وملوكهم لحرب المسلمين ؛ ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وسانشو ملك أراجون ، والكونت برنجار ، وقوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية وأشتوريس وقشتالة ، وسربان من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية ، وعمِل الباباوات دورًا عظيمًا في الحثِّ على ذلك ، وكتب ألفونسو إلى ملوك النصرانية في أوربا بأنهم إن لم يتداركوه فسيعبر المسلمون جبال البرانس إلى أوربا ، فجاءته الإمدادات من كل صوْب . وبلغت عدَّة جيش ألفونسو مائة ألف من المشاة ، وثمانين ألفًا من الفرسان ، وكان عدد الجيش المسلم ثمانية وأربعين ألفًا ؛ نصفهم من المرابطين ، ونصفهم من الأندلسيين .

وأرسل ابن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يخيِّره بين ثلاث ؛ إمَّا أن يعتنق الإسلام ، أو يؤدِّي الجزية ، أو القتال . وكان مما قاله : « بلَغَنا يا أذفونش – ألفونسو – أنك دعوت للاجتماع بك ، وتمنَّيت أن يكون لك فُلْك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العَرَصَة بيننا وبينك ، وسترى عاقبةَ دعائك ؛ ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر : ٥٠] » .

وكانت رسالة ابن تاشفين ردًّا على رسالةٍ من ألفونسو جاء فيها : « إن كنتَ لا تستطيع الجواز ، فابعث إليَّ عندك من المراكب أَجزْ إليك ، وأناظرك في أحبِّ البقاع عندك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جُلِبت إليك ، ونعمة مثُلت بين

(١) الزلّاقة لشوقي عماد خليل صـ٤٠ ، ٤١ – دار الفكر .

يديك ، وإن غلبتُك كانت لي اليد واستكملتُ الإمارة »[١] .

ولما فهم ألفونسو كتاب ابن تاشفين ، ألقاه أرضًا مغضبًا ، وقال للرسول : اذهب فقل لمولاك : إننا سنلتقي في ساحة الحرب . وردَّ بلهجة ملؤها الغضب والغيظ والوعيد ، فأمر ابن تاشفين كاتبه - ابن القصيرة - أن يجيبه ، فكتب وأجاد ، فلمّا قرأه على ابن تاشفين ، قال : هذا كتاب طويل ، أحضِر كتاب الأذفونش ، واكتُب في ظهره : « الذي سيكون ستراه » وأرسله إليه . فلمَّا وقف عليه ألفونسو ، ارتاع له ، وعلم أنه بُلِيَ برجلٍ لا طاقة له به .

والتقى الجيشان في الزّلّاقة - أو « سكر إلياس » كما تسمِّيها النصارى - في يوم الجمعة ١٢ رجب سنة٤٧٩ هـ . وكانت الخطَّة تعتمد أن يحتفظ ابن تاشفين بقوّة احتياطيّة ، تحتوي على أشجع الجنود تنقضُّ في الوقت المناسب على الأعداء ، بعد أن يكون الإعياء قد بلغ من العدو مبلغه .

وثبت الجيش المرابطي بقيادة البطل داود ابن عائشة مع جيش الأندلس أمام قوّات النصارى ، وأرسل ابن تاشفين عدّة فرق ؛ لغوث المعتمد ، وبادر في الوقت نفسه بالزحف في حرسه الضخم من اللّمتونيين والمرابطين ، واستطاع بحركة بارعة أن يُباغِت جيش ألفونسو وأن يُحْدق به .

ووكّل يوسف بعض قوّات جيشه بالنفوذ إلى خيام النصارى في الخلف وإحراقها ، فتَعالت النار في محلَّة القشتاليين ، وارتدَّ ألفونسو لينقذ محلته من الهلاك ، وليستردَّ معسكره الذي انتزعه يوسف ، وانقض يوسف بجموعه المظفَّرة على النصارى كالسيل ، وهو يهدر من فوق فرسه ويمرّ في ساحات المسلمين : يا معشر المسلمين ، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومَن سَلِم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة . وقاتل ابن تاشفين في مقدِّمة صفوفه قتالًا شديدًا ، وقد قُتلت تحته أفراس ثلاث .

---

(١) نفح الطِّيب ٢/٥٢٧ ، ووفيات الأعيان ٢/٤٨٣ .

وثبت المعتمد بن عباد ثباتًا رائعًا ، وأصبح ألفونسو وجيشه بين « مطرقة ابن عباد وسنداد بن تاشفين » وحقَّت عليهم الهزيمة .

وهرب ألفونسو عندما حلَّ الظلام ، بعد إصابته بطعنة نافذة ، ولم ينجُ من جيش القشتاليين مع ملكهم سوى أربعمائة أو خمسمائة فارس، معظمهم جرحى مات فيما بعد قسمٌ كبير منهم .

لله درُّك يا ابن تاشفين ، تقضي في هذه المعركة على ما يقرُب من ١٨٠ ألف صليبي بين قتيل وأسير !! وأمر ابن تاشفين برؤوس القتلى فصُفَّتْ في سهل الزّلاقة على شكل هرم ، ثم أمر فأُذِّن للصلاة من فوق أحدها ... وانجلت الزّلاقة عن يوم مشهود من أيام الإسلام ، وفخر لا يُقدَّر بثمن .

قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٧/١١٧) عن غنائم هذه المعركة : « فلما حصلت عفّ عنها يوسف بن تاشفين ، وآثر بها ملوك الطوائف ، وعرَّفهم أن مقصوده إنما كان الغزو والجهاد ، لا الغنائم » . ثم عاد ابن تاشفين إلى المغرب .

وجاز ابن تاشفين إلى الأندلس مرة ثانية ؛ لصدِّ غارات النصارى على مرسية ، ثم عبر مرة ثالثة إلى الأندلس ، بعد أن حاول بعض أمراء الأندلس التحالف سرًّا مع ألفونسو السادس ؛ لطرد المرابطين ، فعاد ابن تاشفين إلى الأندلس بطلب من القضاة والفقهاء ، وبقي ابن تاشفين في الأندلس بعد الجواز الثالث ؛ بسبب فشل ملوك الطوائف الهزْل في حماية الأندلس من الأخطار الخارجية .

وضمَّ ابن تاشفين الأندلس إلى ملكه ، وأنقذها من انهيار محقَّق ، وضبطها بعزم وحزم بعد فوضى وضياع .

« إنما أسوارُنا سيُوفُنا وعدلنا » :

ونختم بأروع ما قال ابن تاشفين ؛ لما فتح مدينة « فاس » خرَّب السور

الفاصل بين عُدوتها ، وقال : « إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » .

رحم الله ابن تاشفين ، فقد كانت دولته دولة خير وجهاد وعافية ، وأكثرَ الدول جرْيًا على السُّنَّة .

أبو الحسن علي بن يوسف ؛ ينتصر على القشتاليِّين ، ويسقط حصن أقليش في يده :

وصَّى ابن تاشفين بالملك من بعده لابنه علي ؛ لأنه أكثر ارتياحًا إلى المعالي واهتزازًا وأكْرَم سجيَّةً ، وأنْفَس اعتزازًا . وتولَّى علي الحُكْم بعد أبيه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، فأبدى في حُكْمه كثيرًا من الحكمة والعدالة ، مما أكْسبه محبَّةَ شعبه وتقديره .

وعبر إلى أسبانيا عدَّة مرات ؛ منها عبور سنة ٥٠١ هـ ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر « تميم » الذي عُيِّن أيضًا واليًا لأشبيلية ، فسار بجيش ضخم إلى حدود النصارى ، وحاصر قلعة « أقليش » المنيعة ، فأرسل ألفونسو السادس ابنه الوحيد « سانشو » لفكِّ الحصار عنها . فلمَّا اقترب جيش القشتاليين ، هجم المرابطون المسلمون عليه ، فقتلوا من القشتاليين عشرين ألفًا ، وتسعةً من كونتات قشتالة ، وقائد الجيش سانشو بن ألفونسو السادس .

وقد كان سقوط حصن أقليش ذروة مَجْد المرابطين ، ويعتبر « الزّلاقة الثانية »[١] .

عبد المؤمن بن علي : مؤسِّس دولة الموحِّدين ، وغلَّاب الدول :

قال عنه المهدي محمد بن تومرت : « صاحبكم هذا غلّاب الدول » . وقال عنه : « ما بقي عبد المؤمن ، فلن يهلك أحد » . وقال عنه : « بلوناه

---

(١) الزّلاقة لشوقي أبي خليل صـ٧٧ - دار الفكر .

في جميع أحواله - من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه - فوجدناه ثبتًا في دينه » .

قال عنه الحافظ الذهبي في « السير » (٢٠/٣٧١) : « كان عبد المؤمن رزينًا وقورًا ، سريًّا عالي الهمَّة ، خليقًا للإمارة » .

في عهده غدت دولة الموحدين أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ، لقد صارت حدودها الجنوبية بالصحراء الكبرى ، ومن الغرب المحيط الأطلسي ، ومن الشرق صحراء ليبية ؛ ثمَّ هذا كلُّه في عشرين سنة على يد عبد المؤمن .

واسترجع « المهدية » بعد أن سار من البر والبحر بأسطول ضخم لاستعادة الثغور الإسلامية في تونس من يد النصارى ، وحاول الإفرنج إغاثة إخوانهم ، فبعثوا الأساطيل إلى مياه تونس ، ووقعت بين الموحدين والنصارى معارك بحرية هائلة ، انتهت بفوْز المسلمين . وفتح عبد المؤمن المهديّة في يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ بعد أن بقيتْ اثني عشر عامًا بيد النصارى ، بعد أن أمِن النصارى الذين بها على أنفسهم ؛ على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقليَّة . وافتتح عبد المؤمن « تَوْزر » وبلاد « الجريد » ، وطرد عنها الفرنج ، وطهَّر إفريقية من الكفر .

مِلك لم يدع مشركًا في بلاده ؛ لا يهوديًّا ولا نصرانيًّا :

قال الذهبي : « قال ابن الجوزي في « المرآة »[(١)] : استولى عبد المؤمن على مرّاكش؛ فقتل المقاتلة، وكفَّ عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى، وقال: إن المهدي أمرني أنْ لا أُقِرّ الناس إلّا على ملَّة الإسلام، وأنا مخيِّركم بين ثلاث؛ إمّا أن تُسْلِموا ، وإمّا أن تلحقوا بدار الحرب ، وإمّا القتل . فأسلم طائفة ، ولحقت

---

(١) حوادث سنة ٥٤٢ صـ١١٨ .

أخرى بدار الحرب . وخرَّب كنائسهم ، وعملها مساجد ، وألغى الجزية[١] ؛ فعَل ذلك في جميع مدائنه ، وأنفق بيوت الأموال ، وصلَّى فيها اقتداءً بعليّ ؛ ولِيُرِيَ الناسَ أنه لا يكنز المال ، وأقام كثيرًا من معالم الإسلام مع سياسة كاملة ، ونادى : مَن ترك الصلاة ثلاثًا فاقتلوه . وأزال المنكر ، وكان يؤمّ بالناس ، ويتلو في اليوم سبعًا ، ويلبس الصوف ، ويصوم الإثنين والخميس ، ويقسم الفيء بالشرع .فأحبُّوه .

قال عزيز في كتاب « الجمع » : كان عبد المؤمن يأخذ بالحق إذا وجب على ولده ، ولم يدع مشركًا في بلاده ؛ لا يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، فجميع رعيته مسلمون »[٢] .

وقال عنه الحافظ الذهبي أيضًا : « كان ملِكًا عادلًا رحيمًا ، عظيم الهيبة ، عالي الهمَّة ، كثير المحاسن ، متين الديانة ، قليل المَثَل ، كان يقرأ كلَّ يوم سُبُعًا ، ويجتنب لبس الحرير ، ويصوم الإثنين والخميس ، ويهتمُّ بالجهاد والنظر في الأمور ؛ كأنما خُلِق للمُلك » .

علماء مجاهدون :

« بنى عبد المؤمن عددًا من المساجد والمدارس وقرنها بالخدمة العسكرية دومًا ، مع التمرين على فنون الحرب ؛ ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضْعاف الهمم ، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين . كما أنشأ مدرسةً لتخريج رجال السياسة ، وموظفي الحكومة ، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه؛ تشجيعًا لهم على الاجتهاد ، ولكي يجعل منهم رجالًا

---

(١) إذ لم يبق في بلده يهود ولا نصارى .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٧٠ - ٣٧١ .

أكفاء قادرين على نَفْع البلاد في السلْم والحرب . وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية ، فيختبرهم في الطعن بالحراب ، والرمي بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدَّها ووضع فيها سُفنًا كبيرة وصغيرة ؛ ليتدرَّب الشباب على قتال البحر ، وقيادة السفن ، والوثوب على سفن العدوّ ، وكان يقدِّم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة »[١] .

« بمثل هذا تُمدح الخلفاء » :

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة (٥٤٨) لما اختلَّت أحوال الأندلس وطمع فيها الفرنجة ، جهَّز عبد المؤمن لدخول الأندلس ، فأخذ الجزيرة الخضراء ، ثم رندة ثم أشبيلية ، وقرطبة وغرناطة ، ثم سار عبد المؤمن بجيوشه ، ونزل جبل طارق وسمَّاه جبل الفتح ، فأقام شهرًا ، وبنى قصورًا ومدينة . ووفد إليه كبراء الأندلس ، وقام بعض الشعراء منشدًا :

ما للعِدَى جُنَّةٌ أوقى مِنَ الهَربِ ... أين المفرُّ وخيلُ اللهِ في الطَلَبِ
وأين يذهب مَن في رأس شاهقةٍ ... وقد رَمَتْهُ سهامُ اللهِ بالشُّهبِ
حَدِّثْ عن الروم في أقطار أندلس ... والبحرُ قد ملأ البَرَّين بالعَرَبِ[٢]

فأُعجِب بها عبد المؤمن ، وقال : « بمثل هذا يُمْدح الخلفاء » . وقرّر عبد المؤمن بالأندلس جيشًا كثيفًا من المصامدة والعرب وقبائل بني هلال . وكان رحمه الله يشحذُ هِمَمَ جنوده ويُعليها بالدعوة إلى البذْل والعطاء للدين ، ويحثُّهم على الجهاد فيقول :

---

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ليوسف أشباخ ٢/٥٠ .
(٢) للشاعر الأصمّ المرواني ابن الطليق .

أقيموا إلى العلياءِ هُوجَ الرَّواحِلِ وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصَّواهِلِ
وقوموا لنصْرِ الدين قومةَ ثائرٍ وشُدُّوا على الأعداء شدَّة صائلِ
فما العز إلّا ظهْرُ أجْردَ سابحٍ يفوت الصَّبا في شدِّهِ المتواصلِ
وأبيضَ مأثورٍ كأنَّ فِرنْده على الماء منسوجٌ وليس بسائلِ
بني العَمِّ مِن عَليا هلالِ بن عامرٍ وما جَمَعتْ مِن باسلٍ وابن باسلِ
تعالَوْا فقد شُدَّتْ إلى الغَزْو نيّةٌ عواقبها منصورةٌ بالأوائلِ
هي الغزوة الغرَّاء والموعدُ الذي تَنَجَّزَ مِن بَعْدِ المَدَى المُتطاولِ
بها نفتحُ الدنيا بها نبلغ المُنى بها نُنْصِفُ التحقيقَ من كلِّ باطلِ
فلا تتوانَوْا فالبدارُ غنيمةٌ وللمُدلجِ الساري صفاءُ المناهلِ

عُلوّ همَّة عبد المؤمن ، جعلته خليقًا بالمُلْك :

قال عبد الواحد المراكشي : لما نزل عبد المؤمن سلا ، وضُربت له خيمة ، وجعلت جيوشه تعبر قبيلةً قبيلةً ، فخرَّ ساجدًا ، ثم رفع وقد بلَّ الدمعُ لحيتَه ، فقال : أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلّا رغيفٌ واحد ، فراموا عبور هذا النهر ، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعَدّي بهم ، فقال : لا آخذه إلا عن اثنين . فقال أحدهم - وكان شابًّا -: تأخذ ثيابي وأنا أسبح . ففعل ، فكان الشاب كلما أعيا ، دنا من القارب ، ووضع يدَه عليه ليستريح ، فيضربه بالمجداف ، فما عدَّى إلا بعد جُهدٍ . فما شكَّ السامعون أنه هو السَّابح ، والآخران ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي[1] .

عبد المؤمن يجهِّز لعبور الأندلس للجهاد ثانيةً ، فيموت :

جاءت الوفود الأندلسيّة تستنصر عبد المؤمن للجهاد ، فقرَّر العبور

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٧٢ ، ٣٧٣ .

بنفسه عام ٥٥٦ هـ ، واجتمع له من الجند زُهاء ثلاثمائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل ، وحَشَد أربعمائة سفينة كبيرة أُعِدَّت في ثغور المغرب ؛ لنقل الجيش . ولاح في الأفق عندئذٍ أن أسبانية النصرانيَّة قد قُدِّر لها الهلاك ، وفي الوقت ، الذي كانت السُّفن تنقُل الجند إلى الأندلس عام ٥٥٧ ، أصابه مرضٌ مفاجئ فمات رحمه الله . فأُنقذت أسبانية النصرانية للمرة الثانية ؛ الأولى : بانسحاب يوسف بن تاشفين بعد الزّلّاقة ، وعدم دخوله طليطلة ، والثانية : بموت عبد المؤمن .

رحم الله عبد المؤمن «فقد كان شجاعًا ذا عزيمة، وكان يسمو على جنوده في تحمُّل المشاقِّ والشدائد ، وكانت شعوب المغرب المتقشِّفة تعجب بتقشُّفه في مأكله وملبسه » .

ومن محاسنه أنه كتب إلى عماله في الأندلس بالعناية بالبلاد والإحسان إلى الرعيّة ، وأن يكون العدْل أساس أحكامهم ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، مُدونًا فيها الشروح وشهادات الشهود مع حجج المظلومين . وكذلك في سائر المعاملات أوصى بتقوى الله في السر والعلن ، والجري على سنة رسول الله ﷺ .

لكل جَوادٍ كَبْوة :

عفا الله عن عبد المؤمن بطول جهاده ، وإن كان له كبوات في عقيدته ؛ مثل قوله بالعصمة ، واتِّخاذه المذهب الأشعري وتأويلاته منهجًا له في العقيدة ، مخالفًا بذلك أصحاب الحديث وسلف الأمة .

السلطان الكبير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ؛ يحفظ صحيح البخاري ، ويدوِّخ النصارى في معاركه :

قال عنه الحافظ الذهبي : « كان عارفًا باللغة والأخبار والفقه ، عالي

الهمَّة ، سخيًّا جوادًا ، مهيبًا ، شجاعًا ، خليقًا للملك » .

قال عبد الواحد بن علي التميمي : صحّ عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ، أظنّه البخاري . قال : وكان سديدَ الملوكيَّة ، بعيد الهمّة ، جوادًا ، استغنى الناس في أيامه .

هادن صاحب صقلية على أن يحمل كلّ سنة ضريبة على الفرنج .

قال الحافظ أبو بكر بن الجد : كنا عنده ، فسألنا : كم بقي النبي ﷺ مسحورًا ؟ فشكّينا ، فقال : بقي شهرًا كاملًا ، صحّ ذلك[1] . وكان فقيهًا يتكلَّم في المذاهب ، ويقول : قول فلان صواب ، ودليله من الكتاب والسنة كذا وكذا[2] .

مِلك يُملي أحاديثَ الجهاد على جنده ويُخفي لَوْحه ، وجنده يكتبونها في ألواحهم :

وإن شئت أن تعجب لعلوّ همَّة أبي يعقوب يوسف ، فاعجب :

«قال عبد الواحد: لما تجهَّز لغزو الروم، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تُملى على الجند ، وكان هو يُمْلي بنفسه ، وكبار الموحِّدين يكتبون في ألواحهم ، واتَّخذ ذلك سُنَّة إلى آخر أيام الموحدين .

كان كلّ واحد من الموحدين والسادة يجيءُ بلوحٍ ويكتب فيه الإملاء ، فجاء هلال بن محمد بن أحمد بن سعد يومًا - وهو من أمراء شرقي الأندلس - ولا لوح معه ، فأخرج القوم ألواحهم ، فقال له وزير أمير المؤمنين : أين لوحك يا أبا القمر ؟

---

(١) في المسند ٦٣/٦ من حديث عائشة : « لبث النبي ﷺ ستة أشهر ، يرى أنه يأتي ولا يأتي ..... » الحديث وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، سوى إبراهيم بن خالد الصنعاني . وهو ثقة ، وثَّقه ابن معين وأحمد والدارقطني .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي صـ٣٠٩ ، وسير أعلام النبلاء ٩٩/٢١ ، ١٠١ .

فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت بُرنسه لوحًا وناوله إيّاه ، وقال : هذا لوحه . فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له أمير المؤمنين ، فلما نظر إليه قال : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبَّأتُه وأوصيتُ إذا متُّ أن يُجعل بين جلدي وكفني . وأتبع ذلك بكاءً حتى أبكى بعض من كان في المجلس ، فقال أمير المؤمنين : هذا المحبُّ الصادق ، وأمر له بخيل وأموال وخِلَعٍ ، ولبنيه بمثل ذلك »[1] .

لقد كانت أيام يوسف بن عبد المؤمن كلُّها ، أيام جهادٍ وفروسية وشجاعة وجود ، ومثّلت دور العظمة في دولة الموحِّدين ... اثنتان وعشرون سنة .. مرت كطيف خيال ...

يقول عبد الواحد التميمي : و لم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادًا وأعراسًا ومواسم ؛ كثرة خصبٍ ، وانتشار أمنٍ ، ودرور أرزاقٍ ، واتّساع معايش ، لم ير أهل المغرب أيامًا قطّ مثلها .

تفرَّغ أبو يعقوب إلى حرب النصارى ، بعد أن اسْتَتَبَّ له الأمر في بلاد الأندلس ، ومكث في الأندلس أربعة أعوام ، نظم خلالها عدَّة غزوات ضدَّ النصارى ، حقَّق فيها نجاحاتٍ رائعة .

وسقط البطل مُضرَّجًا بدمائه أمام قلعة « شنيرين » بعد أن قاتل بسيفه ستة من الفرسان ، وأكمل جيشه بعده فتح القلعة ؛ فرحمه الله .

السلطان المنصور أبو يوسف : يعقوب بن يوسف :

قال عنه الذهبي : « كان فارسًا ، شجاعًا ، خبيرًا بالأمور ، خليقًا للإمارة ، ينطوي على دين وخيرٍ وتألُّه » .

---

(١) الأرك لشوقي أبي خليل صـ٤٤ .

قال عبد الواحد : أمر الحفَّاظ بجمع كتاب في الصلاة من « الكتب الخمسة » و « الموطأ » و « مسند ابن أبي شيبة » و « مسند البزّار » و « سنن الدارقطني » و « سنن البيهقي » ، ثم كان يُملي بنفسه على كبار دولته ، وحفظ لذلك خلق ، فكان لمن يحفظه عطاء وخِلعة .

قال لابن الجدّ - لما دخل عليه ، وبيَّن كتاب ابن يونس -: أنا أنظر في هذه الآراء التي أُحدثت في الدين ، أرأيت المسألة فيها أقوال ، ففي أيّها الحقّ ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلِّد ؟ فافتتح ابن الجد يُبيِّن له ، فقطع كلامه ، وقال : ليس إلا هذا (وأشار إلى المصحف) أو هذا (وأشار إلى سنن أبي داود) أو هذا (وأشار إلى السيف) .

قال يعقوب : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ؛ فمن نابه أمر ، فَزِع إلى قبيلته ، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلّا أنا . فعُظِّموا عند الموحدين .

تصدَّق في غزوة « الأرك » بأربعين ألف دينار ، وكان يجمع الأيتام في العام ، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورُمانة . وبنى مارستان ما أظن مثله ؛ غرس فيه من جميع الأشجار ، وزخْرَفه وأجرى فيه المياه ، ورتَّب له كل يوم ثلاثين دينارًا للأدوية ، وكان يعود المرضى في الجمعة . وكان لا يقول بالعصمة في ابن تومرت .

وسأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجيَّاني : ما قرأت ؟ قال : تواليف الإمام[1] . قال : فَزَوَرَني[2] ، وقال : ما كذا يقول الطالب ، حكمك أن تقول : قرأتُ كتاب الله ، وقرأت من السُّنَّة . ثم بعد ذا قل ما شئت .

---

(١) يعني ابن تُومرت .

(٢) أي فنظر إليَّ نظرة المغضِب .

قال تاج الدين ابن حمويه : كانت مجالس يعقوب مزيَّنةً بحضور العلماء والفضلاء ، تُفتتح بالتلاوة ، ثم بالحديث ، ثم يدعو هو . وكان يُجيد حفظ القرآن ، ويحفظ الحديث ، وكان يجمع الزكاة ويفرِّقها بنفسه ، وعمل مكتبًا للأيتام ؛ فيه نحو ألف صبي ، وعشرة معلِّمين . حَكَى لي بعض عمّاله أنه فرّق في عيد نيِّفًا وسبعين ألف شاة . وقيل : إن يعقوب أبطل الخمر في ممالكه ، وتوعَّد عليها فعُدمت ، ثم قال لأبي جعفر الطبيب : ركِّبْ لنا ترياقًا . فأعوزه خمر ، فأخبره بذلك ، فقال : تلطَّف في تحصيله سرًّا ، فحرَص ، فعجز ، فقال الملك : ما كان لي بالتِّرياق حاجة ، ولكن أردتُ اختبار بلادي »[1] .

رحم الله المنصور يعقوب بن يوسف بما قدَّم ؛ فقد أسقط المكوس ، وزاد أجور الجند النظامي والفقهاء ، وأطلق المسجونين في كلِّ الولايات ، الذين اعْتُقلوا لذنوبٍ ثانوية بسيطة ، وسهَّل المواصلات ؛ فأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجًا وأحواضًا لخزن الماء وآبارًا للاستسقاء، وفنادق لنزول المسافرين. وكان يؤثر الأطباء والمشرفين على المستشفيات التي آوت العَجَزة والعُمي .

كان يعقوب من أعظم ملوك الموحِّدين وأبرعهم وأرفعهم خلالًا ، وقد سما بدولة الموحِّدين إلى ذروتها . « وكان ملكًا جوادًا عادلًا متمسِّكًا بالشرع المطهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من غير محاباة ، ويصلِّي بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة وللضعيف ويأخذ لهم الحق ، وأوصى أن يُدفَن على قارعة الطريق ليترحَّم عليه مَن يمرُّ به »[2]،وكان يشدِّد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الأحيان على شرْب الخمر ، وعاقب العمّال الذين تشكو الرعايا منهم . وكان يُعاقب أيضًا على تَرْك الصلاة ، ويأمر

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/٣١١ - ٣١٨ ، والمعجب للمراكشي ٣٤٣ - ٣٨٣ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧/١٠ .

بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها ، فمَن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته ، عزَّره تعزيرًا بليغًا .

الأرك وقائدها يعقوب بن يوسف : « لم يُسمع في بلاد الأندلس بكسْرةٍ مثلها »[1] ... « تُضاهي الزلَّاقة أو تزيد »[2] :

سادت روحٌ صليبيةٌ بغيضةٌ للنصارى ، بعد أن عيّن الملك ألفونسو الثامن – ملك قشتالة – المطران « مارتن دي بسيرجا » مطرانًا لطليطلة ، وأخذ هذا المطران يعدُّ لحملة صليبيةٍ كبيرة ضدّ المسلمين ، ودمَّر في حملته كلَّ شيءٍ ، وانتسف الغلَّات والكروم ، وقطع أشجار الزيتون ، وسبى المسلمين العُزَّل ، وقتل الكثير منهم .

وكتب ألفونسو الثامن إلى سلطان الموحدين خطابًا يدعوه للقتال .... وهذا نصُّ الخطاب كما ورد في « وفيات الأعيان » : « باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلَّى الله على السيِّد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أمّا بعد : فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب ، أنك أميرُ الملَّة الحنيفيَّة ، كما أني أمير الملَّة النصرانيّة ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس ؛ من التخاذل ، والتواكل ، وإهمال الرعيَّة ، وإخلادهم إلى الراحة . وأنا أسومهم بحُكْم القهر ، وجلاء الديار ، وأسبي الذراري ، وأُمثِّل بالرجال . ولا عُذْر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القُدْرة ، وأنتم تزعمون أن الله فَرَض عيكم قتال عشرةٍ منّا بواحدٍ منكم ، فالآن خفَّف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفًا ، ونحن الآن نقاتل عشرةً منكم بواحدٍ منّا ، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا . وقد حُكي لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال ، وأشرفت على

(١) وفيات الأعيان .

(٢) نفح الطِّيب .

ربوة القتال ، وتُماطل نفسك عامًا بعد عام ؛ تُقدِّم رجْلًا وتؤخِّر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك ، أم التكذيب بما وعد ربُّك ؟ ثم قيل لي : أنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلًا . لعلَّة لا يسوغ لك التقحُّم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفيَ بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرِّهان ، وترسل إليَّ جملةً من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطَّحات ، وأجوز بجملتي إليك ، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك ؛ فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبتْ إليك ، وهديَّة عظيمة مَثُلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحقيت إمارة الملَّتين والحُكم على البرَّين . والله تعالى يوفِّق للسعادة ، ويسهِّل الإرادة ، لا ربَّ غيره ولا خير إلّا خيره ، إن شاء الله تعالى »[1] .

فلمّا وصَل كتابه إلى أبي يوسف المنصور ، مزَّقه وكتب على ظهْر قطعة منه : ﴿ **ارجعْ إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها ولنخرجنَّهم منها أذلَّةً وهم صاغرون** ﴾ [النمل : ٣٧] ، الجواب ما ترى لا ما تسمع .

ولا كُتْبَ إلّا المشرفيَّةُ عندهُ ولا رُسْلَ إلّا الخميسُ العرمرمُ[2]

واشتد حنقُ أبي يوسف على ألفونسو الثامن وغطرسته ، وأخذته غيرةُ الإسلام ، وأمر أن يُذاع الخطاب في جنود الموحدين ؛ ليُثير غيرتهم ، وضجّ الناس ، وصاحوا بطَلَب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع في إعلان الجهاد ، ودوَّت صيحةُ الجهاد في جميع أنحاء المغرب ؛ من مدينة « سلا » على المحيط الأطلسي ، حتى « برقة » شرقًا على حدود مصر . وسيَّر أبو يوسف جميع قوّاته إلى الأندلس ، وتجهز ألفونسو الثامن للقاء الجيش الإسلامي ، وأمدَّه مِلكا ليون ونبارة ، بل كانا على رأس الجيش الذي أرسلاه لنجدة ألفونسو ، وانضمَّ إليه فرسان قلعة

(١) وفيات الأعيان ٦/٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣١٨/٢١ .

« رباح » ، وفرسان الداوية ، واستطاع أن يحشد ما بين مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف مقاتل .

وجاء في « بغية الملتمس » لابن عميرة (٤٥ - ٤٦) : « كان جيش ألفونسو الثامن ينوف على خمسة وعشرين ألف فارس ، ومائتي ألف راجل ، وكان معه تجّارٌ من اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأعدّوا أموالًا ، فهزمهم الله تعالى » .

ولما اجتمع أمير الموحِّدين بمستشاريه ، اقترح عليه أبو عبد الله بن صناديد خُطَّةً أُعجب بها المنصور ، وأمر بتنفيذها ؛ فأَوْكَل إلى كبير وزرائه - أبي يحيى ابن أبي حفص - بقيادة الجيش كلِّه ، وأوكل قيادة الأندلسيين إلى البطل عبد الله بن صناديد . وأن يتولّى الأندلسيون والموحِّدون أو الجند المغاربة النظاميون لقاءَ العدوّ ، ومواجهة هجومه الأوّل ، وأمّا بقيَّةُ الجيش ؛ المؤلَّفة من قبائل البربر - ومعظمهم من غير النظاميِّين - وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطيَّة للموحدين والأندلسيين ، تقوم بالعَوْن والإمداد . ويرابط المنصور بقوته وحرسه وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقَضّ بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين ليرجّح كفَّة الموقعة كلِّها .

وفي ٩ شعبان ٥٩١ هـ كانت موقعة « الأرك » الفاصلة الحاسمة شمال قلعة « رباح » ، وفي صباح هذا اليوم ، أذاع أبو يوسف المنصور بين سائر الجند - لكي يذكِّي حماستهم للقتال - خبر رؤيا رآها في الليلة السابقة ، مفادها أنه رأى في نومه فارسًا بهيّ الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فُتح في السماء ، وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت في الآفاق ، يقول له أنه من ملائكة السماء السابعة ، وأنه جاء ليبشِّره بالنصر بحول الله .

واحتلَّ الموحدون القلب ، واحتلَّ الجناح الأيسر الجند العرب ، ومعهم « زناتة » وبعض القبائل البربريّة الأخرى ، واحتلَّ الجناح الأيمن قُوى الأندلس

بقيادة عبد الله بن صناديد ، وتولَّى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطيّة المكوَّنة من صفوة الجند والحَرس الملكي .

اغفروا لي فإن هذا موضع غفران :

وحين كمُل الحشْد ، قال قائد الجيش أبو يحيى بن أبي حفص : « إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم : اغفروا له - فإن هذا موضع غفران - وتغافروا فيما بينكم ، وطيِّبوا نفوسكم وأخلصوا لله نيَّاتكم »(١) . فبكى الناس ، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم العادل المخلص .

وهبط النصارى من موقعهم المرتفع المشرف حين رأوا الجيش الإسلامي هبطوا كالليل الدامس ، والبحر الزاخر ؛ أسرابًا تتلوها أسراب ، وأفواجًا تعقبُهَا أفواج ، ليس إلَّا الصهيل والضجيج ، والحديد على وقْع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام ، فتوقَّفت كالجبال الراسيات . وقال المنصور لخاصّته : جدِّدوا نيَّاتكم ، وأحضروا قلوبكم . واشتدَّ وطيس المعركة ، واستُشهد البطل أبو يحيى القائد العام وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، واعتقد النصارى أنَّ النصر قد لاح ، بعد أن تضعضع قلب الجيش الإسلامي . وهجم ابن صناديد بقوّاته على قلب الجيش القشتالي ، ثم زحف بعد ذلك زعيم الموحدين ، ولم يغادر ألفونسو وفرسانه - العشرة آلاف - مكانهم في القلب ، بعد أن أقسموا جميعًا أن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرّت المعركة على اضطرامها المروِّع ، وأرجاء المكان تُدوِّي بوقْع حوافر الخيل ، وقرْع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ... وفرَّت فلول جيش ألفونسو ، وتساقط معظم فرسان النصارى حول ملِكهم مخلصين لعهدهم ، ولكن بقيَّة قليلة استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيدًا عن الميدان ، وأن تُنقذ بذلك حياته .

---

(١) البيان المُغرب صـ١٩٤ .

وكانت خسائر النصارى في هذه المعركة العظيمة : « مائة وستة وأربعين ألـف[1] قتيل ، أُسِرَ ٣٠ ألفًا ، وغنم من الخيام ١٥٠,٠٠٠ خيمة ، والخيل ٨٠,٠٠٠ ، والبغال ١٠٠,٠٠٠ ، والحمير ٤٠٠,٠٠٠ »[2] . وزاد ابن خلكان : « ٦٠,٠٠٠ درْع ، وأمّا الدواب على اختلاف أنواعها ، فلم يُحصر لها عدد » .

وأُذيع نبأ النصر من منابر المساجد في كلِّ مكان : « نجا الفنش - ألفونسو - ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال ؛ فحلق رأسه ولحيته ، ونكَّس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسًا ولا دابَّةً ، حتى يأخُذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ ، ثم لقيه يعقوب وهزمه ، وساقه إلى طليطلة وحاصره ، ورمى عليها بالمجانيق ، وضيق عليها »[3] .

وجاء في « نفح الطيب » (٤١٩/١) : وجاءت المنصور رسُلُ ألفونسو - الفنش - سنة ٥٩٢ هـ . فصالحه ، وفيه يقول الشاعر :

أهلٌ بأنْ يُسعى إليه ويُرتجَى ... ويُزار من أقصى البلاد على الرجا
مَنْ قد غدا بالمكرُمات مُقلدًا ... وموشَّحـا ومختَّمـا ومتوَّجـا
عمرت مقاماتُ الملوك بذكْره ... وتعطَّرتْ منه الرياحُ تأرُّجـا

السلطان المظفَّر قطز ، بطل عين جالوت ، وصاحب الصيحة الشهيرة « وإسلاماه » :

السلطان الشهيد الملك المظفَّر : سيف الدين قطز بن عبد الله المُعِزِّي .

---

(١) ذكر ذلك ابن الأثير .

(٢) نفح الطيب ١٣٧/٢ .

(٣) نفح الطيب ١٣٧/٢ ، وتاريخ الأندلس لأشياخ ٨٦/٢ وما بعدها .

قال عنه الذهبي في « السير » (٢٣/٢٠٠ - ٢٠١) : « كان فارسًا شجاعًا ، سائسًا ، ديّنًا ، محببًا إلى الرعيّة ؛ هزم التتار ، وطهَّر الشام منهم يوم « عين جالوت » ، وهو الذي كان قتل الفارس أقطاي . ويسلم له إن شاء الله جهاده ، ويُقال : إنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين ، وإنه حُرٌّ واسمه محمود بن ممدود » .

وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» : «وله اليدُ البيضاء في جهاد التتار، فعوَّض الله شبابه بالجنَّة ورضي عنه » .

وقال ابن كثير : « كان شجاعًا بطلًا ، كثير الخير ، ناصحًا للإسلام وأهله ، وكان الناس يحبُّونه ويدعون له كثيرًا » .

لما بلغ المظفّر قطز ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة ، وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد مُلْكهم بالشام - بادرهم قبل أن يُبادروه ، وبرز إليهم وأقدم عليهم ؛ فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه ، وكان لقاؤه مع عسكر المغول وعليهم « كتبغا نوين » ، على « عين جالوت » يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، فاقتتلوا اقتتالًا عظيمًا ، فكانت النصرة - ولله الحمد - للإسلام وأهله ؛ فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة ، وقُتل أميرُ المغول « كتبغا نوين » وجماعة من بيته . وقد قاتل الملك المنصور - صاحب حماه - مع الملك المظفَّر قتالًا شديدًا . وقد أُسِر من جماعة كتبغا نوين ، الملك السعيد بن العزيز بن العادل ، فأمر المظفَّر بضرْب عنقه »[(١)] .

« يُذكر عن قطز أنه يوم عين جالوت ، لما أن رأى انكشافًا في المسلمين ، رمى عن رأسه الخوذة وحَمَل ، ونزل النصر »[(٢)] .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٤ .

(٢) السير ٢٣/٢٠١ .

وفي « البداية والنهاية » (١٣/٢٣٨) : « ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت ، قُتل جوادُه ، ولم يجد أحدًا - في الساعة الراهنة - من الوشاقيّة الذين معهم الجنائب ، فترجَّل وبقي واقفًا على الأرض ثابتًا ، والقتال عمَّال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجّل عن فرسه ، وحلف على السلطان ليركبنَّها ، فامتنع ، وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ولم يزل كذلك ، حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء ، وقال : يا خوند ، لم لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أنّ بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك . فقال : « أمَّا أنا فكنتُ أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله ربٌّ لا يضيِّعُه ، قد قُتل فلان وفلان وفلان - حتى عدَّ خلْقًا من الملوك - فأقام للإسلام مَن يحفظُه غيرهم ، ولم يضيِّع الإسلام » .

لله دَرُّه ، لما رأى عصائب التتار ، قال للأمراء والجيوش الذين معه : لا تقاتلوهم حتى تزولَ الشمس ، وتفيء الظِّلال ، وتهبَّ الرياح ، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم . رحمه الله تعالى .

لله درُّك يا سيف الدين حين أرحتَ العالم من هذا الخبيث ، الذي فَتَح لأستاذه - هولاكو - من أقصى بلاد العجم إلى الشام ... لله درُّك حين ثأرتَ لدماء المسلمين وأعراضهم - بالشام وببغداد - من الملعون ، لعنه الله لعنةً تدخل معه قبره .

لما هزم المسلمون التتار بعين جالوت - تلك الهزيمة التي لا تُجبر أبدًا - وأُسِر ابن كتبغا فأُحضر بين يدي المظفر قطز ، فقال له : أهربَ أبوك ؟ قال : إنه لا يهرب . فطلبوه ، فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحقَّقه المظفر سجد لله تعالى ، ثم قال : أنام طيِّبًا ؛ كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدُهم . وهكذا كان كما قال ، ولم يفلحوا بعده أبدا . وكان الذي قتله الأمير « آقوش الشمسي » رحمه الله .

ودقَّت البشائر من قلعة دمشق ، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحًا شديدًا ، وأيَّد الله الإسلام وأهله تأييدًا ، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين ، وظهر دين الله وهم كارهون . فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب ، فانتهبوا ما فيها ، وأحرقوها ، وألقوْا النار فيما حولها ؛ فاحترق دور كثيرة للنصارى ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا .

« وساق الملك المظفر قطز عساكر التتار وراءه ، ودخل بهم دمشق ، وفرح به الناس فرحًا شديدًا ، ودعوْا له دعاءً كثيرًا »[1] .

« كان جمال الدين التركماني يخدم قطز وهو صغير ، وكان يهينه ويذمه ، فقال له يومًا قطز : ويلك أيش تريد أن أُعطيك ، إذا ملكت الديار المصرية ؟ فقلت له : أنت مجنون ؟ فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، وقال لي : « أنت تملك الديار المصرية ، وتكسر التتار » . وقول رسول الله ﷺ حقّ لا شكّ فيه . فقلت له حينئذ : أريد منك إمرة خمسين فارسًا . فقال : نعم ، أبشر ... فلما كان بعد النصر ، أعطاه المظفر إمرة خمسين فارسًا ، ووفّى له بالوعد » ...

هذا يوم من أيام الإسلام ، فأين نحن وواقعنا المُرّ منه ؟!

وعين جالوت هل أبصرتَ ساحتها وقُطْز يغرسها غارًا ونسرينا
لكننا في زمان القحْط نحصدُه لمَّا نسيناهُ أشواكًا وغِسْلينا

الملك الكامل .... يقول للتتار : « ما لكم عندي إلّا السيف » . ويبصُق في وجه هولاكو :

هو الملك الكامل الشهيد ، ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان المِلك العادل أبي بكر محمد بن أيوب .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥ .

تملـَّك، « ميّافـارقين » وغيـرها سنة خمس وأربعين ، وكان شابًّا عاقلًا شجاعًا مهيبًا ، محسنًا إلى رعيته ، مجاهدًا غازيًا ، ديِّنًا تقيًّا ، حميد الطريقة . حاصـره عسكر هولاكو ، نحوًا من عشرين شهرًا ، حتى فَنِيَ النـاس جوعـًا ووباءً ، حتى لم يبق بالبلد سوى سبعين رجُلًا فيما قيل .

وكان الكامل يبرُز إلى التتار ويقاتلهم ويُنكي فيهم ؛ فهابوه ، ثم بَنَوا عليهم سورًا بإزاء البلد « بأبرجة » . ونفدت الأقوات، حتى كان الرجل يموت فيُؤكَل . وكان الكامل شديدَ البأس ، قَوِيَّ النفس ، لم ينقهر للتتار ؛ بحيث إنهم أخذوا أولاده مـن حصْنهم ، وأتوْهُ بهم إلى تحت سـور « ميّافارقين » ، وكَلَّموه أن يسلِّـم البلد بالأمان ، فقال : ما لكم عندي إلّا السيـف . ودخل التتار البلدة ، ودخلوا دار الكامل ، وأتوا به « هولاكو » بالرُّها ، فإذا هو يشرب الخمر ، فناول الكامل كأسًا ، فأبى وقال : هذا حرام . فقال لامرأته : ناوليه أنتِ . فناولته ، فأبى ، وشتم ، وبصق في وجه هولاكو - فيما قيل - وكان الكـامل ممَّن سار قبـل ذلك ورأى « القان » الكبير ، وفي اصطـلاحهم : مَن رأى وجه « القان » لا يُقتل ، فلمّا واجه هولاكو بهذا ، استشاط غضبًا وقتله .

قال الذهبي : « طِيف برأسه بدمشق بالطبول ، وعلِّق على باب الفراديس ، فلما انقلعوا وجاء المظفَّر ، دَفن الرأس »[١] .

الملك المُحسن ؛ محدِّث زاهدٌ :

هو المحـدِّث الزاهد العالم : يمين الدين أبو العباس أحمـد بن السلطان يوسف ابن أيوب ، حدَّث عن ابن صدقة الحرَّاني ، وهبة الله البوصيري ، وحنبل ، وخَلْق . ونَسَخ وقرأ وحصَّل ، وكان صحيح النقل ، متواضعًا ، مفضّلًا على أهل الحديث وعلى

---

(١) السير ٢٣/٢٠١ - ٢٠٢ .

الـرواة ؛ يتجمـل بـه المحدِّثون . وقد ارتحـل وسمع بمكـة من ابـن الحصري وابن البنّاء ، وببغداد من عبد السلام الداهري وطائفة .

قال الضياء : حصَّل المحسنُ الكثير ، وانتفع الخَلْق بإفادته ، وطلب الحديث على وجهه .

قال الذهبي : « حدَّث عنه القاضي شمس الدين ابن الشيرازي – أحد شيوخه – ومجد الدين ابن العديم ، وشيخُنا سُنْقر الزيني »[1] .

الظاهر بيبرس ؛ قاهرُ الصليبيين :

لمَّـا جاء الظاهر بيبرس كان كالشمس الساطعة ، التي صهـرت ثلوج الغرب الباردة ، وحوَّلتها إلى سراب ، قذفت به ريحُ الإسلام القويّة إلى حيث قدمت .

قال ابن كثير : « كان الملك الظاهر شهمًا شجاعًا ، عاليَ الهمَّة بعيدَ الغور ، مقدامًا جسورًا ، معتنيًا بأمر السلطنة ، يشفق على الإسلام ، متحليًا بالملـك ، له قصْد صالح في نُصْرة الإسلام وأهله وإقامة شعار الملك . وفتح في أيامه فتوحات كثيرة ؛ قيساريَّة وأرسون ويافا ، والشقيف وأنطاكية وبعراض ، وطبرية والقصير وحصْن الأكراد ، وحصن عكا والغرين وصافتيا ، وغير ذلك من الحصون المنيعة التي كانت بأيدي الفرنج . ولم يدع مع الإسماعيلية شيئًا من الحصون . وناصف الفرنج على « المـرقب » و « بانياس » وبلاد « أنطـرسوس » ، وسائر ما بقيَ بأيديهم من البلاد والحصون . وفتح « قيساريّة » من بلاد الروم ، وأوقع بالروم والمغول على « البلستين » بأسًـا لم يُسمع بمثله من دهورٍ متطاولة . واستعـاد من صاحب « سيس » بـلادًا كثيرة ، وجاس خلال ديارهم وحصونهم ، واستردَّ من أيدي المتغلِّبين من المسلمين بعلبك وبصرى وحمص وعجلون والصلت وتدمر والرحبة

---

(١) السير ٢٣/ ٢٠٣ - ٢٠٤ .

وتل باشر وغيرها ، والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان ، وانتزع بلادًا من التتار كثيرة ؛ منها شيرزور والبيرة . واتَّسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة ، وعمَّر شيئًا كثيرًا من الحصون والمعاقل والجسور على الأنهار الكبار وحفر أنهارًا كثيرةً وخلجانات ببلاد مصر ؛ منها نهر « السرداس » ، وجدَّد بناء مسجد الرسول - ﷺ - حين احترق .

وله من الآثار الحسنة والأماكن ، ما لم يُبنَ في زمن الخلفاء وملوك بني أيوب ، مع اشتغاله في الجهاد في سبيل الله ، واستخدم من الجيوش شيئًا كثيرًا ، وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه ، وهو الذي أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها ، وكان رحمه الله متيقِّظًا شهمًا شجاعًا لا يفتر عن الأعداء ليلًا ولا نهارًا ، بل هو مناجزٌ لأعداء الإسلام وأهله ، ولمّ شعثه واجتماع شمله . وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخر ، عوْنًا ونصْرًا للإسلام وأهله ، وشجًا في حُلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين ، وأبطل الخمور ، ونفى الفُسَّاق من البلاد ، وكان لا يرى شيئًا من الفساد والمفاسد إلّا سعى في إزالته بجهده وطاقته ... وله أوقاف وصلات وصدقات . تقبَّل الله منه الحسنات ، وتجاوز له عن السيئات ، والله سبحانه أعلم »[1] .

سيذكر التاريخ لبيبرس قيادته في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م ، حيث دوَّخ فرسان الفرنجة . وسيذكر التاريخ بكل فخر تولِّي بيبرس قيادة المقدِّمة في عين جالوت ، وتتبُّعه لفلول التتار بعد المعركة .

« المسيح أصبح - فيما يظهر - مسرورًا لما حلَّ بالمسيحيين من ذلَّةٍ وهوان » :

زحف بيبرس على قلعة «أرسوف»، وسقطت في ٢٦ أبريل سنة ١٢٦٥ م ، بعد أن دمَّرت أدوات الحصار أسوار القلعة ، « ولم تمض أكثر من ثلاثة أيام حتى

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٩١ - ٢٩٢ .

استسلم قائد القلعة الذي فقَد ثلث عدد فرسانه ، مقابل الحصول على وعْدٍ بالإبقاء على حياة الذين نَجوْا من القتل . وأثار سقوط هذا الحصْن الكبير مشاعر الفرنج ومخاوفهم ، وهذا ما أوحى إلى شاعر الدَّاوِيَة الغنائي « ريسو بونوميل» من التروبادور بأن ينظم قصيدة بالغة المرارة ، يشكو فيها من أن المسيح أصبح - فيما يظهر - مسرورًا لما حلَّ بالمسيحيين من مذلَّةٍ وهوان »[(١)] .

وحين استولى بيبرس على « صفد » هاجم « تبنين » فسقطت في قبضته ، ودمَّر قرية «قارة» المسيحية التي تقع بين دمشق وحمص ، وذلك بسبب اتصال أهلها بالفرنج الصليبيين ، فأمر بقتْل البالغين من سكّانها واسترقاق الأطفال .

ولمَّا أرسل المسيحيون وفدًا من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة جُثث القتلى ، أغلظ في رفْض طلبهم ، وقال لهم بأنهم إذا كانوا يلتمسون جُثث القتلى ، فسوف يجدونها في وطنهم . ولتنفيذ تهديده هبط إلى الساحل ، وقتل كلّ مَن وقع في يديه من المسيحيين .

بيبرس يُهاجم قليقية « أرمينية » ، ويقتُل ، ويأسر ابني ملكها :

كان على بيبرس أن يُنزل العقاب بالمسيحيين الذين تعاونوا مع المغول ، وعلى رأسهم « هيثوم » ملك أرمينية ، وحاول هيثوم كسْب ودّ بيبرس بعد موت « هولاكو » ، مستخدمًا أسلوب المساومة ؛ إذْ كانت البحرية المصرية في حاجة للأخشاب من أجل بناء سفنها ، وكانت هذه الأخشاب متوافرة في جنوب لبنان والأناضول ، وهما من الأماكن التي يسيطر عليها « هيثوم » وصهرُه « بوهمند » أمير أنطاكية . فلم يزد ذلك بيبرس إلّا إمعانًا في عزمه على القتال ، وسيَّر بيبرس أكفأ أُمرائه « قلاوون » و « المنصور » لأرمينية ، ودارت رحى

---

(١) الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة ، لبسام العسيلي صـ٢٨ - ٢٩ ، دار النفائس .

معركة حاسمة في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ م ، وتعرَّض الأرمن لهزيمة مدمِّرة ؛ فلقي « ثوروس » ابن ملك الأرمن مصرعه ، بينما وقع أخوه « ليو » في الأسر ، ودُمِّرت « سيس » عاصمة الأرمن ، وعاد الجيش المنتصر وفي حوزته أربعون ألف أسير ، ولم تنهض أرمينية مطلقًا من هذه الكارثة ، وحينما عاد الملك هيثوم من بلاط المغول الذين استنجد بهم وجد وليَّ عهده أسيرًا ، وعاصمته خرابًا ، وبلاده بأكملها مستباحة .

وفي ٧ مارس سنة ١٢٦٨ ظهر بيبرس بجيشه أمام «يافا» فجأة، فاستسلمت له بعد معركةٍ قاسيةٍ، لم تستمر أكثر من اثنتي عشرة ساعة . وتمَّت إبادة المقاومة وتدمير القلعة ، وأرسل ما تحويه من خشبٍ ورخام إلى القاهرة لبناء مسجده الكبير .

وحرَّر بيبرس قلعة « الشقيف » التي فرض الدَّاوِية سيطرتهم عليها ، فاستسلمت الحامية في ١٥ أبريل بعد أن تعرَّضت القلعة للقصْف المتواصل بالمجانيق لمدَّة عشرة أيام ، ومنح بيبرس الحرية للنساء والأطفال ، أمّا الرجال فاحتفظ بهم أرقَّاء .

تدمير أنطاكية ، وما من جنديٍّ من المسلمين إلّا كان له أسيرٌ مملوكٌ من أهلها :

تولَّى قيادة جيش أنطاكية الكند سطبل « سيمون مانسل » ، وحمله الطَّيش على أن يخرج للمسلمين بجماعة من عساكره خارج أسواره ، فوقع في أسْر المسلمين ، ومع هذا صمَدت أنطاكية بأسوارها لهجوم جيش المسلمين .

وفي ١٨ مايو سنة ١٢٦٨ ، شنَّ المسلمون هجومًا عامًا على جميع القطاعات ، وأحدثوا ثغرةً تدفَّق منها المسلمون إلى داخل المدينة ، وتفجَّر الغضب دفعةً واحدةً ، ودارت رحى مذبحة رهيبة ؛ إذ أمر السلطان بيبرس بإغلاق أبواب المدينة ، حتى لا يهرب أحد من المقاتلين ، فتمَّت إبادة المقاومات بالشوارع ، وامتدَّت الإبادة

لأولئك الذين هربوا من القتال فالتجئوا إلى بيوتهم ، ووقع بقيَّة الرجال في قبضة الأَسْر .

وفي ١٩ مايو ، أمر بيبرس بجمْع الغنائم وتوزيعها ، وتوافر بها من النقود ما صار يُوزَّع بالطاسات أمّا عدد الأسرى ، فكان بالغ الضخامة ؛ فما من جنديٍّ من جنود المسلمين لم يَحُز مملوكًا ، وبلغ الفائض من الوفرة ما جعل ثمن الغلام ينخفض إلى اثني عشر درهمًا ، بينما لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم .

كانت إمارة أنطاكية الصليبية ، أوّل إمارة أقامها الفرنج في بداية حروبهم الصليبية ، وعاشت تحت حُكْم الفرنج مائة وإحدى وسبعين سنة ، ولهذا فقد كان تحريرها ضربةً قويةً لهيبة الصليبيين ووجودهم ، ولنصارى الإمارة الذين تعاونوا مع الفرنج الصليبيين والمغول ، ولم تنهض أنطاكية بعد ذلك ، وتحوَّلت إلى مجرَّد قلعة على طرف حدود البلاد الإسلامية .

جيشك ليس في كثرة العدد يُضارع أسرى الإفرنج في القاهرة :

أمام هذه الانتصارات الهائلة ، وقع الرعب في قلب « هيو » الوصيّ على عكا، فأرسل يطلب هدنة، فأرسل إليه بيبرس السفير «محيي الدين». وحاول هيو أن يحصُل على بعض الامتيازات ، فاستعرض قوَّاته في تعبئة القتال أمام « محيي الدين » ، فاكتفى محيي الدين بإجابته الرائعة التي تنزل على قلوب المؤمنين بردًا وسلامًا .... قال له : « إن كلَّ هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يُضَارع الأسرى الفرنج في القاهرة » .

حصْن الأكْراد – قلعة الحصن – يُسقطها بيبرس بعد صمودها أمام صلاح الدين :

ولله درُّ بيبرس حين يُسقط حصن الأكراد الضخم – أو قلعة الحصن –

والتي كانت تحكمها طائفة الأسبتارية الصليبيين ، بعد أن صمد الحصن أمام صلاح الدين الأيوبي ، وبذا سيطر بيبرس على الطرق المؤدِّيَة إلى طرابلس .

واستولى بيبرس على حصن « مونتفورت » ، الذي كان تحت سيطرة الألمان ، بعد حصار أسبوع واحد .

بيبرس يغزو بلاد الأناضول ، ويسحق الحامية المغولية هناك :

وفي سنة ١٢٧٧ ، غزا بيبرس بلاد الأناضول ، وانتصر على الحامية المغولية التي أرسلها الأيلخان « أباقا » إمبراطور المغول انتصارًا هائلًا في البستان .

فللَّه درُّ بيبرس ... يوم تولّى السلطنة كانت ممتلكات الفرنج ، تمتدُّ على الساحل من غزة إلى قليقية ، مع ما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميها من الشرق .

وأمكن لبيبرس خلال فترة حُكْمه - التي امتدّت سبع عشرة سنة - تحرير مناطق كثيرة ، بحيث لم يبق في قبضة الفرنج الصليبيين ، أكثر من بضعة مدن ساحلية ؛ هي عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، بالإضافة إلى مدينة اللَّاذقيّة المعزولة وقلعتي عثليت والمرقب ، ولم يعش بيبرس ليشهدَ اختفاءها التام ، غير أنه جعل ذلك أمرًا لا مفرَّ منه .

فرحم الله ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري ، التركي ، كبير المماليك البحرية في عصره .

الملك المنصور ، سيف الدين قلاوون ؛ يهزم المغول ، ويهدم طرابلس :

الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي ، من المماليك البحرية .

قال عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٣/٣٦٦) : « كانت عليه أُبَّهة السلطنة ، ومهابة الملك ، عالي الهمة ، شجاعًا وقورًا ، سامحه الله » .

في يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هـ أكتوبر سنة ١٢٨١ م، التقى جيش المغول في ظاهر حمص بجيش المسلمين . وكان على قلب جيش المغول « منجو » شقيق الأيلخان « أباقا » إمبراطور المغول ، وعلى الميسرة أمراء من المغول ، وعلى الميمنة « بليو الثالث » ملك أرمينيا ومعه الأسبتارية وعساكر الكرج ، وكان المنصور قلاوون على قلب الجيش الإسلامي ، والمنصور حاكم « حماة » على ميمنة الجيش ، وعلى الميسرة سُنْقر الأسقر وجنود الشام . وهزمهم المنصور قلاوون هزيمةً شنيعة وكبَّدهم خسائر فادحة .

قال ابن كثير عن وقعة حمص في « البداية والنهاية » (٣١٢/١٣) : « اقتتلوا قتالًا عظيمًا ، لم يُر مثله من أعصار متطاولة ، فاستظهر التتار أول النهار ، وكسروا الميسرة ، واضطربت الميمنة أيضًا ، وكُسر جناح القلب الأيسر ، وثبت السلطان ثباتًا عظيمًا جدًّا في جماعة قليلة ، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين ، وأشرف المسلمون على خطّة عظيمة من الهلاك . ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان ، لما رأوْا ثبات السلطان ردّوا إلى السلطان ، وحملوا حملات متعدِّدة صادقة ، وقتلوا من التتار مقتلةً عظيمةً جدًّا . ورجع التتار الذين اتَّبعوا المنهزمين من المسلمين ، فوجدوا أصحابهم قد كُسروا ، والعساكر في آثارهم يقتُلون ويأسرون ، والسلطان ثابت في مكانه تحت السناجق ، والكوسات تضرب خلفه ، وما معه إلّا ألف فارس ، فطمعوا فيه ، فقاتلوه ، فثبت لهم ثباتًا عظيمًا ، فانهزموا من بين يديه ، فلحقهم فقَتَل أكثرهم ، وجرح « منكوتمر » قائد جيش التتار ، وكان ذلك تمام النصر . ودخل السلطان إلى دمشق وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شقف رؤوس القتلى ، وكَثُرت للسلطان المحبَّة والأدعية . وأما التتر - الذين أتوْا في المعركة في مائة ألف مقاتل أو يزيدون - فإنهم انهزموا في أسوأ حال وأتعسه ؛ يُتخطَّفون من كلّ جانب ، ويُقْتلون من كلّ فجّ ، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم ، ونزل إليهم أهل « البيرة » فقتلوا منهم خَلْقًا كثيرًا وأسروا آخرين ، والجيوش في آثارهم

يطردونهم عن البلاد ، حتى أراح الله منهم الناس » .

وفي سنة أربع وثمانين وستمائة ، توجَّه قلاوون حتى نازل حصن « المرقب » ثمانية وثلاثين يومًا ، وأخذه عَنوة من الفرنج ، وخرج فرسان الأسبتارية من حصنهم يعلوهم ذلُّهم . وأثار تحرير حصن المرقب شعور الذُّعر في وسط الفرنج الصليبيين الذين يحتلون عكا .

قلاوون يحرِّر اللّاذقيّة وطرابلس :

أرسل السلطان قلاوون مجموعة قتاليّة بقيادة الأمير حسام الدينَ طرنطاي ، فسقطت اللاذقية في قبضته سنة ٦٨٦ هـ . ثم سار السلطان قلاوون في سنة ثمان وثمانين لغزو الفرنج بطرابلس ، فنازلها أربعة وثلاثين يوما حتى فتحها عنوة في رابع ربيع الآخر ، وهدمها جميعها ، وأنشأ قريبًا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن .

واستقبل الإفرنج والسكان في عكا أنباء تحرير طرابلس بالذهول ، فقد كانت الصدمة كبيرة .

ولما انتهك أهل عكا الهدنة مع المسلمين سار إليها السلطان قلاوون على رأس جيشه بعد أن أقسم في رسالةٍ بعث بها إلى النصارى ، ألّا يترك في المدينة مسيحيا على قيْد الحياة ... لكنه لم يكد يبدأ بالمسير ، حتى سقط مريضًا ، وبعد ستة أيام فقط قضى نَحْبه وهو في طريقه للجهاد ، فاستدعى ابنه الأشرف وهو على فراش الموت ، وحَمَله على أن يقطع وعْدًا بأن يواصل حملته ، ويحقِّق هدفه .

الملك الأشرف خليل ، يفتح عكا ، ثم يدمِّرها سنة ٦٩٠ هـ :

سار الملك الأشرف لفتح عكا بجيش يضمُّ ستين ألف فارس ، ومائة وستين ألفًا من المشاة ، ومعهم العرَّادات ، والمجانيق التي اشتُهرت باسم « الثيران السوداء » ..واحتشد النصارى - من الدَّاوِيَة والأسبتارية - وفئة من الإنكليز والألمان ومقاتلي قبرص ، وانضمَّ إليهم بعد مدّة ملك قبرص « هنري » ، وكانت

تحصينات المدينة قويّة ومتينة .

ونصب السلطان الأشرف على عكا اثنين وتسعين منجنيقًا ، وقاتل مَن بها من الفرنج أربعةً وأربعين يومًا حتى فتحها عَنوة ، في يوم الجمعة السابع عشر جمادى الأولى ، وهدمها كلَّها بما فيها وحرقها .

ولله درُّ الأشرف ، حين أرسل إليه الملك هنري - أثناء الحصار - فارسين من الدَّاوِيَة لمحاولة عقد هدنة ، فاستقبلهما الأشرف خارج خيمته ، وسألهما في إيجاز ما إذا كانا قد أحضرا معهما مفاتيح المدينة؛ فلما أنكرا، قال لهما: إن ذلك هو الموضع الذي يطلبه ، ولا يهمُّه مصير سكان المدينة ، غير أنه تقديرًا منه لشجاعة الملك ؛ بقدومه للقتال وهو لا زال حَدَثًا ، فضلًا عن مرضه - فإنه سوف يُبقي على حياتهم إذا ما استسلموا له . وفي أثناء حديثه لهما ، قذفت عرَّادة من الأسوار حجرًا سقط قُرْب الجماعة ، فاستشاط السلطان غضبًا ، وسلَّ سيفه وهمَّ بقتْل السفيرين ، ولكن الأمير « الشجاعي » تدخَّل فمنعه من ذلك ، وقال له بأنه لا يصحّ أن يدنِّس سيفه بدماء الخنازير . ثم سمح للفارسين بالعودة إلى ملكهما .

ولم تكد عكا تقع في قبضة الأشرف ، حتى شرع في تدميرها ، واستباحة دورها وأسواقها، ثم إشعال الحريق بها ، كما تمَّ تدمير الأبراج والقلاع المنيعة ؛ إذ عَزَم على ألّا تكون مرة أخرى رأس حربة لِمَا يقوم به الفرنجة الصليبيون من اعتداء على بلاد الشام .

تحريرُ بقيَّة بلاد الشام : ثمن الفتاة في سوق الرقيق درهم واحد :

وجَّه الأشرف جيشًا لتحرير مدينة صور ، وكانت من أمنع المدن على سواحل بلاد الشام ، وقاوم الداوية في صيدا ، واحتلَّ السلطان حيفا وجبل الكرمل وطرسوس وعثليت .

جابت جيوش الأشرف بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها لمدة شهور

كاملة ، مدمِّرةً كلَّ ما تعتبره ذا أهمية للفرنج الصليبيين ، إذا ما حاولوا مرةً أخرى النزول إلى البر . وتقرَّر اجتثاثُ الأشجار ، وتعطيل أدوات الري ، وتطبيق ما يُعرف حديثًا باستراتيجية الأرض المحروقة .

بلغ عدد الأسرى عددًا كبيرًا ، وهبط ثمن الفتاة في سوق الرقيق إلى درهم واحد فقط .

كانت هناك مقاومة ضارية من فرسان الداوية والأسبتاريّة ، وكذلك البنادقة والبيازنة ، ولكن ما تجدي هذه المقاومة أمام حماس المجاهدين في سبيل الله .

فَتْح قلعة الروم ، ١١ رجب سنة ٦٩١ هـ :

سار الملك الأشرف إلى قلعة الروم، فافتتحها بالسيف قهرًا في يوم السبت حادي عشر رجب ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق ، وزُيِّنت البلد سبعة أيام ، وبارك الله لجيش المسلمين في سعيهم ، وكان يوم السبت إلبًا على أهل يوم الأحد ، وكان الفتح بعد حصار عظيم جدًّا مدة ثلاثين يومًا ، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقًا ، وقد قُتل من أهل البلد خَلْقٌ كثير ، وغنم المسلمون منها شيئًا كثيرًا .

وعاد السلطان إلى دمشق ، فاحتفل الناس لدخوله ودعَوْا له وأحبُّوه .

وقد امتدح « الشهاب محمود » الملِكَ الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أوّلها :

لك الرايةُ الصفراء يقدُمها النصرُ ... فمِنْ كيقبادان رآها وكيخَسرُو
إذا خفقتْ في الأرض هدَّتْ بنورها ... هوى الشِّركُ واستعلى الهُدى وانجلى الثَّغْرُ
وفتْحٌ أتى في إثْرِ فتح كأنَّما ... سماءٌ بدتْ تَتْرَى كواكبُها الزهرُ

فكم فطمت طوعًا وكرهًا معاقلًا مضى الدَّهرُ عنها وهْي عانسةٌ بِكْرُ
بذلتَ لها عزْمًا فلولا مهابةٌ كساها الحيا جاءتْك تسعى ولا مهْرُ
قصدتَ حمًى من قلعةِ الرومِ ولم يُتَحْ لغيرك إذْ غرَّتهم المَغْلُ[1] فاغترُّوا
ووالْوهم سرًّا ليُخفوا أذاهمُ وفي آخِرِ الأمر استوى السِّرُّ والجَهْرُ
صرفتَ إليها همَّةً لو صرفتَها إلى البحرِ لاستولى على مدِّه الجزرُ
وما قلعةُ الرومِ التي حُزْتَ فتْحَها وإن عظمتْ إلا إلى غيرها جسْرُ
طليعةُ ما يأتي من الفتح بعدها كما لاح قبل الشمس في الأفق الفجرُ
فصبحتها بالجيش كالروْض بهجةً صوارمُه أنهارُه والقَنَا الزُّهْرُ
ليوثٌ مِن الأتراك آجامُها[2] القنا لها كلّ يومٍ في ذرا ظفرٍ ظفْرُ
عيونٌ إذا الحرب العَوانُ[3] تعرَّضتْ لخُطَّابها بالنفس لم يُغْلِها مَهْرُ
إذا صدَموا شُمَّ الجبال تزلزلتْ وأصبح سهلًا تحت خيلهمُ الوَعْرُ[4]
ولو وردتْ ماءَ الفرات خيولُهم لقِيل هنا قد كان فيما مضى نَهْرُ
كأنَّ المجانيقَ[5] التي قُمْنَ حولها رواعدُ سُخْطٍ وَبْلُها النارُ والصَّخْرُ
أقامت صلاة الحرب ليلًا صخورها فأكثرُها شفعٌ وأكبرُها وِتْرُ
وشبّتْ بها النيرانُ حتى تمزَّقتْ وباحتْ بما أخفتْهُ وانهتك السِّتْرُ
فلاذوا بذيل العفو منك فلم تُجبْ رجاءَهمُ لو لم يَشُبْ قصْدَهم مكرُ
وما كره المغْلُ اشتغالك عنهمُ بها عندما فرّوا ولكنَّهم سرّوا
فأحرزتها بالسيف قهرًا وهكذا فتوحك فيما قد مضى كلّه قَسْرُ

---

(١) المغل : المغول .

(٢) آجامُها : جمع الجمع من أجمة ، وهي الشجر الكثير الملْتَف ، ومأوى الأسد .

(٣) الحرب العوان : أشدُّ الحروب .

(٤) الوعْرُ : الأرض الصعبة المسالك .

(٥) المجانيق : آلة لقذْف الحجارة والنار إلى مسافات بعيدة ، كالمدفعية .

فأضحتْ بحمد الله ثغرًا مُمنَّعًا	تبيد الليالي والعدى وهو مفترُّ
فيا أشرفَ الأملاكِ فُزْتَ بغزوةٍ	تحصَّل منها الفتح والذِّكْرُ والأجْرُ
لِيَهْنِيكَ عند المصطفى أنَّ دينَه	توالى له في يُمْن دولتك النصرُ
وبُشْراكَ أرضْيتَ المسيحَ وأحمدًا	وإن غضب اليعفورُ من ذاك والكفرُ
فسِرْ حيث ما تختار فالأرضُ كلُّها	تطيعك والأمصار أجمعها مصرُ
ودُم وابق للدنيا ليحيا بك الهدى	ويزهى على ماضي العصور بك العصرُ[(١)]

سيذكر التاريخ بكلٍّ فخر للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، علوَّ همَّته على اقتلاع آخر مواقع الفرنج ، الذين بقوا - وعلى امتداد مائتي سنة - جسمًا غريبًا في كيان العالم الإسلامي ، مما أدّى في النهاية إلى لفْظِهم وطردهم ، وتحرير البلاد الإسلامية من وجودهم .

وانهار كلُّ ما أقامه الفرنج ، وما جهدوا لتصنيعه دفعةً واحدة ، وكأنه بناء فوق الرمال ، أو بناء من الثلْج لم تلبث أن صهرته حرارة الشمس .

قبرص .. قبرص .. قبرص :

وفي سنة ١٢٩٢ ، أرسل ملك قبرص « هنري » خمس عشرة سفينة ، تساندها عشر سفن من لدى البابا ، فأغارت على الإسكندرية ، وارتكبت مذابح رهيبة ، ولكن مقاومة المسلمين الضارية أرغمت الحملة على الانسحاب .

« وأدَّت هذه المحاولة الفاشلة، إلى زيادة تصميم السلطان الأشرف خليل على فتح الجزيرة، فأمر بعمارة مائة سفينة، وكان يتابع الاستعدادات وهو يهتفُ: « قبرص ، قبرص ، قبرص » . كما كانت لديه مخطَّطات أكبر تزيد في أهميتها على ما كانت تحتلُّه قبرص من أهمية في تفكيره وعمله ؛ إذ كان لا بدّ له قبل كل شيء من سَحْق المغول ، وتحرير حاضرة الإسلام من طغيانهم .

(١) البداية والنهاية ١٣/٣٤٧ - ٣٤٩ .

وفيما كان السلطان الأشرف يمضي قُدُمًا في استعداداته الطموحة ، قُتِل غِيلةً ، وجاء اغتيالُه ضربةً قاصمةً للمسلمين ، كما جاء بمثابة مكافأة حقيرة لهذا الشابِّ قوي العَزِيمة ، والذي أتمَّ رسالة صلاح الدين وقطز وبيبرس وقلاوون ، فطرد آخر ما تبقَّى من الفرنج من بلاد الشام »[1] .

الملك الناصر محمد بن قلاوون ؛ « له في موقعة شَقحب اليدُ البيضاء من الثبات »[2] ، وبها انتهى أمر التتار إلى الأبد :

الملك الناصر أبو الفتح محمد بن قلاوون ، من كبار ملوك دولة المماليك . وفي عصره كانت معركة « شَقحب » أو معركة « مرج الصُفرْ » في اليوم الثاني من رمضان سنة ٧٠٢ هـ ، وكان عدد الجيش المغولي الذي اشترك في هذه الموقعة كبيرًا ، يقدِّره بعضهم بخمسين ألف مقاتل ، وهناك مَن يقول : إن عدده يصل إلى مائة ألف . وقد كان في عداد هذا الجيش فرقتان من نصارى الكرج والأرمن .

والسبب في سيْر هذه الحملة التتارية ، هي رغبة «قازان» ملك التتار في تحطيم سلطان المسلمين في مصر، واسترداد الأرض المقدَّسة وتسليمها إلى النصارى، وأناب عنه في هذه الحملة «قطلوشاه» الذي تعاون مع النصارى تعاونًا كبيرًا .

وانزعج الناس لمسير التتار ، واشتدَّ خوفهم جدًا - كما يقول ابن كثير - وقام شيخ الإسلام ابن تيمية بمهمَّةٍ جسيمةٍ في إشراك الخليفة والسلطان في مواجهة هؤلاء الغزاة ، بعد أن راح المثبطُون يُوهنون عزائم المقاتلين ؛ بأن لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار .

وفي يوم المعركة نظَّم المسلمون جيشهم أحسن تنظيم ، وكان السلطان الناصر في القلب ، ومعه الخليفة « المستكفي بالله » والقضاة والأمراء .

---

(١) الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة صـ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) من كلام الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة عن الناصر .

وقبل بدء القتال ، مرَّ السلطان ومعه الخليفة والقرَّاء بين صفوف جيشه ، بقصْد تشجيعهم على القتال، وبثِّ روح الحماسة فيهم. وكانوا يقرءون آيات القرآن التي تحضُّ على الجهاد والاستشهاد ، وكان الخليفة يقول : دافعوا عن دينكم، وعن حريمكم. ووُضعت الأحمال وراء الصفوف، وأُمِرَ الغلمان بقتْل من يحاول الهرب من المعركة .

ولمَّا اصطفَّت العساكر والتحم القتال ، « ثبت السلطان ثباتًا عظيمًا ، وأمر بجواده فقُيِّد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف »[1] ، يريد إحدى الحسنيين ؛ إمّا النصر ، وإمّا الشهادة في سبيل الله . وصَدَقَ اللهَ فصدقه اللهُ .

واحتدمت المعركة ، وحمي الوطيس ، واستحرَّ القتْل ، واستطاع المغول في بادئ الأمر أن ينزلوا بالمسلمين خسارةً ضخمةً ، فقُتِل من قُتِل من الأمراء ، ولكنَّ الحال لم يلبث أن تحوّل بفضل الله عز وجل ، وثبت المسلمون أمام المغول ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً ، « فلمّا جاء الليل ، لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ؛ فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقْت الفجر ، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلَّا الله عز وجل ، وجعلوا يجيئون بهم من الجبال فتُضرب أعناقهم »[2] ، ثم لحق المسلمون أثر المنهزمين إلى « القريتين » يقتُلون منهم ويأسرون .

ووصل التتار إلى الفرات وهو في قوة زيادته ، فلم يقدروا على العبور ، والذي عبر فيه هلك ، فساروا على جانبه إلى بغداد ، فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات ، وأخذ العرب منهم جماعة كثيرة .

---

(١) البداية والنهاية ٢٧/١٤ .

(٢) البداية والنهاية ٢٦/١٤ .

وكان فرح المسلمين والسلطان بهذه المعركة فرحًا كبيرًا . ودخل السلطان مصر دخول الظافر المنتصر ، يتقدَّم موكبه الأسرى المغول يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى ، واستُقبل استقبال الفاتحين .

إن البغاةَ بني خاقانَ أقدمَهم على هلاكهم الطغيانُ والأشَرُ
راموا - وقد حشدوا - غَلَبًا فما غَلَبوا وحاولوا النصرَ تضليلًا فما نُصِروا
يا وقعةَ المرجِ مَرْجِ الصُّفّر افتخرت بك الوقائعُ في الآفاق والعصُرُ
رفعتِ بالنصر أعلام الهدى و لقد جرَّدتِ للشرك كسرًا ليس ينجبرُ

لقد كانت هذه الحملة التتارية ، هي آخر الحملات الكبرى التي قام بها هؤلاء المتوحِّشون .

دارتْ عليهم من الشجعانِ دائرةٌ فما نجا سالمٌ منها وقد زحفوا
ونكَّسوا منهم الأعلامَ فانهزموا ونكَّصوهم على الأعلام فانقصَفوا
فرّوا من السيف ملعونين حيث سَرَوْا وقُتِّلوا في البراري حيثما ثُقفوا[١] .

قال ابن حجر في « الدرر الكامنة » عن السلطان الناصر : « فُتحت في أيامه قلعة « جعبر » و « ملطية » و « دارندة » و « آياس » و « طرسوس » ، وسمع من ستِّ الوزراء وابن الشحنة ، وكان مطاعًا مَهيبًا عارفًا بالأمور ، يعظِّم أهل العلم والمناصب الشرعية ، لا يقرِّر فيها إلّا من يكون أهلًا لها ، ويتحرَّى لذلك ويبحث عنه ويبالغ ، وأسقط من مملكته مَكْس الأقوات »[٢] .

كانت للناصر سيرةٌ محمودة ، ولو لم يكن له إلّا قتْل « بيبرس الجاشنكير » الحلولي الاتحادي عدو ابن تيمية اللَّدود ؛ لكفاه . واعتنى بالعمران حتى أضحتْ القاهرة زينة الدنيا ، واقتدى الناس به فتباروا في العمران ، يقول المقريزي :

---

(١) معركة شَقحب أو معركة مرج الصفر لمحمد لطفي الصباغ - المكتب الإسلامي .
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٤ ، طبع أم القرى . ومَكْسُ الأقوات : هي الضريبة التي تُفرض على الأقوات .

« وكأنما نُودي في الناس : ألّا يبقى أحدٌ حتى يعمر ، وذلك أن الناس على دين ملوكهم » . وقال الزركلي : « وأحدث من العمران ، ما ملأ ذكْرُه صفحتين من كتاب المقريزي » .

وكان كريمًا غاية في الكرم ، وكان عفَّ اللسان ، لم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدَّة غضبه ولا انبساطه ، وكانت عنده غيرة على الدين ، ورعاية لأحكامه .

دولة المماليك :

لقد كانت دولة المماليك ، التي امتدَّت من سنة ٦٥٨ حتى ٩٢٣ هـ ، المدافع الأول عن الإسلام ، وقد استطاعت هذه الدولة أن تطهر بلاد المسلمين من بقايا الصليبيين ، وأن تُنهي أمر التتار إلى غير رجعة ، وأن تدافع عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وكانت أيامها أيام نضْجٍ علمي ، عمَّت فيه المدارس والجامعات ربوعَ مصر والشام .

ملوك الإسلام في الهند .. أبطال الملاحم :

قال الشيخ أبو الحسن الندوي : « لم تزل ولا تزال خليّة الإسلام في الهند تَعْسل، والشجرة التي غرستها اليدُ الكريمة المخلصة، وسقاها الصالحون من عباد الله بدموعهم والمجاهدون في سبيل الله بدمائهم في كلِّ عصر ، تُثْمر وتؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربِّها »[(١)] .

وإليك طرفًا من عَسَل ملوكهم ، مذابًا في علو همَّتهم .

---

(١) المسلمون في الهند ، لأبي الحسن الندوي صـ٦١ . نشر المجمع الإسلامي العالمي بالهند .

شهاب الدين الغوري ؛ يُعلي الأذان في دلهي :

الغوريـون من منطقة « الغور » في أفغانستان ؛ فتحوا السِّنـد ، وقضَـوْا على القرامطة ، وحازوا جميع ممتلكات الغزنويين ، تحت زعامة « شهاب الـدين الغوري » ؛ وملك شمال الهند ، وبلغت جيوشه « دلهي » ، وأعْلى فيها منارةَ الإسلام ، ودوَّى فيها الأذان ، وقامت دولة الإسلام في الهند مركزها « دلهي » ، وكان مع السلطان شهاب الدين الغوري قائده « قطب الدين أيبك » يفتح المدن بسيفه ، والشيخ « معين الدين الجيشي » يفتح القلوب بدعوته .

وأتى شهاب الدين في هبواته ... سيفًا يَفـلُّ وعزمـةً لـم تُجْهَـدِ
ومضى على ساحـاتها لا ينثني ... حتـى يمـدَّ لـدينه صِـدْق اليـدِ
وضممتَ أقطارًا إليك فأصبحت ... عِقْـدًا يمـوج بلؤلـؤ وبعَسْجـدِ
وازيَّنـتْ دلهـي وآيـة حسْنهـا ... إشـراقة التوحـيد طلعـة مُهْتَــدِ
وجمعتَ أطرافَ الممالـك أُمَّة ... بجهـادِها المتـواصلِ المتجدِّدِ

بهلول لودي :

حكم سبعًا وثلاثين سنة ؛ اتَّسع خلالها سلطان دلهي ، وضمّ جميع الإمارات التي كانت تابعةً له حين كان يحكم « لاهور » ، واتَّسع ملكه باتجاه الجنوب . وكان ملكًا صالحًا ، عادلًا شجاعًا ، صادق القول ورِعًا ، يبذل الجهد باتبـاع السُّنة ، ويجالس العلماء ويكرمهم .

مظفَّر الحليم الكجراتي ؛ مَثَلٌ عظيم للملوك :

من أهمِّ ملوك الدولة الإسلامية في « الكجرات » (٨١٠ هـ - ٩٦٥ هـ) : « وكان مثلًا عظيمًا للملوك ، جمع من الفضْل الشيءَ الكثير ؛ كان من حُفَّاظ القرآن ، ومن المحـدِّثين الفقهاء ، تقيًّا متسامحًا ، حتى سُمِّي بـ « الحليم » ، وكان مُلِمًّا بعلوم زمانه، ماهرًا في الفنون الحربية، ماهرًا بالخطِّ وبجميع أنواعه، كتب

مصحفين بيده أهداهما للحرمين الشريفين .

ولقد أغار في زمانه أحد ملوك الهندوس على مملكة « مالوه » الإسلامية ، التي كان يحكمها « محمود شاه الخلجي الثاني » ، فاستنجد محمود الخلجي بمظفّر الحليم الكجراتي ، فأنجده وطرد الهندوس ، فعرض عليه محمود الخلجي أن يكون هو السلطان على « مالوه » ، فقال له مظفَّر : « إن أول خطواتي إلى بلادك ، كانت في سبيل الله تعالى لنصرتك ، والحمد لله قد تمَّ لنا النصر ، فبارك الله لك في ملكك » . ووعده بالمساعدة دائمًا ، وأبقى عنده بعض جيوشه .

أنشأ رحمه الله في مكة رباطًا ومدرسةً وسبيلًا للماء ، وجعل لها وقفًا ينفق على المدرسين ، والطلبة ، ومن يقيم بالرباط » .

قال الشيخ أبو الحسن الندوي عن السلطان مظفر حليم ، في كتابه « المسلمون في الهند » : « ومنهم السلطان الفاضل العادل ، المحدث الفقيه : مظفر حليم الكجراتي ، الذي روى عنه التاريخ من نوادر الإخلاص والإيمان ، والاحتساب والتقوى ، والعمل بالعزيمة ، والعدل والإيثار ، والحميَّة في الدين ، والتبحُّر في العلم، ما يندر وجوده في سير كبار الزهَّاد والربَّانيين وكبار المخلصين فضلًا عن الملوك والسلاطين » .

يقول مؤرِّخ « كجرات » : « لمَّا ساءت إدارة السلطان محمود الشاه الثاني – سلطان « مالوه » – عزله الوزير « مندل رائي » ، وعكف مندل على مَحْو الشعائر الإسلامية ، ونشْر الطقوس ؛ فثارت حفيظة وحميّة السلطان مظفر – وكان واليًا على كجرات – فزحف إلى « مالوه » بجيش عرمرم ، ووصل إلى باب « مالوه » بعد أن قطع مسافة طويلة ، وانتصر السلطان ، وفتح القلعة . ولما استعرض رُفْقتُه ما تركه ملوك « مالوه » من النعيم والخزائن والثروات الطائلة ، قالوا للسلطان : إن أكثر من ألفي فارس استُشهدوا في القتال ، فليس من المناسب أن نتخلّى عن هذه البلاد بعد هذه الخسائر الجسيمة ، ونولّي إمارتها للملك

الذي كان سببًا في إتلافها . فلمَّا سمع السلطان مظفر هذا الكلام توقَّف قليلًا ، ثم خرج من القلعة ، وأمر السلطان محمود بأن لا يسمع لأحدٍ من رفقته بالدخول في القلعة ، وقال : « إنه خشي من كلام الأمراء ، أن يدور بخلده طمع في القلعة ويُحبط عمله ، إنه لم يحسن إلى السلطان محمود ، بل إن محمودًا نفسه هو الذي أحسن إليه ، بأنه كان سببًا في نَيْل هذا الشرف العظيم »[(١)] .

قال السلطان حليم – في مرض وفاته ، تحديثًا بنعمة الله –: « ما من حديث رَويتُه عن أستاذي المسند العالي « مجد الدين » بروايته عن مشايخه ، إلّا وأحفظه ، وأُسنده ، وأعرف لراويه نِسْبَته ، وثقته ، وأوائل حاله إلى وفاته . وما من آيةٍ ، إلّا وقد منَّ الله عليَّ بحفظها ، وفَهْم تأويلها ، وأسباب نزولها ، وعِلْم قراءتها . وأمّا الفقه ، فإني أستحضر منه ما أرجو به مفهوم : « من يُرد الله به خيرًا ، يُفقِّهْهُ في الدين ». ولي مدَّة أشهر أصرف وقتي باستعمال ما عليه الصوفية ، وأشتغل بما سَنّه المشايخ لتزكية الأنفاس عملًا بما قيل: «مَن تشبَّه بقوم فهو منهم». وها أنا أطمع في شمول بركاتهم متعلِّلًا بعسى ولعل ، وكنتُ شرعت بقراءة معالم التنزيل، وقد قاربت إتمامه، إلّا أني أرجو أن أختمه في الجنة إن شاء الله تعالى».

وفاضت روحُه ، وهو يدعو بدعاء سيدنا يوسف – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – : ﴿ **ربِّ قد آتيتني من المُلك وعلَّمتني من تأويلِ الأحاديث فاطِرَ السموات والأرضِ أنتَ وليي في الدنيا والآخرة توفَّني مُسْلمًا وألحقني بالصَّالحين** ﴾ [يوسف : ١٠١][(٢)] .

---

(١) القصة مبسوطة في تاريخ كجرات للآصفي المعروف بـ « ظفر الواله » ، وكذلك في نزهة الخواطر جـ٤ .

(٢) المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي صـ٥١ – ٥٣ .

دولةُ المغول المسلمة في الهند ٩٣٢ هـ - ١٢٧٤ هـ :

« العهد الذهبي للمسلمين في الهند » :

يمثِّل عهد المغول الفترة الذهبيّة لحُكْم المسلمين في الهند ، حيث امتدَّت العلوم والثقافة ، ومختلف مظاهر الحياة الإسلامية ، مع امتداد رقعة الدولة المسلمة ، واشتداد سلطانها وهيبتها ونفوذها .

بدأ حكم المغول في الهند حين زحف إليها .

ظهير الدين « محمد بابر »مؤسِّس الدولة المغولية المسلمة في الهند :

وهو الحفيد الرابع لتيمورلنك ؛ زحف من مدينة كابل في أفغانستان ، واحتلَّ دلهي التي كان يحكمها السلطان « إبراهيم اللودهي » ، وانتصر بجيش تعداده ١٢ ألف مقاتل من المغول ، على جيش إبراهيم اللودهي الذي كان تعداده مائة ألف ، ودخل دلهي فاتحًا ، في ١٥ رجب سنة ٩٣٢ هـ ، ونودي به ملِكًا على الهند .

الملك العظيم الراشد : أورانك زيب عالمكير ؛ « لا نظيرَ له في علو الهمَّة وقوة الإرادة في ملوك العالم » :

حكم وهو في الأربعين من عمره ، ففتح البلاد ، ونشر الأمن والعدل . وامتدَّت دولة الإسلام من سفوح « همالايا » في الشمال ، حتى شواطئ البحر في أقصى الجنوب . ومع هذه الفتوحات العظيمة ، كان ينظرُ في كلّ شئون المُلك وقضايا الرعية بِمثْل عين العُقاب ، فأزال كلَّ آثار زندقة الملك « جلال الدين أكبر » ، وعدَّل الضرائب ، ومدَّ الطرق العظيمة ، وبنى المساجد في أنحاء الهند وجعل لها أئمـةً ومدرسين ، وأسَّس دورًا للعَجَزَة ، ومارستانات للمعتوهين ، ومستشفيات للمرضى ، ودوَّن الأحكام الشرعية والفتاوى في كتابٍ واحد يُسمَّى

اليوم : « الفتاوى العالمكيرية » واشتُهرت بـ « الفتاوى الهندية » ، وألغى امتيازات المُلْك ، وألّف كتابًا في الحديث فقد كان عالمًا ، وعكف على دراسة القرآن الكريم ، وكان يكتبه بخطِّه ويبيع المصاحف ليعيش بثمنها ، بعد أن زهدت نفسُه أموال المسلمين ، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ولا يتركها ، والجمعة في المسجد الكبير ، وكان يصوم رمضان في كلِّ أحواله ويُقيم لياليه بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر ، ويداوم على الوضوء وعلى الأذكار ، ويمدُّ أهل الحرمين بالصلات ، وكان شديدًا في حَزْمه وعَزْمه ، بارعًا في فنون الحرب . وفي الإدارة والتنظيم .

حكم الهند خمسينَ سنة ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره . ومع أنَّ مفاتيح كنوز الهند كلَّها كانت بيده ، ولكنه عاش عيشة الزهد ؛ وكان يمرُّ عليه رمضان كلّه فلا يأكُل إلّا أرغفة من خُبْز الشعير ؛ من كَسْب يمينه ، لا من أموال الدولة .

فرحمةُ الله على الملك « أورانِك زيب عالمكير » ، تلميذ الشيخ أحمد السرهندي مجدِّد الألف الثاني بالهند ... رحمة الله على هذا الملك ، الذي توفّي سنة ١١١٨ هـ . تاركًا وراءه سيرة نهج فيها نَهْج الخلفاء الراشدين .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « المسلمون في الهند » (صـ ٥٠ - ٥١): « الذي يقرأ سيرة السلطان أورانك زيب عالمكير ، وما جمع من فضائل علمية وعملية ، ويقرأ تاريخه الحافل بجلائل الأعمال ، ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم يُقطع ولم يتوقَّف يومًا واحدًا في خمسين سنة حَكَم فيها ، وفتوحاته العظيمة ، وإصلاحاته الكبيرة ، وتقشُّفه في الحياة ، وتحمُّله للشدائد ، واستقامته ، وصلابته ، ومغامراته في سنٍّ عالية ، تسعين سنة ، ولم يزل مرابطًا مناضلًا إلى آخر ساعاته ، ويقرأ نظام أوقاته ، ومحافظته على الفرائض والسُّنن ، مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره ، واشتغاله بالعبادات والعلم والمطالعة -

آمن بأنَّ هذا الرجل لا نظير له في علوِّ الهمّة وقوة الإرادة في ملوك العالم ، وأنه خُلِق من حديد ، وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور ، وفي جميع الأجيال » .

لله درُّك يا « أُرَنَكْ زِيبُ » اهتدتْ	بك أُمَّةٌ فاخشـعْ لربِّك واسجدِ
كم شدتَ من دارٍ لعلمٍ نافعٍ	وأقمتَ من حصنٍ بها أو مسجدِ
وعلتْ مـآذنُهَا يشـقُّ نداؤهـا	« الله أكبـر » كـلَّ أُفْـق أرْبَـدِ
ورويتَ من عطشى فكم من تائهٍ	آويـتَ بـين ظـلالِها أو مُجْهَـدِ
ورفعـت بنيانـًا أعـزَّ وقلعـةً	للـدين تحرُسُهـا كبـودُ السُّهَّـدِ
خمسـون عامًا كـل عـام درَّةٌ	في المجد نادرةٌ وزهْوَةُ سـؤددِ
يـا سـادسَ الخلفاءِ رُشْدُك آيـةٌ	للنـاس مُلْهِمَـةٌ ولهفـةُ مقتـدي

الحاكم العبقري : شيرشاه السوري ؛ فريد في العصور والأمصار :

قال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « المسلمون في الهند » صـ٥٠ : «الذي يقرأ سيرة الحاكم العبقري «شيرشاه السوري» (٩٥٢ هـ)، ويعرف مآثره في إدارة البلاد ورفاهيتها ، ومشاريعه العمرانيّة، الضخمة البديعة ، وقوانينه العادلة ، وتشريعاته الدقيقة وإنتاجه السريع الضخم ، ويعرف أنَّ كلّ ذلك قد تمَّ في خمس سنوات فقط – وهي المدّة التي حَكم فيها شيرشاه – وبعضه يعجزُ عنه الحكومات الكبيرة المنظمة ، في آجال طويلة . ولم يستطع كثير من الملوك والحكام الإنجليز – على كثرة الوسائل ، وتقدُّم المدنيَّة ، وحدوث الآلات – أن يأتوا ببعض ما أتى به هذا الملك العصامي في عصرٍ مختلفٍ في الصناعة والمدنيَّة – يُبْهر بعظمة هذا الرجل ، ويؤمن بعبقريَّته ، ويصدِّق أن هذا الرجل فريدٌ في العصور والأمصار ، ويستحقُّ أن يُوضع في صفِّ أعاظم الرجال في العالم » .

ويقول عنه في صـ٢٥ – ٢٦ : « أنشأ شيرشاه السوري الشارع الطويل

« سنار كاؤن » إلى ماء « نيلاب » ، مساحته اثنتان وثلاثون وثمانمائة وأربعة آلاف (٤٨٣٢ كم) ، وأسَّس في كلِّ ثلاثة كيلو مترات رباطًا ، ورتَّب هناك مائدتين ؛ مائدة للمسلمين ، ومائدة للهنادك . وأسَّس مسجدًا على كلّ ثلاثة كيلو مترات ، ووظَّف مؤذِّنًا ومقرئًا وإمامًا في كلِّ مسجد ، وعيَّن في كلّ رباطٍ فرسين للبريد ؛ فكان يُرفع إليه أخبار « نيلاب » إلى أقصى بلاد « بنغال » كلّ يوم ، وغرس الأشجار المثمرة بجانبي الشارع ؛ ليستظلَّ بها المسافر ويأكُل منها » .

السلطان فتح علي خان « سلطان تيبو » ؛ يسْتشهد في قتاله ضدَّ الإنجليز قائلًا : « يومٌ من حياة الأسد ، خيرٌ من مائة سنةٍ من حياة ابن آوَىٰ » :

قبل أنْ يتغلغل الإنجليز في الهند ، كانت العزَّةُ كلُّ العزَّةِ للمسلمين في الهند ؛ حتى إنَّ مبعوث ملك إنجلترا « جيمس الأول » ظلَّ أكثر من سنتين في الهند يحاول مقابلة الإمبراطور « جهانكير » ، فلم يظفر بما أراد ، فالتمس أن يأخذَ رسالةً منه يحملها إلى ملك إنجلترا ، فردَّ عليه الوزير الأول في البلاط الملكي : « إن مما لا يُناسب مكانة ملِكٍ مغولي مسلم ، أن يكتبَ رسالة إلى سيِّد جزيرةٍ صغيرة يسكُنها صيَّادون مسلمون »[1] . هكذا يُردُّ على الصَّلف الإنجليزي ...

وبعد ذلك غفل المسلمون في الهند ، واحتلَّ الإنجليز الهند ، وانتبه المسلمون لهذا الخطر ، وكان أوَّل من تنبَّه له الملِك الهمام « فتح علي خان » المشهور بـ «سلطان تيبو»؛ فبدأ يحاربُ الإنجليز حربًا لا هوادة فيها سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٩م، فحارب الإنجليز بكلِّ ما يملك من رجال وعتاد وقوة ، وحرَّض أمراء مختلف مناطق الهند ، وحاول الاتصال بالسلطان سليم العثماني وملوك المسلمين ، وراسلهم .

(١) الدعوة الإسلامية وتطورها في الهند . للدكتور محيي الدين الألوائي صـ٣٦ .

وكاد ينهار كلُّ ما بناه الإنجليز في الهند ، لولا أنهم نجحوا بمكْرهم بضمِّ أمراءِ الهند - في جنوب البلاد - إليهم ، فتغيَّر ميزانُ المعركة ، وسقط الملك المسلم المجاهد البطل صريعًا في المعركة يوم ٤ مايو سنة ١٧٩٩ م وآثر الموت في ساحة القتال على الأسْر في يد الإنجليز ، وقال كلمته المشهورة : « يومٌ من حياة الأسد ، خيرٌ من مائة سنة من حياة ابن آوَىٰ » . ولما بلغ القائد البريطاني نبأ مصرع السلطان تيبو ، حضر ووقف على جثمانه ، وقال : اليوم الهند لنا . ولقد كتب غاندي مقالةً في صحيفة « الهند الفتاة » عن عظمة هذا السلطان وصدقه ، وقال في جملة ما قال : لا نعرف أعظم منه في شهداء الوطن والأمة .

« ولم تعرف الهند في تاريخها الطويل ، قائدًا أعلى همَّةً ، وأبعدَ نظرًا ، وأشدَّ عداءً للإنجليز من « تيبو سلطان » ، ولم يكن في الهند شخصية أبغض لقلوب الإنجليز منه . حتى إنهم كانوا يسمُّون كلابَهم باسمه شفاءً لحقدهم الأسود ، وإهانةً لرمزٍ من رموز الجهاد الإسلامي »[1] .

سلطان تيبو ما أجلَّ وفاءَه ... وأعزَّ وَثْبَتَهُ وأطهرَ مقصدِ
نهضت جموعُ المسلمين لجولةٍ ... لله تدفع كلَّ عَزْمٍ منجِدِ
كلٌّ يقول لنفسه إن راعها ... خَطَرٌ سبيلُ اللهِ أبلجُ فاشْهدي
وأبى الإسارَ وشدَّ في حَمَلَاتِه ... تيبو وقال لنفسه هيًّا رِدي
يومٌ مِنَ الأسدِ الهزبرِ أعزُّ مِنْ ... عُمرِ الثعالبِ أو حياةِ الأسْوَدِ[2]
لله درُّك إذ حملتَ مع الرَّدى ... نفسًا تعزُّ وهمَّةً لم تَقْعُدِ[3]

---

(١) المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي صـ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) الأسْوَد : الحيَّة العظيمة .
(٣) ملحمة الإسلام في الهند صـ١١٧ .

جهاد السلطان « سراج الدين بهادرشاه » للإنجليز ، ونفيه إلى رانجون :

لما قاوم الشعب الهندي المسلم الإنجليز؛ كان الملك المغولي « سراج الدين بهادر شاه» قائد الجهاد ورمزه، وأدار الإنجليز مذابح فاقت مذابح جنكيز خان وهولاكو ، وقتلوا أبناء الملك بهادر ، وشنقوا ثلاثة وعشرين من أبناء الأسرة المالكة ، ونَفَوا الملك بهادر مع مَن بقي من أهله وحاشيته إلى رانجون ... وأداروا المجازر ؛ منها مجزرةٌ استمرت سبعة أيام ، شُنِق خلالها سبعة وعشرون ألف مسلم ...

رانجون أصبحتِ العرين فأبشري ... أسَدٌ على ميدانه لم يُصْفَدِ
حملوا إليكِ الليثَ من غاباتِه ... وأتوكِ بالبطل الأعزِّ الأمجدِ
يا عزَّ مأسورٍ وذلَّةَ آسر ... شتانَ بين مجاهدٍ أو معتدِ
أبهادرٌ أنَّى حللتَ فعزَّةٌ ... حلَّت هناك وطلعةٌ من فرقدِ
منفى الأبيِّ عُلًا ومَغْنًى زَاهِرٌ ... وذُرا الجبانِ وِهادُ سِجْنٍ موصَدِ

صدِّيق حسن خان : العالم الأثري ملك « بهوبال » :

تزوَّج الشيخ صدِّيق حسن خان بالملكة « شاهجهان بيجم » ملكة « بهوبال » ، وأصبح ملكًا لبهوبال ، ولم يشغلْه المُلْكُ عن تحصيل العلم ونشره ؛ فلقد ألَّف ولدُه محمد علي حسن كتابًا عن حياة أبيه باللغة الأردية سماه « مآثر صدِّيقي » في ستة أجزاء ، ذكر فيها عن مصنفاته التي بلغ عددها مائتي كتاب وأربعة ، تشكِّل الكُتب العربية منها ٥٤ ، والفارسية ٤٢ ، والأردية ١٠٧ . ومِن ضِمْنها كتاب : « رحلة الصديق إلى البيت العتيق » يذكُر فيه الشيخ رحلته بالسفينة الشراعية من « بومباي » إلى « جدَّة » للحجِّ ، استغرق سفره ثمانية أشهر ، من يوم أن غادر بلده إلى أن عاد إليها .

وقد لقي في هذه الرحلة من المشاقِّ الكثير بما يصفه بقوله : ضاقت علينا

الأرض بما رحُبت من طول الركوب ، ومخالفة الهواء ، وقلة المطعوم والمشروب ، حتى قنعت في اليوم والليلة بجرعة من الماء ، ولقيمات من الأرز الذي لم يخالطه شيء من السمن والإدام . وبلغت الأنفس التراقي في تلك الأيام ، وكانت الأيدي إلى السماء مرفوعة ، والأعين والآذان .

ويحكي في رحلته ما يُبِّين علوَّ همَّته ، فيقول : كتبتُ بيدي في المركب كتاب « الصارم المُنكي على نحْر ابن السُّبكي » للحافظ ابن قدامة المقدسي ، في مجلَّد وسط ، ولم أُضيِّع زمن ركوبي البحر عبثًا .

ويقول عن نزوله « الحديدة » باليمن – أثناء الرحلة –: وأقمتُ هنا اثني عشر يومًا ، أُراجع كتب الحديث ، وأكتُبُها بيدي ما أستطيع ، ولم أذهب إلى المساجد إلّا للصَّلوات الخمس لكثرة اشتغالي بطلب العِلْم . وفي أيام الإقامة بهذه البلدة أهديتُ نُسَخًا من كتابي «الحطة في ذِكْر الصحاح السِّتّة» لعلمائها وأهل العلم المقيمين بـ « المرادعة » و « بيت الفقيه » وغيرهما ، وكلُّهم استحسنوها ، ودعوا لمؤلفها. وقال لي الشيخ علي بن عبد الله– شارح البخاري– حين لاقاني : وجود مثلكم في هذا الزمان : من نِعم الله تعالى ، لو كانوا يعقلون . واستعرتُ رسائل السيد محمد الأمير – حين الرحيل من حديدة – لأجْل النظر والنقل ؛ فمنها ما نظرتُ فيها واستفدت ، ومنها ما نقلتُ واستنسختُ .

وقال أيضًا عن رحلته : ولم نترك الاشتغال بالعلم في هذه الفرصة القليلة – أعني أواخر ذي القعدة – بل حصَّلنا فيها بعض الكتب والفوائد . ويقول أيضًا : « ومن غاية الشغف بعلوم السُّنَّة ، لم أترك كتابة العلم بعرفة ومنى في أيام إقامتها ، لكن في غير أوقات المناسك .... وقد شاهدتُ في سفري هذا عجائب ، ورأيت فيه عدَّة مصائب ، واخترت الناس ، وميَّزتُ السفهاء من الأكياس ، ووقفتُ على رسوم القوم وبِدَعِهم ومحدثاتهم ، وانهماكهم في تحسين

الملابس والمطاعم والمناكح والمساكن ، وقصْر هممهم على ذلك ، وعدم رفْع رؤوسهم إلى السُّنن وما مات منها ، وضعف الإسلام ؛ وهذا شَينٌ لأهل الدين ، لا سيَّما لأهل مكة والمدينة ، الذين هم في خير بقاع الأرض ، وهم قدوة المسلمين ، خصوصًا الأئمة منهم ؛ وقد رأيتُ منهم الإسراف المنهيَّ عنه ؛ في طول الذيول والثياب وغيرها ، حتى رأيتُ العمائم كالأبراج ، والكمائم كالأخراج ، وبِدَعًا لا تُحصى ، ومحدثات لا تُستقصى . فرحم الله امرأ اجتنب عن ذلك ، وصان نفسه عما هنالك ، ونهى القوم عنِ هذه المناهي والمنكرات ، وجمعهم على التمسُّك بالسنة والكتاب ، وذكر مقامه ومقامهم بين يدي ربِّ الأرباب ، وخاف الله في كل ما يأتي به ويذر ؛ في الحضَر والسفر ، والحياة والممات ، وكل الأحوال »[1] .

لله درُّه من مِلِك ..وما أطيب مؤلفاته؛ « فتْح البيان » و « الدين الخالص » و « العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة » ، و « الجنة في الأسوة الحسنة بالسُّنَّة » ، و « يقظة أولي الاعتبار بما ورد في ذكْر أصحاب النار » ، و « الإذاعةُ لِمَا كان وما يكون بين يدي الساعة » ، و « الروضة النديّة شرح الدُّرر البهيّة للشوكاني » و « فتْح العَلّام شرح بلوغ المرام لابن حجر » ، و «حصول المأمول من عِلْم الأصول » ، و « الغنة ببشارة أهل الجنة » ، و « قطْف الثَّمر في بيان عقيدة أهل الأثر » ، و « تخريج الوصايا من خبايا الزوايا » ، و « قصْدُ السبيل إلى ذمِّ الكلام والتأويل »[2] ، وغيرها وغيرها ....

---

(١) انتهى ملخصًا من كتاب « رحلة الصديق إلى البيت العتيق » لصدِّيق حسن خان من صـ١٦٦ - ١٧٦، طبع دار ابن القيم .

(٢) مقدمة « تخريج الوصايا من خبايا الزوايا » لصديق حسن خان ، تحقيق عبد الله الليثي صـ١٢ - ١٥ ، طبع مؤسسة الكتب الثقافية .

يا هندُ يا سِحْرَ الجمالِ تحدَّثي ... فالكونُ بين مُرجِّعٍ ومردِّدِ
نُثرت عليك من الجواهر أُمَّة ... أفلاذُ أكبادٍ وصفوةُ مَحْتِدِ
ولديك أغلى الدُّرِّ عندك جوهر التَّـ ... ـوْحيد شوق المؤمنِ المتعبِّدِ
من عطَّر الساحات فيك ومن روى ... تلك المرابع بالدمِ المتجدِّدِ
أسمعتَ وشوشةَ الزهورِ وهمسَها ... ورفيفَ أطيارٍ وطلعةَ فَرْقدِ
كُلٌّ يقولُ أجلُّ ما حملتْ لنا الـ ... ـدُّنْيا رِسالةَ مؤْمنٍ مُتهجِّدِ
المؤمنون على الزمانِ تواصلوا ... مدَدًا وجاءوا بالهوى المتفرِّدِ
نَسَبٌ أبرّ على الزمان ولُحمةٌ ... موصولةٌ وعزيمةٌ لم تقْعُدِ
غرسوا بها أحلى الورودِ وفوّحت ... منها الدنا وزهت بحُسْنٍ مُخْلَدِ

ومِن تركيا خلفاء وملوك ، غيَّروا وجه التاريخ :

بأحرفٍ من نور .. وبعلوٍّ همّةٍ لا تُبارى ، سجَّل الخلفاء والملوك العثمانيون مآثرهم ... وقد مرَّ بنا علوُّ همَّة السلطان محمد الفاتح ... الذي لو لم يكن له إلّا فَتْح القسطنطينية ؛ لكفاه علو همّة له وللعثمانيين .

وهذه صفحة مختصرة أخرى لسلطانيْن عظيمين :

السلطان المجاهد مراد بن أورخان ؛ يعدم ابنه «ساوجي» لما تحالف مع الكافرين :

لله درّه ، حين تسقط في عهده مدينة « صوفيا » عاصمة بلغاريا ، ويُروِّع بطلُنا البيزنطيين الأرثوذكس وحلفاءهم الأوربيين الكاثوليك ، وعلى رأسهم بابا روما .
وحينما انتهز الأمير « إيمانوئيل » - ابن الإمبراطور البيزنطي « يوانيس الخامس » - فرصة ابتعاد الجيش الإسلامي عن مدينة « سيروز » فهاجمها واستولى عليها ، فسيَّر السلطان « مراد » جيشًا بقيادة « خير الدين باشا » ، تمكَّن من استعادة المدينة ، وفرَّ إيمانوئيل والتجأ إلى أبيه الإمبراطور ، الذي بلغ من شدَّة خوفه من غضب

السلطان أن طرد ابنه ، ورفض استقباله ، فلم يجد إيمانوئيل حلًّا أفضل من تسليم نفسه للسلطان مراد .

وحينما تآمر الأمير « ساوجي » - الابن الأصغر للسلطان مراد - واشترك مع الأمير « أندرونيقوس » - الابن الثاني للإمبراطور يوانيس الخامس - في قتال المسلمين ؛ سار السلطان مراد على رأس جيشه لملاقاتهم قريبًا من القسطنطينية ، وفرَّ الجيش المتآمر ، واستسلم ساوجي في مدينة « ديموقة » ، وحاكمه العلماء والقضاة ، فحكموا عليه بالموت جزاءَ خروجه على طاعة وليّ الأمر ، وموالاته للكافرين ، ومشاركته الفعلية لهم في حرب المسلمين . ونفَّذ السلطان مراد حكم الإسلام في ولده ، برغم محاولات بعض قادته أن يعفو عنه ويكتفي بنفيه .

هزيمة الصليبيين في « مارتيزا » ودفْعهم جزية سنوية :

ذهب إمبراطور القسطنطينية إلى البابا يستنجد به ، وركع أمامه ، وقبَّل يديه ورجليه ، ورجاه الدَّعْم ، رغم الخلاف المذهبي بينهما ، ولبى البابا النداء ، وكتب إلى ملوك أوربا عامة ؛ لخوض حرب صليبية حفاظًا على النصرانية . وتجمَّع ملك الصرب « أوروك الخامس » وجيشه وجيوش أمراء البوسنة والأفلاق « جنوبي رومانيا » وأعداد من فرسان المجر المرتزقة ، وسار الجميع نحو « أدرنة » حاضرة العثمانيين ، واصطدم الجيش العثماني بهم على نهر « مارتيزا » ، فهزمهم هزيمةً منكرة ، وولوا الأدبار ، واضطرت إمارة « راجوزة » إلى دفْع جزية سنوية : ٥٠٠ دوكًا ذهبًا ، واضطرَّ ملك الصرب الجديد « لازار » ، وأمير البلغار « سيسمان » لدفْع جزية سنوية للسلطان .

في ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م ؛ يفتح الله على السلطان مراد جميع الأراضي البلغارية :

في عام ٧٩١ هـ واجه السلطان مراد خطرًا داهمًا ، حين نقَض ملك الصرب

لازار وملك البلغار شيمان ، المعاهدة التي كانا قد عقداها مع السلطان مراد ، لكن السلطان سارع بمباغتة الملك شيمان في عقر داره ، ففتح الله عليه جميع الأراضي البلغارية ، ووقع الملك شيمان أسيرًا .

ويؤدِّب لازار ملك الصرب وأمراءَ البوسنة والهرسك ، في معركة « قوصوة » :

حين علم ملك الصرب لازار بما وقع لحليفه ، سارع إلى الاستنجاد بجيرانه أمراءِ البوسنة والهرسك ، وأولاح ، وبعض أمراء الأرناؤوط ، فتجمَّعت لديه قوات كبيرة ، سار بها لملاقاة المسلمين في « قوصوة » .

وجمع السلطان المجاهد مراد قادة جيشه ؛ لدراسة الموقف ، وأشار ابنه الأمير « بايزيد » - ومعه جماعة - بضرورة الانسحاب ، وتجنّب الدخول مع لازار وحلفائه في معركة ، ولكن السلطان مراد أصرَّ على ملاقاة لازار ، وطَفِقَ يتلو بعض آيات القرآن الكريم ، التي تحضُّ على قتال الكفار ، وتبشِّر المؤمنين بنصر الله ؛ فاطمأنتْ قلوبُ المتردِّدين .

وكانت الليلة التي سبقت وقوع معركة « قوصوة » الحاسمة ، ليلة بلغت فيها القلوب الحناجر ، وأقبل السلطان مراد نحو ربِّه عز وجل يُلحُّ عليه في الدعاء ، ويستنزله النصر للإسلام والمسلمين ، وأن يرزقه الشهادة في سبيله .

يا دعاة القومية العربية المُهلهلة ، هؤلاء هم العثمانيون :

ينقُل المؤرِّخ التركي « عبد القادر داده أوغلو » في كتابه « التاريخ العثماني المُصوَّر » ، نصَّ دعاء السلطان مراد ، في تلك الليلة على النحو التالي : « إلهي ومولاي ، تقبَّل دعائي وتضرُّعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثًا يُطفئ من حولنا غبارَ العواصف ، واغمرنا بضياءٍ يبدِّد من حولنا ظلمات الليل البهيم ، حتى نتمكَّن من إبصار مواقع عدوِّنا ، فنقاتله في الغد في سبيل دينك العزيز .

إلهي ومولاي ، إن المُلْك والقوَّة لك ، تمنحُهما لمن تشاء من عبادك ، وأنا عبدُك العاجز الفقير إلى رحمتك ، تعلم سرِّي وجهري ، وأُقسمُ بعزَّتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي حُطام الدنيا الفانية ، ولكنني أبتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك .

يا رب اجعلني فداءً للمسلمين جميعًا ، ولا تجعلني سببًا في هلاك أحدٍ من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم ، ونجِّهم يا رب من الوقوع في أسْر الكافرين ، وانصرهم على عدوِّهم .

إلهي ومولاي ، إنْ كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين ، فلا تحرمني الشهادة في سبيلك لأنعم بجوارك ، ونعم الجوارُ جوارُك .

إلهي ومولاي ، لقد شرّفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني تشريفًا بالموت في سبيلك » .

ويروي المؤرخ التركي « خوجا سعد الدين » في كتابه « تاريخ التواريخ » ، أن السلطان المؤمن ، أمضى الليل كلَّه وهو يدعو بمثل هذا الدعاء ، حتى إذا بزغ الفجر ، وأذَّن المؤذِّن لصلاة الفجر ، هرع جند الإسلام يؤدُّونها ، ويردِّدون وراء قائدهم الدعاء في هديرٍ شقَّ سكون الليل ، ووصلت أصداؤه إلى جموع الكافرين ، تُزلزل أقدامهم ، وتُوقِعُ الخوف في أفئدتهم .

وصدق السلطان المؤمن ربَّه ، فصدقه ربُّه وعده ؛ فنصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده - وقُتِل لازار - واختاره الله شهيدًا في سبيله عز وجل ، بضربة خنجرٍ من جنديٍّ صربيٍّ ، أصابت من السلطان مقتلًا وهو يتفقَّد جرحى المسلمين بعد المعركة .

بوركتِ يا روح مراد بن أورخان في رحاب الله ورضوانه، مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقا[١] .

---

(١) مواقف بطولية من صنع الإسلام ، لزياد أبو غنيمة صـ٨٤ - ٩٠ .

بايزيد الصاعقة « يلدرم » :

لن ينسى التاريخ « بايزيد » الأول ، الذي كان دائم الجهاد ، ينتقل من أوربا إلى الأناضـول ، ثم يعود مسرعًا إلى أوربا يحقق فيها نصـرًا جـديدًا ، أو تنظيمًا حديثًا ، حتى لُقِّب باسم « يلدرم » أي : الصاعقة . نظرًا لتلك الحركة السريعة ، والانقضاض المفاجئ .

يدفع له « اصطفان بن لازار » ملك الصرب جزية سنوية ، ويفتح مدينة « الأشهر » آخر مدينة للروم في غرب الأناضول ، ويضم إمارة « آيدين » بدون قتال إلى العثمـانيين ، ويُضيِّق الحصار والخناق على القسطنطينية ، ويُجـبر حـاكم « الأفلاق » على توقيع معاهدة يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده ، ويدفع جزية سنويًا . ويسير السلطان بايزيد إلى بلاد البلغار ، ويجعلها ولاية عثمانية .

ويلتقي بالجيوش الصليبية التي دعاها البابا لحرب صليبية ؛ جيش « دوق » بورغونيا وأمراء النمسا ، و « بافاريا » جنوبي ألمانيا ، وفرسان القديس يوحنا . وينتصر العثمانيون في ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨ ، وأُسِر دوق بورغونيا وعدد من الأمراء ، وفدى الدوق نفسه بمبلغ ضخمٍ من المال .

وبعد هذا الانتصار ، عقَد السلطان بايزيد صلحًا مع الإمبراطور البيزنطي ؛ فكَّ بموجبه الحصار على القسطنطينية ، مقابل دفْع ما يُعادل عشرة آلاف دينار ذهبي ، والسماح للمسلمين ببناء مسجد في القسطنطينية[1] .

السلطان مـراد الثاني - والد السلطان محمد الفاتح - يحكـم وعمره ثماني عشرة سنة :

ولد رحمه الله عام ٨٠٦ ، وتولَّى أمر السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ ، وكان عمـره لا يزيد عن ثماني عشرة سنة، وكان همُّه قبل كلّ شيءٍ مصروفًا

---

(١) التاريخ الإسلامي ٧١/٨ - ٧٣ .

إلى إعادة الإمارات في الأناضول إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن شتَّتها تيمورلنك ؛ فأعاد إمارات آيدين ، ومنشا ، وصاروخان ، والكرميان .

ثم تفرَّغ بعد ذلك لملوك أوربا ، فبدأ بقتال ملك المجر ، وعقد معه معاهدةً تنازل فيها للسلطان عن أملاكه ، التي تقع على الضفَّة اليمنى لنهر الدانوب ، وعقد أمير الصرب « جورج برنكوفتش » معاهدة مع السلطان ، تقضي بدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوك ذهبي . واستعاد مدينة « سلانيك » عام ٨٣٣ من البندقية بعد حصار خمسة عشر يومًا ، واعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦ ، وخضعت له « ألباد » بعد حروب بسيطة .

وتنادى ملوك النصارى لشنِّ حملة صليبية جديدة ، فجمعوا جموعهم من مجريين وبولنديين وفرنسيين وألمان وبنادقة وجنْويِّين ، وهاجموا بلاد البلغار . فقاد السلطان جيشه ، واتَّجه إلى أوربا ، وسار نحو الأعداء ، فوجدهم يحاصرون مدينة « فارنا » البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود ، فنازلهم ، وقُتِل ملك المجر في ساحة المعركة فاختلَّ ترابط الجند ، وهاجم السلطان معسكر الأعداء واحتلَّه ، وقتل الكاردينال « سيزاريني » مندوب البابا ، وتمَّ النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨ هـ .

وأراد جيش المَجَر مرة ثانية أن يثأر لهزيمته في معركة فارنا ، فالتقى مع السلطان وجيشه في وادي ، « كوسوفو » ، وانتصر السلطان على جيش المجر نصرًا مؤزَّرًا عام ٨٥٢[1] هـ . فللَّه درُّه من ولد ، ولله درُّ ولده محمد الفاتح فاتح القسطنطينية .

وهل ينبتُ الخطِّيَّ إلَّا وشيجُه ويُزرعُ إلَّا في منابِتِه النخلُ

(١) التاريخ الإسلامي ٨/٨٠ - ٨٦ .

السلطان الغازي سليمان القانوني ؛ فاتح بلغراد وردوس وفاتح بلاد المجرد :

لله درُّه وهو يكتب لفرنسيس « فرانسوا الأول » ملك فرنسا ، لمَّا استنجد به لمحاربة « شارلكان » ملك أسبانيا ، قال له : « إن آبائي الكرام وأجدادي العظام ، نوَّر الله مراقدهم ، لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ، وردِّ العدو . ونحن أيضًا سالكون على طريقهم ، وفي كلِّ وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة ، وخيولنا ليلًا ونهارًا مسروجة ، وسيوفنا مسلولة »[1] .

فتْح بلغراد في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ - ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١م :

أرسل السلطان « سليمان » سفيرًا إلى ملك المجر « لويز الثاني » ، يطلب منه دفْع الجزية أو الحرب ، فما كان من ملك المجر إلَّا أن أمر بإعدام السفير ، فأمر السلطان سليمان بتجهيز الجيوش ، وجمع كل ما تتطلبه من الذخائر والمؤن ، وسار هو بنفسه في مقدِّمة الجيش، وحاصر بلغراد، وضيَّق عليها الخناق، ودافع المجريون عن مدينتهم دفاعًا مجيدًا ، غير أن جند المسلمين تمكَّنوا من اقتحامها يوم ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ ، وأخلى الجند المجريون قلعتها ، ودخلها السلطان ، وصلَّى الجمعة في إحدى كنائسها التي حُوِّلت فورًا إلى مسجد ، وصارت هذه المدينة أكبر مساعد للجيش العثماني على فتح ما وراء الدانوب من الأقاليم والبلدان .

وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٩٣٢ هـ ، وفي وادي « موهاج » أو « موهاكس » ، التقى السلطان سليمان وجيشه البالغ مائة ألف جندي وثلثمائة مدفع وثمانمائة سفينة ، بجيش المجر وملكه « لويس » وانطلقت المدافع العثمانية تصبُّ نيرانها ، وتُوقِع الرعب في قلوب جند المجر ، وأباد الفرسان العثمانيون معظم القوات المجرية ،

---

(١) القانوني القائد لبسام العسيلي صـ١٨٨ - طبع دار النفائس .

وقُتِل ملكهم لويس ، وأرسل أهالي عاصمة المجر « بودا »[١] مفاتيح المدينة إلى السلطان، فاستلمها، ودخلها يوم ٣ ذي الحجة وحوَّل كنيسة «ماتياس»[٢] إلى مسجد .

ويضرب حصارًا بربع مليون جندي حول فيينَّا عاصمة النمسا، ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون :

وصل السلطان سليمان بجيشه إلى أبواب «فيينا» عاصمة النمسا ؛ لتأديب أهلها وملكهم « فرديناند » ، وضربوا حصارًا حولها ، وسلَّطوا عليها مدافعهم في ١٧ صفر سنة ٩٣٧ هـ ، حتى ثلموا أسوارها ، وهدموا أجزاءً منها . وعاد إليها مرة ثانية سنة ٩٣٩ هـ ، وأرسلوا يطلبون الصلح ، ورفض السلطان سليمان الصلح ، غير أنه وافق على هدنة مؤقَّتة حتى تُسلَّم إليه مفاتيح مدينة « كران» ، ووافق ملك النمسا ، ووافق أيضًا ملك النمسا على التسليم بما فتحه العثمانيون من بلاد المجر ، وكذلك على عدم شرعيّة ما تتَّفق عليه النمسا مع « زابولي » ملك المجر - الذي عيَّنه السلطان سليمان - إلا بعد تصديق جلالة السلطان العثماني عليه والحصول على موافقته . وكانت هذه المعاهدة في ٢٨ ذي القعدة سنة ٩٣٩ هـ . وفي الأول من جمادى الأولى سنة ٩٥٤ هـ ، ١٩ يونيو سنة ١٥٤٧ م وقَّع فرديناند ملك النمسا هدنة مدتها خمس سنوات مع السلطان سليمان ، وذلك بشرط أن يدفع فرديناند للدولة العثمانية جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكٍ - استمرت النمسا تدفع هذه الجزية إلى الدولة العلية إلى سنة ١٦٩٩ م - وأن تبقى بلاد المجر تحت رعاية الدولة العلية .

---

(١) تقع بودا على الشاطئ الأيمن من نهر الدانوب ، وعلى الشاطئ الأيسر مدينة بست ، وانضمَّت المدينتان سنة ١٨٧٣ م ، فأصبحتا مدينةً واحدة ، هي عاصمة المجر اليوم « بودابست » .

(٢) تُسمَّى كنيسة التتويج ؛ لأن الملوك كان يُتوَّجون فيها .

فتْح جزيرة رودس ، وطَرْد فرسان « الأسبتارية » منها ، في صفر سنة ٩٢٩ هـ :

كان يسكنها فرسان الأسبتارية ، إحدى التنظيمات الصليبية الثلاث ؛ فرسان التبوتون « ألمان » ، وفرسان الداوية ، وفرسان الأسبتارية . وهذه الأخيرة كانت قد انتقلت إلى قبرص بعد الخروج من عكا سنة ١٢٩١ ، ثم انتقلت إلى رودس سنة ١٣٠٨ ، واعتبارًا من هذا التاريخ ، قاموا بالتحريض على الاستمرار في الحروب الصليبية ، واشتركوا في كل عمل مضادٍ للمسلمين . وعندما ظهرت الدولة العثمانية ، أخذ هؤلاء الفرسان على عاتقهم توجيه الحرب ضد المسلمين في البر والبحر ، وقد حاول الخلفاء العثمانيون - ومنهم السلطان محمد الفاتح - الاستيلاء عليها وفتحها ، إلّا أنهم فشلوا في ذلك .

وأصدر السلطان أمره إلى أسطوله بالتوجّه إلى رودس ، وسافر هو عن طريق البر إلى خليج « مارماريس » المقابل للجزيرة من جهة آسيا ، وبمجرّد وصول السلطان إليها ، ابتدأ الحصار بغاية الشدَّة ، ودافعت الحامية عن الجزيرة ، خصوصًا الرهبان الفرسان ، وقيل : إن النساء كانت تُساعد الرجال في الدفاع ؛ بإلقاء الحجارة على المُحاصِرين ، وصبِّ الزيوت الحارة على رؤوسهم . غير أن ذلك كلَّه لم يُجْدِ نفعًا أمام المدافع العثمانية، ودخلت القوّات العثمانية إلى جزيرة رودس، بعد انتقال الصليبيين عنها إلى مالطة ، وتسليم الجزيرة من مقدِّم طائفة الفرسان الرهبان « فيليه دوليسل آدم » إلى العثمانين .

تطوُّر القُدْرة البحريّة في عهده ، على يد أمير البحر خير الدين بربروس ، واتخاذه من « نيس » بفرنسا قاعدةً له :

وفي عهد سليمان القانوني حقَّقت البحرية انتصاراتها ، وتعاظمت على حساب الصليبيين من بنادقة وجنويين وأسبان وبرتغاليين ، واستمرّ « خير الدين » وقوته في أسْر مراكب النصارى التجارية ، وأخْذ كافة ما بها من السِّلع النفيسة والبضائع الثمينة ، وبيْع ركّابها وبحَّارتها رقيقًا وعبيدًا ، وذلك انتقامًا مما كان يفعله هؤلاء

بالمسلمين إن هم تمكَّنوا منهم .

واستمر خير الدين في غزو مراكب الإفرنج ، والنزول على بعض شواطئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وأخْذ كل ما تصل إليه يدُه من أموال وأهالي .

وحاصر خير الدين « كورفو » بكلّ قطع الأسطول العثماني الذي ضمَّ ألف سفينة، وفَتَح أغلب جزائر الروم ، وغزا جزيرة « كريت » اليونانية ، وغزا سواحل جزيرة « صقلية » واشتركت معه البحرية الفرنسية تحت قيادته ؛ للعمل المشترك ضدَّ ملك أسبانيا شارلكان ، وتمكَّنت السُّفن العثمانية والفرنسية تحت قيادة « بربروس » من محاصرة « نيس » وفتحها عَنوة في ٢١ جمادى الأول سنة ٩٥٠ هـ ، وأُذن لخير الدين وأسطوله بقضاء فصل الشتاء في مدينة « طولون » بفرنسا ، وأُعطي له ثمانمائة ألف ريال فرنسي للصرف على جنوده . وجعل خير الدين من طولون قاعدةً للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي ، بعد أن غادرها سكّانها بأمر ملك فرنسا حتى سنة ١٥٤٤ م ، ٩٥١ هـ .

وفي عهد سليمان القانوني ، اضطرّت « البندقية » إلى طلب الصلح معه ، بعد أن حوَّل جهده لمحاربتها ، وتنازلت البندقية للدولة العثمانية عن « ملفوازي » و « نابلولي دي رومانيا » من بلاد المورة سنة ١٥٣٨ م .

وفي عهده هزم الجيش العثماني جيشًا ألمانيًّا ، كان شارلكان قد أرسله بقيادة أشهر قادته في ٢ ديسمبر سنة ١٥٣٧ .

وفي سنة ١٥٤١ م دخل السلطان بلاد المجر ، وجعل بلاد المجر ولاية عثمانية .

وأرسل السلطان سليمان أوامره لسليمان باشا والي مصر ، بتوجيه أسطول بحري من ثغر السويس ؛ لمحاربة البرتغاليين ، وإخراجهم من « بحيث » وعدن وبلاد اليمن ، وتحصين هذه المناطق حتى لا تستولي عليها البرتغال أو أيَّة دولة

أوربية ، وأسرع سليمان باشا فنظَّم أسطولًا ضخمًا من سبعين سفينة ، وسلَّحه بالمدافع الضخمة ، وسار به في يونيو سنة ١٥٣٨ م ، ومعه عشرين ألف جندي ، وفتح مدائن عدن ، ومسقط ، وحاصر جزيرة « هرمز » عند مدخل الخليج العربى ، ثم قصد سواحل « الجوازرات » بالهند ، وفتح أغلب الحصون التي أقامها البرتغاليون هناك ، وحاصر ثغر « ديو - بكجرات » شمال بومبي ، وقفل راجعًا بالغنائم ، وفتح في أيامه باقي أقاليم اليمن، وجعل منها ولاية عثمانية.

لقد أطلق المؤرِّخون الغربيون على السلطان سليمان لقب « العظيم » ، تشريفًا له وتعظيمًا ، في حين شرَّفه العثمانيون بلقب « القانوني » أي المُشرِّع ، وكانت تنظيماته وقوانينه التي منحته صفة القانوني ، هي تنظيمات عسكرية في أساسها ؛ لتنظيم علاقات المجتمع في حالات السِّلْم والحرب على السواء ، وكان تطبيق الشريعة الإسلامية هو الناظم لهذه العلاقات .

لقد فاق سليمان جميع أسلافه في تعاظُم القوة الخارجية ، تعاظمًا تجلَّى في انتصاراته على كافَّة الجبهات في الغرب كما في الشرق ، وبلغت الدولة في عهده أوج عظمتها وذروة اتّساعها .

لقد أعطى القانوني للجهاد في سبيل الله قوة دفْع ، حتى بلغ المدُّ أقصى أبعاده باجتياح المجر ، وتحرير المغرب العربي الإسلامي ، علاوةً على ما تمَّ افتتاحه من أوربا ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وبرزت سيرته نموذجًا أعلى للحاكم المجاهد في سبيل الله ، فكان الرجل في أُمَّة ، وحياة الأمّة في رجل[1] .

وأما ما صدر عنه من أعمال قد لا تَتَّفق وشرع الله ؛ مثل إقدامه على

(١) القانوني القائد لبسام العسيلي .

قتْل أولاده ، فلا نُقرُّه عليها أبدًا وأمره فيها إلى الله ، ولكلِّ جوادٍ كَبْوةٌ .

ومن الفلبِّين :

السلطان « لابـو لابـو » : حاكم جزيرة « ماكتان » بالفلبِّين ؛ يقتل « ماجلان » بيده جزاءَ غطرسته :

في عام ٩٢٧ هـ ، وصل الصليبي « ماجلان » ، قادمًا من جهات أمريكا إلى جزر الفلبين ، واتَّفق مع حاكم جزيرة سيبو «هومابون»، على أن يدخل حاكم الجزيرة في الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي، مقابل أن يكون مِلكًا على الجزر كلِّها تحت التاج الأسباني ، ومن جزيرة سيبو انتقل ماجلان ومن معه من الأسبان إلى جزيرة « ماكتان » ؛ للتمكين للنصراني الجديد هومابون ، وكان على جزيرة ماكتان حاكم مسلم يُدعى « لابو لابو »،ولمّا علم الأسبان بهذه الحقيقة ، ثار في نفوسهم الحقد الصليبي الذي حملوه معهم من أسبانيا ؛ بل من أوربا كلها ؛ فبدأوا بارتكاب الأعمال الوحشية ؛ إذ طاردوا النساء ، وسطَوْا على طعام السكان ، فقاومهم الأهالي ، فأضرموا النار في أكواخ السكّان الآمنين ، وفرُّوا هاربين .

رفض لابو لابو الخضوع لماجلان ، وحقده وتعاليه وغطرسته الصليبية ، وحرَّض لابو لابو السكّان المسلمين في الجزر الأخرى على ماجلان ، فاستُنفرت النفوس ، واستعلى الإيمان . إلَّا أنَّ ماجلان قد غرَّته قوته وأسلحته الحديثة ، وأراد أن يضرب خَصمَه ضربةً قوية ، يُرهب بها بقيّة الأمراء والسلاطين ، فذهب مع فرقة من جنده مزوَّدة بالأسلحة الحديثة ، لقتال لابو لابو ، وتأديبه - على حدِّ زعمه - ولما التقى به طلب منه التسليم قائلًا : « إنني باسم المسيح أطلُبُ منكم التسليم ، ونحن العِرْق الأبيض أصحاب الحضارة ، أولى منكم بحُكْم هذه البلاد » . فأجابه لابو لابو : « إن الدين لله ، وإن الإله الذي أعبدُه هو إله البشر جميعًا على اختلاف ألوانهم » . ثم هجم على ماجلان وقتله بيده ، وشتَّت شمل فرقته ، ورفض تسليم جُثَّته لأتباعه ، الذين غادروا البلاد عائدين إلى ديارهم عن طريق جنوب آسيا ،

فوصلوا إلى أسبانيا في شوال ٩٢٨ .

وبعثت أسبانيا أربع حملات متتابعة ، نزلت على سواحل جزيرة « ميندنا » و « الجزيرة الكبرى » في الجنوب وحيث يكثر المسلمون ، فقُتِل أفرادُ هذه الحملات كلّهم ، وأُطلق على هذه الجزر اسم الفلبّين عام ٩٤٩ باسم أمير النمسا فيليب ، الذي أصبح فيما بعد ملِكًا على أسبانيا[١] .

فهذه قصة السلطان العظيم عالي الهمَّة مع الرحَّالة المُتغطرس ماجلان ، الذي علتْ همَّتُه - ولكن في الكفر - فيخوضُ البحار والمحيطات ، ويرحل حول أفريقيا من أسبانيا حتى يأتي إلى الفلبين دعوةً إلى النصرانية ، فهلَّا أفقنا .

ملك المغرب « مولاي عبد الملك » ؛ يقود جيشه وهو محمولٌ على محفّةٍ في معركة « وادي المخازن » سنة ٩٨٦ هـ :

لمّا استتب الأمر لملك المغرب « مولاي عبد الملك » المعتصم في فاس سنة ٩٨٢ هـ ، التجأ عمُّه الخائن عبد الله المتوكِّل - الملك المعزول - إلى ملك البرتغال « دون سبستيان »[٢] ؛ لإعادته إلى السلطة، وبدأت الجيوش النصرانية تفِدُ لدعم هذا اللاجئ ظاهرا ، ولتحقيق نواياها في المغرب وبلاد الإسلام .

وفي سنة ١٥٧٨ م ، طلب ملك البرتغال من خاله « فيليب الثاني » ملك أسبانيا مساعدته ، فأمدَّه بسبعة آلاف جندي من الأسبان والإيطاليين ومن الفاتيكان والألمان ، وجاءت جيوش من أسبانيا وفرنسا وألمانيا ، وجاءت فرسان البابا ، وقادها ملك البرتغال ومعه الملك الخائن المخلوع محمد المتوكل ، وبلغ عدد ذلك الجيش مائة وخمسة وعشرين ألف جندي . وبالمقابل أمدَّت الدولة العثمانية المغرب بقوةٍ تضمُّ ستة آلاف من الرماة ، وثمانمائة فارس ، ومعهم اثنا عشر مدفعًا ،

---

(١) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٨/٤٥٩ - ٤٦٠ . المكتب الإسلامي .

(٢) قبل المعركة بأربع سنوات - في سنة ١٥٧٤ م - زار الملك البرتغالي سبتة ؛ لأنه كان يريد متابعة الحرب ضد المسلمين ، بهدف توجيه ضربة جديدة إلى الإسلام .

إضافة إلى ألـف من المشاة . والتقى الجيشان ؛ المغـربي بقيادة مولاي عبد الملك المريض ، المحمول على محفّةٍ وسط الجيش ، وإلى جانبه أخوه المنصور . والبرتغالي بقيادة دون سبستيان في « وادي المخازن » سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) . وانتصرت القلّة المؤمنة ، وهُزم الصليبيون ، وقُتِل ملك البرتغال ، والملك الخائن المتوكِّل ، واستُشهد السلطان مولاي عبد الملك ، وسميت هذه المعركة بمعركة « الملـوك الثلاثة » . وكان من نتيجة هذه المعركة انقراض الأسـرة الحاكمة البرتغالية ؛ الأمر الذي أدَّى إلى ضمِّ العرش البرتغالي إلى التاج الأسباني في عهد الملك فيليب الثاني سنة ١٥٨٠ م[١] .

ومِسْكُ الخِتام : عمر بن عبد العزيز ، الإمام الحافظ ، العلَّامة المجتهد ، الزاهد العابد ، السيد أمير المؤمنين حقًّا .. الخليفة الراشد أَشَجُّ بني أُمية .. الأُنموذج المثالي في علو همَّة الخلفاء في العدل ورَدِّ الناس إلى السُّنة والأمر الأول :

قال ابن عمر رضي الله عنه : يا ليت شِعْري من هذا الذي مِن ولد عمر !! يملؤها عدلًا كما مُلِئَتْ ظلمًا وجورًا .

فرضـي الله عن أبـي حفـص القرشي الأُمـوي المدني ثم المصـري ، عمر ابن عبد العزيز .

قبـل الخـلافة كان أكثرَ الناس تنعُّمًا ، وكانت له مشـية تُسمَّى : المشـية العمرية ... وربما منعه ترجيل شعره وهو شابٌّ عن إدراك الجماعة ، ثم أراد الله به الخير برحلته إلى المدينة ، وبعد الخلافة كان له شأنٌ أيّ شأن !!.

عن الضحَّاك بن عثمان ، قال : لما انصرف عمر بن العزيز عن قبر سليمان ابن عبد الملك ، صُفَّتْ له مراكب سليمان ، فقال :

---

(١) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٥٣٥/٨ ، مجلة الأمة العدد ٥٥ صـ٣٩ .

وَلولا التُّقى ثم النهى خشيةَ الردىٰ ... لَعاصيتُ في حبِّ الصِّبا كلَّ زاجرِ
قضى ما قضى فيما مضى ثَم لا ترى ... له صبوة أخرى الليالي الغوابرِ

ثم قال : إن شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، قدِّموا إليَّ بغلتي .

وعن سفيان بن عيينة ، قال : كان أول ما رؤي منه - يعني عمر ابن عبد العزيز - قُدِّم إليه بِرْذَوْنُ سليمان فأبى، فركب بغلته ورجع.يعني حين فرغ من دفن سليمان ، فقال : ليس أحد من أُمَّة محمد ﷺ ، إلّا له عندي شرقها وغربها .

قال سفيان بن عيينة : لمَّا رجع عمر بن العزيز من دفْن سليمان ، كان أَوَّلَ شيء راعهم منه حين قدموا إليه : مركبه ، فقال : أَخِّروه . فقرَّبوا إليه بغلته، فركبها. فلمّا أنْ رجع إلى منزله دخل، فقال له مولاه: يا أمير المؤمنين، كأنك مهتمٌّ ؟ فقال : لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممتُ ؛ إنه ليس من أمة محمد ، في مشرق ولا مغرب أحد إلَّا له قِبلي حقٌّ يحقُّ عليَّ أداؤه إليه ، غيرَ كاتبٍ إليَّ فيه ، ولا طالبَه مني .

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : لمَّا دفن عمرُ بن عبد العزيز سليمانَ بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سمع للأرض هدَّةً أو رجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِّبت إليك لتركبها . فقال : ما لي ولها؟ نحُّوها عني ، قرِّبوا إليَّ بغلتي . فقُرِّبت إليه بغلته ، فركبها . فجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديْه بالحربة ، فقال : تنحَّ عنِّي ، ما لي ولك ، إنما أنا رجل من المسلمين . فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعِد المنبر واجتمع إليه الناس ، فقال : أيُّها الناس ، إني قد ابتُليتُ بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طِلْبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم . فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك . قل : أمْرنا باليُمن

والبركة . فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضي به الناس جميعًا ، حمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، وقال : أوصيكم بتقوى الله ؛ فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف . واعملوا لآخرتكم ؛ فإنه مَن عمِل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه . وأصلحوا سرائركم يُصلح الله الكريم علانيتكم. وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ؛ فإنه هادم اللذات . وإن مَن لا يذكر من آبائه – فيما بينه وبين آدم عليه السلام – أبًا حيًّا ، لمَعرَّق له في الموت . وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها ﷺ ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحدًا باطلًا ، ولا أمنع أحدًا حقًّا . ثم رفع صوته حتى أسمع الناس ، فقال : يا أيُّها الناس ، مَن أطاع الله وجبتْ طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيتُ الله ، فلا طاعة لي عليكم .

بأبي وأُمي الخليفة الزاهد العادل ، الذي لمّا بلغتِ الخوارج سيرتُه وما ردّ من المظالم ، اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل .

قال محمد بن سعد : قال عمر بن عبد العزيز : لو كان كل بدعة يُميتها الله على يدي ، وكل سُنَّةٍ يُنعشها الله على يدي ببُضْعة من لحمي ، حتى يأتي آخر ذلك على نفسي ، كان في الله يسيرًا .

قال مالك : إن عمر بن عبد العزيز قام في الناس – وهو خليفة – على المنبر يوم الجمعة ، فقال : أيها الناس ، إني أنساكم ها هنا ، وأذكُركم في بلادكم ، فمن أصابته مظلمة من عامله فلا إِذْنَ له عليَّ ، ومن لا ، فَلَا أَرَينَّه . وإني والله إن منعتُ نفسي وأهلَ بيتي هذا المال وضَننتُ به عنكم ، إني إذن لَضنين ، ولولا أنْ أُنعشَ سُنَّةً ، أو أعمل بحقٍّ ، ما أحببتُ أن أعيش فَوَاقًا .

وعن عامر بن عبيدة قال : أول ما أنكر من عمر أنه خرج في جنازة ،

فأُتي ببُردٍ كان يُلقى للخلفاء ، يقعدون عليه إذا خرجوا إلى جنازة ، فأُلقي له فضربه برجله ، ثم قعد على الأرض ، فقالوا : ما هذا ؟ فجاء رجل فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اشتَّدت بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله يسألك عن مقامي هذا بين يديك. وفي يده قضيب قد اتكأ عليه. فقال: أعِدْ ما قلتَ . فأعاد عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، اشتدتْ بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فبكى حتى جرتْ دموعه على القضيب ، ثم قال له : ما عيالك ؟ قال : خمسة ؛ أنا وامرأتي وثلاثة أولاد . قال فإنَّا نفرض لك ولعيالك عشرة دنانير ، ونأمر لك بخمسمائة : مائتين من مالي وثلاثمائة من مال الله ، تبلَّغْ بها حتى يخرج عطاؤك .

زُهْدُ عمر في التمتع :

قال سهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز : « حدّثني بعض خاصَّة عمر بن عبد العزيز أنه حين أفضَتْ إليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاءً عاليًا فسُئل عن البكاء ، فقيل : إن عمر بن عبد العزيز قد خيَّر جواريه ، فقال : إنه قد نزل بي أمر قد شغلني عنكنَّ ، فمن أحبَّ أن أُعتقه أعتقتُه ، ومن أراد أن أمسكه أمسكتُه ، ولم يكن مني إليها شيء . فبكين يأسًا منه ، رحمه الله .

قال : حدَّثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى ، قال : حدثني أبي ، عن جدّي قال : كنتُ أنا وابن أبي زكريا بباب عمر ، فسمعنا بكاءً في داره ، فسألنا عنه فقالوا خيَّر أمير المؤمنين امرأته بين أن تقيم في منزلها - وأَعلَمها أنه قد شُغل عن النساء بما في عنقه - وبين أن تلحق بمنزل أبيها ، فبكت ، فبكى جواريها لبكائها » .

وعن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع القرشي ، أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك ، فقال لها : ألا تخبريني عن عمر ؟ فقالتْ : ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا من احتلام ، منذ استخلفه الله إلى أن قبضه .

لله درُّ عمر !! يقول واصفُه حين وَلي الخلافة : رأيتُ عمر بن عبد العزيز حين وَلي ، فإذا به من حسن اللون ، وجودة الثياب ، والبزَّة ، ثم دخلتُ عليه بَعْدُ ، وقد ولي ، فإذا قد احترق واسودَّ ولصق جلده بعظمه ، حتى ليس بين الجلد وبين العظم لحم ، وإذا عليه قلنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها ، يُعلم أنها قد غسلت ، وعليه سحق أنبجانية قد خرج سداها ، وهو على شاذكونة قد لصقتْ بالأرض ، وتحت الشاذكونة عباءة قطوانية من مُشَاقَةِ الصوف .

قال وهب بن منبه : إن كان في هذه الأمة مهديٌّ ، فهو عمر بن عبد العزيز .

وقال الحسن : إن كان مهديٌّ ، فعمر بن عبد العزيز ، وإلّا فلا مهديَّ إلا عيسى بن مريم عليه السلام .

وقال سفيان الثوري : أئمة العدل خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز .

وقال : لا أوافق رأيَ أحد أحبَّ إليَّ من عمر بن عبد العزيز ؛ لأنه كان إمام هدًى .

وقال أحمد بن حنبل : « يروى في الحديث : أن الله يبعث على رأس كل مائة عام مَن يصحِّح لهذه الأمة دينها ، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز ، ونظرنا في المائة الثانية فنراه الشافعي » .

قال أحمد بن حنبل : « إن الله تعالى يقيِّض للناس في كل رأس مائة سنة ، مَن يعلّمهم السنن ، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب ، فنظرنا ، فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز ، وفي رأس المائتين الشافعي » .

بِشارةُ أحمد بن حنبل لمن ينشرُ محاسن عمر :

وقال أحمد بن حنبل : « إذا رأيتَ الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ، ويذكر محاسنه وينشرها ، فاعلمْ أن من وراء ذلك خيرًا ، إن شاء الله » .

وقال ميمون بن مهران : إن الله عز وجل تعاهَد الناس بعمر بن عبد العزيز .

وعن عمرو بن قيس المُلائي قال : سُئل محمد بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز ، فقال : أمَا علمتَ أنَّ لكل قوم نجيبًا ، وأن نجيب بني أُمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يُبعث يوم القيامة أُمَّة وحده ؟!.

وعن ابن عون ، قال : كان ابن سيرين إذا سُئل عن الطلا(١) ، قال : نهى عنه إمامُ هدًى . يعني : عمر بن عبد العزيز .

وقال عبَّاد بن كثير : دخلتُ على أبي جعفر ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أمَا تستحيون أن تجيء بنو أُمية بعمر بن عبد العزيز ، ولا تجيئون بمثله ؟!.

تخيُّره لجُلَسائه :

عن الأوزاعي ، قال : قال عمر لجلسائه : من صحبني منكم فلْيصحبني بخمس خصال : يدلُّني من العدل إلى ما لا أهتدي له ، ويكون لي على الخير عونًا ، ويُبلغني حاجةَ مَن لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحدًا ، ويؤدِّي الأمانة التي حمَلها مني ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيَّهَلا به، وإلَّا فهو خرجٌ من صحبتي والدخول عليَّ .

واجتمع بنو مروان لاستعطاف عمر ، فتكلَّم رجل منهم فمزح ، فنظر إليه عمر ، قال : فوصل له رجل كلامَه بالمزاح ، فقال عمر : لهذا اجتمعتم ؟! لِأَخَسِّ الحديث ، ولِمَا يُورث الضغائن ؟! إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله ، فإن تعدَّيتم ، فعليكم بمعالي الحديث .

سَابِقٌ البربريُّ يُنشد عمرَ الشعرَ ، فيبكي حتى يُغشى عليه :

قال ميمون بن مهران : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز ، وعنده سابق البربري وهو يُنشده شعرًا ، فانتهى في شِعْره إلى هذه الأبيات :

---

(١) الطلا : الخمر ، وكل ما طُبخ من عصير العنب .

فكمْ من صحيحٍ بات للموتِ آمنًا ... أتتْهُ المنايا بغتةً بعدما هجَعْ
فلم يستطعْ إذْ جاءَهُ الموتُ آمنًا ... فرارًا ولا منهُ بقوَّتِهِ امتنعْ
فأصبحَ تبكيهِ النساءُ مقنَّعًا ... ولا يسمعُ الداعي وإنْ صوتَه رفعْ
فقرِّب مِن لحدٍ فصار مَقيلَهُ ... وفارق ما قد كان في أمسِهِ جَمَعْ
فلا يترك الموتُ الغنيَّ لمالِهِ ... ولا معدِمًا في المال ذا حاجة يَدَعْ

فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غُشي عليه ، فقمنا فانصرفنا عنه .

وعن عثمان بن عبد الحميد ، قال : دخل سابق البربريُّ على عمر ابن عبد العزيز ، فقال له عمر : عِظني يا سابق ، وأوجِزْ . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأُبلغ إن شاء الله . قال : هاتِ . فأنشده هذه الأبيات :

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ مِنَ التُّقى ... ووافيتَ بعد الموتِ مَن قدْ تزوَّدا
ندِمتَ على أن لا تكون شريكَهُ ... وأرصدتَ قبلَ الموتِ ما كان أرصدا

فبكى عمر حتى سقط مَغشيًّا عليه .

قال عمر بن عبد العزيز :

أيقظانُ أنتَ اليوم أم أنتَ نائمُ ... وكيف يطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ
فلو كنتَ يقْظانَ الغداةِ لحَرَّقتْ ... مَحاجرَ عينيْك الدموعُ السواجمُ
بل اصبحتَ في النومِ الطويلِ وقد دنتْ ... إليكَ أمورٌ مُفظِعاتٌ عظائمُ
نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والردى لكَ لازمُ
يغرُّكَ ما يَفنى وتُشغَلُ بالمُنى ... كما غُرَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ
وتُشغلُ فيما سوف تكرهُ غِبَّهُ ... كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

نفسُ عمرَ توَّاقة إلى العُلا :

عن سفيان قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : كانت لي نفس توَّاقة ، فكنتُ لا أنال شيئًا إلَّا تاقت إلى ما هو أعظم منه ، فلما بلغتْ نفسي الغاية ، تاقت إلى الآخرة .

قال مُزاحم : قلتُ لعمر بن عبد العزيز : إني رأيتُ في أهلك خَلَلًا . فقال : يا مزاحم ، أما يكفيهم ؟! أعطيهم ما يصيبون من المقاسم مع المسلمين من فيْئهم ، مع مال عمر . فقلتُ له : وأين يقع ذلك منهم ، مع ما يموِّنون ، ومع ضيافتهم وكسوتهم نساءهم ؟ وأين يقع ذلك ؟ قد - والله - خشيتُ أن تصيبهم مخمصة . فقال لي عمر : إن لي نفسًا توَّاقة ؛ لقد رأيتُني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ، ثم تاقت نفسي إلى العلم - إلى العربية والشعر - فأصبتُ منه حاجتي وما كنتُ أريد . ثم تاقتْ نفسي إلى السلطان ، فاستُعْملتُ على المدينة ، ثم تاقت نفسي وأنا في السلطان ، إلى اللبس والعيش والطيب ، فما علمت أن أحدًا من أهل بيتي ولا غيرهم ، كان في مثل ما كنتُ فيه ، ثم تاقت نفسي إلى الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو ما تاقت نفسي إليه من أمر آخرتي ، فلستُ بالذي أُهلِك آخرتي بدنياهم .

علوُّ هِمَّته في العدْل :

عن مالك بن دينار قال : لما وَلي عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، قالت رعاة الشاء في ذروة الجبال : مَن هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس ؟ فقيل لهم : وما عِلْمكم بذلك ؟ قالوا : إنَّا إذا قام على الناس خليفة صالح ، كفَّتِ الذئاب والأُسْد عن شأننا .

وعن ميمون بن مهران : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال : يا أبتِ ، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ، ما كنتَ أبًا لي ، لو غلَتْ بي وبك القُدُور في ذلك . قال : يا بُنَيَّ ، إنما أروِّض الناس رياضة الصعب ، إني لَأريد أن أُحييَ الأمور من العدل ، فأؤخِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعًا من طمع الدنيا ، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه .

قال ميمون بن مهران : ما زلتُ أنا وعمر بن عبد العزيز ننظر في أمور

الناس ، حتى قلتُ : يا أمير المؤمنين ، ما بال هذه الطوامير[(١)] التي تكتب فيها بالقلم الجليل ، وتمدُّ فيها وهي من بيت مالِ المسلمين ؟ فكتب إلى العمال أن لا يُكتبن في طومار ولا يُمدَّ فيه . قال : فكانت كتُبه شبرًا ، أو نحو ذلك .

كتابه إلى أهلِ المَوْسِم :

عن جعونة ، قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم : « أما بعد ؛ فإني أُشهد الله ، وأبرأ إليه في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر ، أني بريء منْ ظلمِ مَنْ ظلمكم ، وعدوانِ مَنِ اعتدى عليكم ، أن أكون أمرتُ بذلك ، أو رضيتُ ، أو تعمَّدتُه ، إلَّا أن يكون وهْمًا مني ، وأمرًا خفي عليَّ لم أتعمَّدْه ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عني ، مغفورًا لي ، إذا علم مني الحرص والاجتهاد . ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني ، وأنا مُعوَّل كلِّ مظلوم . ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرتُ أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم . ألَا وإنه لا دُولة ببُرِّ أغنيائكم ، ولا أَثَرة على فقرائكم في شيء من فيئكم . ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به - خاصَّة أو عامَّة - فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار على قدْر ما نوى من الحسبة ، وتجشُّم من المشقَّة ، فرحم الله امرءًا لم يتعاظمه سفر يُحيي الله به حقًّا لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم ، لَرسمتُ لكم أمورًا من الحق أحياها الله لكم ، وأمورًا من الباطل أماتها الله عنكم ، فلا تحمدوا غيره ، ولو وكَلني إلى نفسي كنتُ كغيري ، والسلام عليكم » .

قال الحكم بن عمر الرعيني : شهدتُ مَسْلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يديَّ ، ولكن وكِّلْ بخصومتك مَن شئتَ ، وإلَّا فجاثِ القوم بين يديَّ . فوكّل مولًى له بخصومته ، فقضى عليه بالناعورة .

---

(١) الطوامير : جمع طومار ، وهو الصحيفة .

وعن عبيدة بن حسان السنجاري : أن رجلًا من أهل أذربيجان أتى عمر ابن عبد العزيز ، فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكُر بمقامي هذا مقامًا لا يشغل اللهَ عنك فيه كثرةُ مَن يخاصم من الخلائق ، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب . قال : فبكى بكاءً شديدًا ، ثم قال : ويحك ؛ ارددْ عليَّ كلامك هذا . فجعل يردِّده عليه وعمر يبكي وينتحب . ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : إن عامل أذربيجان عدا عليَّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم ، فجعلها في بيت مال المسلمين . فقال عمر : اكتبوا له الساعة ، إلى عاملها حتى يردَّه إليه - أو عليه - .

وقال رياح بن حبان ، وكان على المدينة ، قال : ما قدم علينا بَريدٌ لعمر ابن عبد العزيز بالشام إلّا بإحياء سُنَّة ، أو قسْم مال ، أو أمْر فيه خير .

واجتمع الأُمويُّون على بابه - رحمه الله - ينتظرون الدخول عليه ، ومعهم أيضًا الشعراء ، ثم جاء ابن عباس فأذِن له قبلهم ، فقال هشام : أما رضي ابن عبد العزيز أن يصنع ما يصنع حتى أذِن لابن عباس أن يتخطَّى رقابنا ؟! فقال الفرزدق في هذا :

يا أيها القارئ المقْضِيُّ حاجتُهُ ... هذا زمانُك إني قد خلا زمني

إرساله المرشدين ليفقهوا الناس في البادية :

بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري ، يفقِّهان الناس في البدو ، وأجرى عليهما رزقًا ؛ فأما يزيد فقبل ، وأما الحارث فأبى أن يقبل ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك ، فكتب عمر : إنّا لا نعلم بما صنع يزيد بأسًا ، وأكثرَ الله فينا مثلَ الحارث بن يمجد .

وكان رحمه الله يقول وهو على المنبر : لولا سُنَّة أُحييها ، أو بدعة أميتها ، لَمَا باليْتُ أن لا أعيش فَوَاقًا .

الأكبادُ الجائعة أوْلى بالصدَقاتِ من البيت الحرام :

وعن ميسر بن أبي الفرات ، قال : كتبتِ الحَجَبَةُ إلى عمر بن عبد العزيز يأمر للبيت بكسوة ، كما كان يفعل مَن كان قبله ، فكتب إليهم : إني رأيتُ أن أجعل ذلك في أكباد جائعة ؛ فإنه أولى بذلك من البيت .

وعن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، قال : إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا (ثلاثين شهرًا) ، لا والله ، مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث تروْن في الفقراء . فما يبرح حتى يرجع بماله . قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس .

رِفْقُ عمرَ بالحيوان :

عن أبي عثمان الثقفي ، قال : كان لعمر بن عبد العزيز غلام على بغل له ، يأتيه بدرهم كل يوم . فجاءه يومًا بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ؟ قال : نَفَقَتِ السوق . قال : لا ، ولكنك أتعبتَ البغل ، أجِمَّهُ ثلاثةَ أيام .

وعن ورَعه : قال عمرو بن مهاجر : إن عمر بن عبد العزيز كانت له الشمعة ما كان في حوائج المسلمين ، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ، ثم أسرج عليه سِراجه .

عُلوُّ هِمَّتِه في ملاحظته لعُمَّاله ، ومكاتبته إيَّاهم في القيامِ بالعدل :

رضي الله عن نجيب بني أُمية ؛ ما طلع كتابه من الثنية إلّا بإحدى ثلاث : إحياء سنة ، وإماتة بدعة ، وقسْم يقسمه بين المسلمين .

كتب إليه عمرو بن حزم في شمع كانوا يستضيئون به ، حين يخرجون إلى صلاة العشاء وصلاة الفجر ، فكتب إليه عمر : « أما بعد ؛ فقد قرأتُ كتابك ، الذي كتبتَ به إلى سليمان بن عبد الملك ، وكنتُ المبتلَى بالنظر فيه دونه ،

كتبتَ تسأله أن يُقطِع لك من الشمع مثلَ الذي كان يُقطع لمن قَبلك ، وتذكُر أن الشمع الذي قِبَلك قد نفد ، ولعمري قد طالما رأيتُك تخرج من منزلك إلى مسجد رسول الله ﷺ في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ، ولَعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم . والسلام عليك . وكتبتَ تسأله أن يقطع لك شيئًا من القراطيس ، مثل الذي كان يُقطِع قبلك ، فأَدِقَّ قلمَكَ ، وقارِبْ بين سطورك ، واجمع حوائجك ؛ فإني أكره أن أُخرِج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به . والسلام » .

وعن إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه قال : رأيتُ أبا بكر عمرو بن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار ، لاستحثاث عمر إيَّاه .

وكتب إليه عدي بن أرطاة : « مِن عَدِيِّ بن أرطاة . أما بعد ؛ أصلح الله أمير المؤمنين ؛ فإن قِبَلي أناسًا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالًا عظيمًا ، لستُ أرجو استخراجه من أيديهم ، إلَّا أن أمسَّهم بشيء من العذاب ، فإن رأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن يأذن لي في ذلك ، أفعل » .

فأجابه : « أما بعد ؛ فالعجَب كلّ العجب مِن استئذانك إيَّاي في عذاب بشر، كأني لك جُنَّة من عذاب الله، وكأنَّ رضائي عنك يُنجيك من سخط الله عز وجل، فانظر مَن قامت عليه بيِّنةُ عُدولٍ ، فخذْه بما قامت عليه به البينة، ومن أقرَّ لك بشيء فخذه بما أقرَّ به ، ومن أنكر فاستحلِفْه بالله العظيم ، وخلِّ سبيله . وأيمُ اللهِ ، لَأَنْ يَلْقَوُا الله عز وجل بخياناتهم ، أحبُّ إليَّ من أن ألقى اللهَ بدمائهم . والسلام » .

وعن عنبسة بن غُصن ، قال : كان وهْب بن منبّه على بيت مال اليمن . قال : فكتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « إني فقدتُ من بيت مال المسلمين دينارًا » . قال : فكتب إليه : « إني لا أتهم دينَك ولا أمانتَك ، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم ، ولِأُخسِّهم :

عليك أن تحلفَ . والسلام » .

وكان الجراح بن عبد الله عاملَ عمر بن عبد العزيز على خراسان كلِّها ، فكتب إليه عمر : « بلغني أنَّك استعملتَ عمارة ، ولا حاجةَ لي بعمارة ، ولا بضرب عمارة ، ولا برجُل قد صبغ يده في دماء المسلمين ، فاعزلْه » .

ونهى عمر بن عبد العزيز عُمَّاله عن صنائع الحجَّاج وسُنَّتِه ، وقال : «لو أن الأمم تخابثتْ يوم القيامة، فأخرجتْ كلُّ أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجَّاج ، لَغلبناهم » .

واستعمل عمر رضي الله عنه عاملًا ، فبلغه أنه عمل للحجَّاج ، فعزله ، فأتاه يعتذر إليه ، فقال : لم أعمل له إلا قليلًا . قال : « حسبك من صحبة شرٍّ يومٌ أو بعضُ يوم » .

وبعث عمر بآل أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن ، وكتب إليه : « أما بعد ؛ فإني قد بعثتُ إليكم بآل أبي عقيل ، وهم شرُّ بيت في العرب ، ففرِّقْهم في عملك على قدْر هوانهم على الله . وعلينا وعليك السلام » . وإنما نفاهم .

وبعث إلى عدي بن أرطاة : « أما بعد ؛ فإني كتبتُ إليك بكتب كثيرة ، أرجو بذلك الخير من الله تعالى ، والثواب عليه ، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج ابن يوسف وأرغب عنها وعن اقتدائك بها؛ فإن الحجاج كان بلاءً وافَق خطيئةَ قوم بأعمالهم ، فبلغ الله عز وجل في مدته ما أحبَّ من ذلك ، ثم انقطع ذلك وأقبلتْ عافية الله عز وجل ، فلو لم يكن ذلك إلا يومًا واحدًا أو جمعة واحدة ، كان ذلك عطاء من الله عز وجل ، ونهيتُك عن فعله في الصلاة ؛ فإنه كان يؤخِّرها تأخيرًا لا يحلُّ له ، ونهيتُك عن فعله في الزكاة؛ فإنه كان يأخذها في غير حقِّها ثم يسيء مواقعها . فاجتنب ذلك منه ، واحذر العمل به ؛ فإن الله عز وجل قد أراح منه ، وطهّر العباد والبلاد من شرِّه . والسلام » .

وكتب بعض عمَّال عمر بن عبد العزيز إليه : « أما بعد ؛ فإن مدينتنا

قد خربتْ ؛ فإن ير أمير المؤمنين أن يُقطِع لنا مالًا نرمّها به، فعَل ».

فكتب إليه عمر : « أما بعد ؛ فقد فهمتُ كتابك ، وما ذكرتَ أن مدينتكم قد خربت . فإذا قرأتَ كتابي هذا فحصِّنها بالعدل ، ونقِّ طرُقَها من الظلم ؛ فإنه مَرمّتُها . والسلام » .

وقدِم على عمر بلال بن أبي بردة ، فهمَّ بتوليته العراق لمّا رآه ملازمًا للمسجد يصلي ، ويقرأ ليلَه ونهارَه، وقال: هذا رجل له فضل . فدسَّ إليه ثقةً له ، فقال له : إن عملتُ لك في ولاية العراق ، ما تعطيني ؟ فضمن له مالًا جليلًا ، فأخبر بذلك عمر ، فنفاه وأخرجه ، وقال : يا أهل العراق ، إن صاحبكم أعطى مقولًا ولم يعطِ معقولًا ، وزادت بلاغتُه ونقصتْ زهادته .

وكتب عمر إلى عامله : « أما بعد ؛ فالزمِ الحق ، يُنزلْك الحق منازل أهل الحق ، يومَ لا يُقضى بين الناس إلا بالحق ، وهم لا يظلمون » .

وقال يحيى بن يمان: وكتب عمر إلى عامل له : « أما بعد ؛ فلتجفَّ يداك من دماء المسلمين ، وبطنُك من أموالهم ، ولسانك من أعراضهم . فإذا فعلتَ ذلك فليس عليك سبيل : ﴿ **إنّما السّبيلُ على الّذينَ يَظْلمونَ النّاسَ ..** ﴾ [الشورى : ٤٢] » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن : « سلام عليك . فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشِدَّة ، وجوْر في أحكامهم ، وسنن خبيثة سنَّها عليهم عُمَّال السوء ، وإن أقوم الدين العدل والإحسان ، فلا يكوننَّ شيء أهمَّ إليك من نفسك ؛ أن توطِّنها لطاعة الله ، فإنه لا قليل من الإثم » .

وعن ابن يحيى الغسَّاني ، قال : حدثني أبي ، عن جدي قال : لما ولّاني عمر بن عبد العزيز الموْصل قدِمتها ، فوجدتُها من أكثر البلاد سرقًا ونقْبًا ، فكتبتُ إلى عمر أُعلِمه حالَ البلد ، وأسأله : آخذ الناس بالظِّنَّة ، وأضربهم على التهمة ، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السُّنَّة ؟ فكتب إليَّ أن : خُذ الناس بالبينة وما

جرت عليه السُّنَّة ، فإن لم يصلحهم الحق ، فلا أصلحهم الله . فقال يحيى : ففعلتُ ذلك ، فما خرجتُ من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد ، وأقلِّها سرقًا ونقبًا .

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ؛ فإن الناس قد كثروا في الإسلام . وخفتُ أن يقلَّ الخراج » .

فكتب إليه عمر : « فهمتُ كتابك ، والله لَوددتُ أن الناس كلهم أسلموا ، حتى نكون أنا وأنت حرَّاثين نأكل من كسْب أيدينا » .

وكتب عمر إلى عُمَّاله : إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلّا أهل القرآن . فكتبوا إليه : يا أمير المؤمنين ، إنا استعملنا أهل القرآن فوجدناهم خوَنة . فكتب لهم : إياكم أن يبلغني عنكم أنكم استعملتم على شيء من أعمالنا إلَّا أهلَ القرآن ؛ فإنه إن لم يكن عند أهل القرآن خير ، فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير .

وكتب إلى أهل الأمصار : « لا يركب نصراني سَرْجًا ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانًا ، ولا سراويل ذات خدمة ، ولا يمشينَّ بغير زنار من جلد ، ولا يمشِ إلَّا مفروقَ الناصية ، ولا يوجد في بيت نصراني سلاح إلَّا أُخذ » .

وكتب رحمه الله إلى عماله أن : فادوا بأُسارى المسلمين ، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله : « يا أخي ؛ أُذكِّرك طولَ سهَر أهل النار في النار مع خلود الأبد . وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء » .

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدِم على عمر . فقال له : ما أقدمك؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك . لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تعالى .

وكتب إلى عمَّاله : « ادرءوا الحدود ما استطعتم في كلِّ شبهة ؛ فإن

الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدَّى في العقوبة » .

وكتب إلى عامله عدي بن أرطاة : « أما بعد ؛ فإني أذكرك ليلة تمخّضُ بالساعة ، فصباحها القيامة ، يا لها من ليلة !! ويا له من صباح كان على الكافرين عسيرًا !! » .

ردُّه لمظالم بني أُمية :

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلمًا ، قد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قال : أرى أن تردَّها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكًا لمن أخذها .

ولما ذهب عمر يتبوَّأ مقيلًا ، قال له ابنه عبد الملك : تَقَيَّلُ ولا تردُّ المظالم ؟ قال : أي بُنَيَّ ، قد سهرتُ البارحة في أمر عمِّك سليمان ، فإذا صلَّيتُ الظهر رددتُ المظالم . قال: من لك أن تعيش إلى الظّهر ؟ فخرج ولم يَقِلْ، فأَمَرَ مُناديَهُ أن ينادي : أَلَا مَنْ كانت له مظلمة فليرفعها . فقام إليه رجل ذِمِّي من أهل حمص ، أبيضَ الرأس واللحية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله . قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي . والعباس جالس . فقال له : يا عباس ، ما تقول ؟ قال : أقطعَنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لي بها سِجلًّا . فقال : ما تقول يا ذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق أن يُتّبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، ارددْ عليه يا عباس ضيْعته . فردَّ عليه . فجعل لا يدع شيئًا مما كان في يده ، وفي يد أهل بيته ، من المظالم إلَّا ردَّها ؛ مظلمة مظلمة .

قال الفرات بن السائب : إن عمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك – وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها ، لم يُرَ مثله –: اختاري ، إما أن تردِّي حُلِيَّك إلى بيت المال ، وإما أن تأذني لي في فراقك ؟ فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد . قالت : لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه ، وعلى

أضعافه لو كان لي . فأمر به ، فحُمِل حتى وضع في بيت مال المسلمين ، فلما هلك عمر واستخلف يزيد ، قال لفاطمة : إن شئتِ رددتُه عليك ؟ قالت : فإني لا أشاؤه ، طبتُ عنه نفسًا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ؟! لا والله أبدًا . فلما رأى ذلك قسَّمه بين أهله وولده .

يا حُكَّامَ عصْرنا ، هكذا ربَّى عمرُ ولدَه :

عن إسماعيل بن أبي حكيم قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرَّق الناس ، ودخل إلى أهله للقائلة ، فإذا منادٍ يُنادي : الصلاةُ جامعة . قال : ففزعْنا فزعًا شديدًا ، مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدَث حدثٌ . قال جويرية : وإنما كان أنه دعا مزاحمًا فقال : يا مزاحم ، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا ، والله ، ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليَّ ، ليس عليَّ فيه دون الله محاسب . فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم ولدك ؟ هم كذا وكذا . قال : فذرفتْ عيناه ، فجعل يستدمع ويقول : أكِلُهم إلى الله . قال : ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك ، حتى استأذن على عبد الملك ، فأذن له - وقد اضطجع للقائلة - فقال له عبد الملك : ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة ؛ هل حدث حدث ؟ قال : نعم ، أشدّ الحدَث عليك وعلى بني أبيك . قال : وما ذاك ؟ قال : دعاني أمير المؤمنين ... فذكر له ما قال عمر ، فقال عبد الملك : فما قلتَ له ؟ قال : قلتُ له : يا أمير المؤمنين ، أتدري كم ولدك ؟ هم كذا وكذا . قال : فما قال لك ؟ قال : جعل يستدمع ، ويقول : أكِلهم إلى الله تعالى . قال عبد الملك : بئس وزير الدين أنتَ يا مزاحم !! ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر ، فاستأذن عليه ، فقال له الآذِنُ : إنَّ أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال : استأذِنْ لي . فقال له الآذِن : أما ترحمونه ؟! ليس له من الليل والنهار إلَّا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذِنْ لي لا أمَّ لك !! فسمع عمر الكلام ، فقال : من هذا ؟ قال : هذا عبد الملك . قال : ائذن له .

فدخل عليه وقد اضطجع عمر للقائلة ، فقال : ما حاجتك يا بنيّ هذه الساعة ؟ قال : حديثٌ حدَّثنيه مزاحم . قال : فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال : وقع رأيي على إنفاذه . قال : فرفع عمر يديه . ثم قال : الحمد لله الذي جعل لي من ذرِّيتي من يُعينني على أمر ديني . نعم يا بُنَيَّ ، أصلي الظهر ، ثم أصعد المنبر . فأردَّها علانية على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، ومَن لك بالظُّهر يا أمير المؤمنين ؟! ومن لك إن بقيتَ إلى الظهر أن تسلم لك نيَّتُك إلى الظهر ؟ قال : فقال عمر : قد تفرَّق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك : تأمر مناديَك ينادي : الصلاة جامعة . فيجتمع الناس . قال إسماعيل : فنادى المنادي : الصلاة جامعة . قال : فخرجتُ فأتيتُ المسجد ، فجاء عمر فصعِد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أما بعد؛ فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليّ ، ليس عليّ فيه دون الله محاسب . ألَا وإنِّي قد رددتُها ، وبدأت بنفسي وأهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم » .

قال : وقد جيء بسفَطٍ قبل ذلك – أو قال:جُونة – فيها تلك الكتب . قال : فقرأ مزاحم كتابًا منها ، فلما فرغ من قراءته ، ناوَله عمر وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلَم ، قال : فجعل يقصّه بالجلَم . واستأنف مزاحم كتابًا آخر ، فجعل يقرؤه ، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصَّه . ثم استأنف كتابًا آخر ، فما زال حتى نُودي بصلاة الظهر .

وفي رواية أخرى : وكأن مزاحمًا – مع فضله – لم يقنع بقوله ، فخرج مزاحم ، فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، فقال : إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمرٍ ، لَهو أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا ؛ إنه قد همَّ بردِّ السهلة . قال عبد الله : وهي باليمامة ، وهي أمر عظيم . قال : وكان عيش ولده

منها . قال عبد الملك : فماذا قلتَ له ؟ قال : كذا وكذا . قال : بئس - لَعمْر الله - وزير الخليفة أنت !! قال : ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوَّأ مقيله ، قال : فاستأذن ، فقال له البواب : إنَّه قد تبوَّأ مقيله . قال : ما منه بدٌّ . قال : سبحان الله !! ألا ترحمونه ؟! إنما هي ساعته . قال : فسمع عمر صوته فقال : عبد الملك ؟ قال : نعم . قال : ادخل . فدخل . قال : ما جاء بك ؟ قال : إنَّ مزاحمًا أخبرني بكذا وكذا . قال : فما رأيك ؟ فإني أريد أن أقوم بالعشيَّة . قال : أرى أن تعجِّله ؛ فما تأمن أن يُحدِث الله بك حدَثًا . قال : فرفع يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذرِّيتي مَن يُعينني على ديني . قال : ثم قام من ساعته ، فجمع الناس وأمر بردِّها .

نظر عمر رحمه الله في مزارعه ، فخرق سجلّات بها غيرَ مزرعتين : (خيبر) و (السويداء) ، فسأل عن خيبر : من أين كانت لأبيه ؟ قيل : كانت فيْئًا على عهد رسول الله ﷺ ، فتركها رسول الله ﷺ فيئًا على المسلمين ، حتى كان عثمان بن عفان فأعطاها مروان بن الحكم ، وأعطاها مروانُ عبدَ العزيز أبا عمر ، وأعطاها عبدُ العزيز عمرَ ، فخرق سجلّها وقال : إنما أتركها كما تركها رسول الله ﷺ . وبلغني أنها كانت (فدَك) .

أما خبر فدَك : فإن معاوية بن أبي سفيان كان قد وهبها لمروان بن الحكم ، فأعطى عبدَ الملك نصفها وعبدَ العزيز نصفها ، فوهب عبدُ العزيز حقَّه لعمر ولده ، فلما تُوفي عبد الملك طلب عمر إلى الوليد حقَّه فوهبه له ، وطلب إلى سليمان حقَّه فوهبه له ، ثم مَن بقي مِن أعيان عبد الملك ، حتى خلصت له ، فلقد وَلي عمر الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا وهي تُغِلُّ كلَّ سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، فسأل عنها فَحصَّ ، فأخبر بما كان أمرُها في عهد رسول الله ﷺ ، وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكتب إلى أبي بكر بن حزم كتابًا ، يقول فيه : إني نظرتُ في أمر فدَك ، فإذا هو لا يصلح ، فرأيتُ أن أردَّها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ ، وأبي بكر وعمر وعثمان ، فاقبضها ولِّها

رجلًا ، يقوم فيها بالحقِّ ، وسلام عليك .

رحم الله عمر بن عبد العزيز ، لمَّا تولَّى الخلافة خرج مما كان في يده من القطائع ، وكان في يده (المكيدس) و (جبل الورس) باليمن ، و (فَدَك) وقطائع باليمامة ، فخرج من ذلك كلِّه وردَّه إلى المسلمين ، إلَّا أنه ترك عينًا بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه ، فكانت تأتيه غلَّتها كلَّ سنة مائة وخمسون دينارًا أو أقلَّ أو أكثر ، فذكر له مزاحم يومًا أن نفقة أهله قد فنيتْ ، فقال : حتى تأتينا غلَّتنا . قال : فلم يَنشبْ أن قدَّم قيمةً بغلَّتِه وبجراب تمر صيحاني ، وبجراب تمر عجوة ، فنثره بين يديه ، وسمع أهلُه بذلك ، فأرسلوا ابنًا له صغيرًا ، فحفن له من التمر فانصرف، فلم يَنشب أن سمعنا بكاءه ، قد ضرب ، ثم أقبل بأمِّ الدنانير ، فقال : أمسكوا يديه . ثم رجَع يديْه ، فقال : اللهم بغِّضْها إليه كما حبَّبتها إلى موسى بن نصير . ثم قال : خلُّوه . فكأنما رأى به عقارب ، ثم قال : انظروا الشيخ الجزري المكفوف الذي كان يغدو بالأسحار ، فخذوا له ثمن قائد ؛ لا كبير فيقهَرَه ، ولا صغير يضعُف عنه . ففعلوا . ثم قال لمزاحم : شأنك ما بقي ، فأنفقْه على أهلك .

يرحم الله عمر ، لمّا ردَّ المظالم قال : إنه لَينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي . فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع ، فخرج منه ، حتى نظر إلى فصِّ خاتم ، فقال : هذا مما كان الوليد أعطانيه مما جاء من أرض المغرب . فخرج منه .

وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، قال : لمّا ولي عمر بن عبد العزيز ، جعل لا يدع شيئًا مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلَّا ردَّها ، مظلمة مظلمة . فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه : « إنك أُزريتَ على من كان قبْلَك من الخلفاء ، وعبتَ عليهم ، وسرتَ بغير سيرتهم ، بُغضًا لهم ، وشنآنًا لمن بعدهم من أولادهم . قطعتَ ما أمر الله به أن يُوصَل ؛ إذ عمدتَ

إلى أمـوال قريش ومواريثهم فأدخلْتها بيت المال جورًا وعدوانًا . يا ابن عبد العزيز ، اتقِ الله وراقبْه إن شططتَ ، لم تطمئنَّ على منبرك حتى خصصتَ أول قرابتك بالظلم والجور . فوالذي خصَّ محمدًا ﷺ بما خصَّه به ، لقد ازددتَ عن الله بُعدًا في ولايتك هذه ، إذ زعمتَ أنها عليك بلاء ، فاقصرْ بعض ميلك . واعلم بأنك بعين جبار وفي قبضته ، ولن تُترَك على هذا » .

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتابه ، كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عمر بن الوليد : السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . أما بعد :

فإنـه بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه ؛ أما أول شأنـك يا ابن الوليد كما زُعم : فأُمُّك بنَّانة أمة السكون ، كانت تطوف في سوق حمص ، وتدخل في حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملتْ بك ، فبئس المحمول وبئس المولود . ثم نشأتَ فكنتَ جبّارًا عنيدًا ، تزعم أني من الظالمين لما حرمتُك وأهل بيتك فيء الله عز وجل ، الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإنَّ أظلَمَ مني وأترَكَ لعهد الله ، مَنِ استعملك صبيًّا سفيهًا على جند المسلمين ، تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية إلَّا حبُّ الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما أكثر خُصماءكما يوم القيامة ! وكيف ينجو أبوك مِن خصمائه ؟ وإنَّ أظلمَ مني وأترك لعهد الله ، مَنِ استعمل الحجَّاج بن يوسف على خُمس العرب يسفـك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام . وإن أظلَمَ مني وأترك لعهد الله ، مَنِ استعمل قرَّة بن شريك أعرابيًّا جافيًا على مصر ، أذِن له في المعازف واللهو والشرب . وإنَّ أظلمَ مني وأترك لعهد الله ، من جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس العربِ . فرويدًا يا ابن بنانـة ، فلو الْتقتْ حلْقتا البِطانِ ، ورُدَّ الفيء إلى أهله ، لتفـرغتُ لك ولأهل بيتك ، فوضعتهم على المحجَّة البيضاء ، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بُنيَّات الطريق ، وما وراء هذا من الفضل - ما أرجو أن أكون رأيتُه - بيْعُ رقبتك

وقسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكلٍّ فيك حقًّا . والسلام علينا ، ولا يَنال سلامُ الله الظالمين » .

وعن ابن شوْذب ، قال : كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر ابن عبد العزيز كتابًا يغلظ له ، فكتب عمر : « إنّ أظلم مني وأجور ، مَن ولَّى عبدَ ثقيفٍ العراقَ ، فحكم في دمائهم وأموالهم . وإنَّ أظلم مني وأجور ، وأترك لعهد الله ، من وَلَّى قرَّة مصر ، جِلْفًا جافيًا . وإنَّ أظلم منِّي وأجور ، وأترك لعهْد الله مَنْ وَلَّى عثمان بن حيان الحجاز ، فأنشد الأشعار على منبر رسول الله ﷺ ، وإنما أمُّك كانت تختلف إلى حوانيت حمص ، فاشتراها ذبيان بن ذبيان ، فبعث بها إلى أبيك فحملتْ ، فبئس الجنين وبئس المولود !! ثم وضعتْكَ جبّارًا شقيًّا . لقد هممتُ أن أبعث إليك من يحلق جمَّتك فبئس الجمَّة !! » .

وعن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : أتى عمرَ بن عبد العزيز كتابٌ من بعض بني مروان ، فأغضبه ، فاستشاط ثم قال : إن لله مِن بني مروان يومًا - وقال نعيم : ذبحًا - وأيمُ الله ، لئن كانَ ذلك الذبح : على يديَّ .

فلما بلغهم ذلك ، كفُّوا وكانوا يعلمون صرامته ، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه .

وكان مما قاله عمر فيما كَتب لعمر بن الوليد : « ... وقسَم أبوك لك الخُمس كلَّه ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حقُّ الله ، وحق الرسول ، وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة ! فكيف ينجو مَن كثُر خصماؤه ؟! وإظهارك المعازف والمزامير بدعة في الإسلام . لقد هممتُ أن أبعث إليك من يَجزُّ جمَّتك ، جمَّة السوء ... » .

وقال رحمه الله مرة لآذِنه : لا يدخل عليَّ اليوم إلَّا مروانيّ . فلما

اجتمعوا عنده ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا بَني مروان ، إنكم قد أُعطيتُم حظًّا وشرفًا وأموالًا . إني لَأَحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم . فسكتوا ، فقال عمر : ألا تجيبوني ؟ فقال رجل من القوم : والله ، لا يكون ذلك حتى يُحال بين رؤوسنا وأجسادنا . والله لا نكفِّر آباءنا ، ولا نفقِّر أبناءنا . فقال عمر : والله ، لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له ، لَأضرعتُ خدودكم . قوموا عني .

ولما قال هشام له : إنا والله لا نعيب آباءنا ، ولا نضع شرفنا في قومنا . فقال عمر : وأيُّ عيب أعيَبُ ممن عابه القرآن .

لأَسْكرَنَّ تلكَ السواقِي حتى أُجريَه مجراهُ الأول :

عن نوفل بن أبي الفرات ، قال : كانت بنو أُمية يُنزلون فلانة بنت مروان على أبواب القصور ، فلما ولي عمر قال : لا يلي إنزالَها أحدٌ غيري . فأدخلوها على دابَّتها إلى باب قبَّته ، فأنزلها ثم طبق لها وسادتين ؛ إحداهما على الأخرى ، ثم أنشأ يمازحها ، ولم يكن من شأنها المزاح ، فقال : أما رأيتِ الحرس الذي على الباب ؟ قالت : بلى ، فربما رأيتُهم عند مَن هو خير منك . فلما رأى الغضب لا يتحلَّل عنها ، أخذ في الجدّ وترك المزاح ، فقال : يا عمة ، إن رسول الله ﷺ قُبض ، فترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر رجل فلم يستنقص منه شيئًا ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجلٌ آخر ، فلم يستنقص منه شيئًا ، ثم ولي بعد ذلك رجل آخر فكَرَى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابسًا ليس فيه قطرة . وأيم الله ، لئن أبقاني الله لأسكرَنَّ السواقي حتى أُعيده إلى مجراه الأول . قالت : فلا يُسبُّوا عندك إذن ؟ قال : مَن يسبُّهم ؟! إنما يرفع لَي الرجل مظلمته ، فأردّها عليه .

ودخلت عليه مرَّةً عمتُه أمُّ عمر ، فقالت : إنَّ قرابتك يشكونك ، ويزعمون أنك أخذتَ منهم خير غيرك . قال : ما منعتُهم حقًّا أو شيئًا كان لهم .

فقالت : إني رأيتُهم يتكلّمون ، وإنّي أخاف أن يُهيِّجوا عليك يومًا عصيبًا . فقال : كلّ يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا وقاني الله شرَّه . قال : ودعا بدينار وجنبٍ ومجمرة ، فألقى ذلك الدينار في النار ، وجعل ينفخ على الدينار ، حتى إذا احمر تناولَه بشيء ، فألقاه على الجنب ، فنش وقتر ، فقال : أي عمة ، أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ فقامت فخرجت على قرابته ، فقالت : تزوِّجون آل عمر ، فإذا نزعوا إلى الشبه جزعتم ، اصبروا له .

وفي رواية : « لا تلوموا إلا أنفسكم ، عمدتم إلى صاحبكم فزوَّجتموه بنت ابن عمر ، فجاءتكم بعمر » .

ولمّا قال له عنبسة بن سعيد بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن مَنْ كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطونا عطايا منعتناها ، ولي عيال وضيْعة ، أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي وما يُصلح عيالي ؟ فقال عمر : أحبكم إلينا من كفانا مئونته . فخرج من عنده، فلمّا صار إلى الباب، قال عمر : أبا خالد ، أبا خالد . فرجع ، فقال : أكثر ذكْر الموت ، فإن كنتَ في ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنت في سعة من العيش ضيّقه عليك .

قال مزاحم : أتى ابنُ سليمان بن عبد الملك ، فقال : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر . قال : فاستأذنتُ له فقال : أُدخله . فأدخلتُه على عمر . فقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين ، علَامَ تردُّ عليَّ قطيعتي ؟ قال : معاذَ الله أن أردَّ قطيعة رسخت في الإسلام ! قال : فهذا كتابي . فأخرج كتابًا من كُمِّه ، فقرأه عمر ، فقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو أولى بماله . قال : يا أمير المؤمنين ، فإنها من بيت مال المسلمين ! قال : فالمسلمون أولى بها . قال : يا أمير المؤمنين ، رُدَّ عليَّ كتابي . قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذْ جئتَني به ، فلا ندعك تطالب بباطل . قال : فبكى ابن سليمان . قال مزاحم : فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ابن سليمان تصنعُ به هذا ؟ قال : ويحك يا مزاحم ! إنها نفسي أحاول عنها ، وإني لأجد له من اللَّوْطِ ما أجد لولدي .

وعن بعض آل عمر : أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، إنّي رسول قومك إليك ، وإنّ في أنفسهم ما أكلِّمك به ؛ إنَّهم يقولون : استأنِفِ العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخلِّ بين مَن سبقك وبين ما وُلُّوا ، بما عليهم ولهم . فقال له عمر : أرأيتَ إن أُتيتُ بسجلّيْن : أحدهما من معاوية ، والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأيِّ السجلَّين آخذ ؟ قال : بالأقدم . فقال عمر : فإني وجدتُ كتاب الله الأقدمَ ، فأنا حاملٌ عليه مَن أتاني ممن تحت يدي ، وفيما سبقني . فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان : يا أمير المؤمنين ، امضِ لرأيك فيما وُلِّيت بالحق والعدل ، وخلِّ عمَّن سبقك وعمّا وُلّي ؛ خيره وشرِّه ، فإنك مكتفٍ بذلك . فقال له عمر : أنشدك الله الذي إليه نعود ، أرأيتَ لو أن رجلًا هلك ، وترك بنين صغارًا وكبارًا ، فعزَّ الأكابرُ الأصاغرَ بقوَّتهم ؛ فأكلوا أموالهم، فأدركك الأصاغر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أموالهم ، ما كنتَ صانعًا؟ قال : كنتُ أردُّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال فإني وجدتُ كثيرًا ممن قبلي من الولاة ، عَزُّوا الناسَ بقوتهم وسلطانهم ، وعَزَّهم بها أتباعُهم ، فلما وُلِّيتُ أتوني بذلك ، فلم يسعني إلّا الرد على الضعيف من القوي، وعلى المستضعَف من الشريف. فقال: وفَّقك الله يا أمير المؤمنين .

عن إسماعيل بن أبي حكيم قال : كان عند عمر بن عبد العزيز ناس من بني مروان ، فحبسهم وقال لخبَّازه : إذا دعوت بالطعام فلا تعجلْ به . فحبسهم حتى تعالى النهار ، قال : وهم قوم لم يعتادوا ذلك . فمرَّ به الخباز فقال : ويحك ! ائتنا بطعامك . قال : نعم يا أمير المؤمنين الآن . قال : فلما أبطأ ، قال لهم : فهل لكم في سويق وتمر ؟ قال:فجيء بسويق وتمر فأكلوا ، فلما فرغوا جاء الخباز بالطعام فأمسكوا ، فقال : ألا تأكلون ؟ قالوا : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما نقدر عليه . فقال لهم ذلك غير مرة ، فأبوا أن يأكلوا ، فقال : ويحكم يا بني مروان ففيم التقحُّم في النار ؟ فبكى والله وأبكى .

قال أبو بكر المروزي: سمعتُ أحمد بن حنبل- وذكر عمر بن عبد العزيز- قال : ما كان أشدَّه على بني أمية .

لباسُ عمرَ بن عبد العزيز :

قال رجاء بن حيوة : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز قوَّموا ثيابه اثني عشر درهمًا : كمته وعمامته وقميصه ، وقباءه وقرطقه وخُفَّيه ورداءه .

قال نعيم : قلتُ لعمر بن عبد العزيز : ما يُقعدك ها هنا ؟ قال : أنتظر ثيابي تُغسل لأصعد بها المنبر .

عن يعقوب ، عن أبيه ، قال : كان عمر بن عبد العزيز يُذيل ثيابه ، ويُسرف في عِطْره ؛ فلقد كان يُدخل في طيبه حمل القرنفل ، ولقد رأيتُ العنبر على لحيته كالملح ، فلما أفضتْ إليه الخلافة ، تَرَك ذلك وتبذَّل . قال : فأخبرني رياح بن عبيدة ، وكان تاجرًا من أهل البصرة يعامل عمر بن عبد العزيز ، يأمره وهو بالمدينة أن يشتري له جُبَّةَ خزٍّ ، قال : فاشتريتُها بعشرة دنانير ، ثم أتيته بها فمسَّها ، وقال : إني لَأستخشنُها . فلما ولي الخلافة أمرني فاشتريتُ له جُبَّة صوف بدينار ، فأتيتُه بها فجعل يُدخل يده فيها ويقول : ما ألينها . فقلتُ : عجبًا ! تستخشن الخزَّ أمس ، وتستلين الصوف اليوم ؟! قال : تلك حال ، وهذه حال .

عن يعقوب قال : أخبرني رجاء بن حيوة قال : كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس ، وألبس الناس ، وأخيلهم في مِشيته . فلما استُخلف قوَّموا ثيابه اثني عشر درهمًا : كمته وعمامته وقميصه ، وقباءه وقرطقه وخُفَّيْه ورداءه .

عن عيسى بن سنان، قال : كان عمر بن عبد العزيز لا يبني بناء ، ويقول : سنة رسول الله ﷺ ، خرج من الدنيا و لم يضع لَبِنة على لَبِنة ، ولا قَصَبة على قصبة .

طعامُه :

عن نعيم بن سلامة ، قال : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز وهو يأكل ثومًا بدقّة وزيت .

وقال : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز فوجدتُه يأكل ثومًا مسلوقًا بزيت وملح.

وعن ابن شوذب ، قال : دخلتِ امرأة من المهالبة على فاطمة (امرأة عمر بن عبد العزيز) ، فلما رأتْها ورأتْ حالها ، قالت لها : هل تهيأ المرأة لزوجها إلّا بما يحبُّ ؟ قالت : لا . قالت : فإنه يحبُّ هدا مني .

قال عمر رحمه الله : ما تركتُ من الدنيا شيئًا إلّا عقبني في قلبي ما هو أفضل منه - يعني من الزهد - وما أنعم الله عليَّ في ديني أفضل .

قال أبو أمية - غلام عمر -: دخلتُ يومًا على مولاتي فغدَّتْني عدَسًا ، فقلت : كلّ يوم عدس ؟ قالت : يا بُني ، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين .

وقال يونس بن أبي شبيب : شهدتُ عمر وهو يطوف بالبيت ، وإن حُجْزة إزاره لغائبة في عَكَنه ، ثم رأيتُه بعدما استُخلف ، ولو شئتُ أن أعدَّ أضلاعه من غير أن ألمسها لَفعلتُ .

عن أزهر ، قال : رأيتُ عمر بن عبد العزيز بـ « خناصرة » يخطب الناس عليه قميص مرقوع .

وأخبر ربيعة بن عطاء ، عن عمر بن عبد العزيز أنه أخَّر الجمعة يومًا عن وقته الذي كان يُصلِّي فيه ، فقلتُ له : أخَّرتَ الجمعة عن وقتك ؟ فقال : إن الغلام ذهب بالثياب يغسلها ، فحبس بها . فعرفنا أن ليس له غيرها ، ثم قال : أما إني قد رأيتني وأنا بالمدينة ، وإني لأخاف أن يعجز ما رزقني الله عن كسوتي فقط . ثم تمثّل بهذا البيت :

قضى ما قضىٰ فيما مضىٰ ثم لم تكنْ ... له عودةٌ أخرى الليالي الغوابر

وعن عوْن بن المعتمر، قال: دخل عمر على امرأته فقال: يا فاطمة، عندك درهم أشتري به عنبًا ؟ قالت : لا . ثم أقبلتْ عليه فقالت: أنت أمير المؤمنين ، لا تقدر على درهم ولا ثمنه تشتري به عنبًا ؟! فقال : هذا أهون علينا من معالجة الأغلال في جهنم .

قال مالك بن دينار : الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها .

قال أحمد بن أبي الحواري سمعتُ أبا سليمان الداراني ، وأبا صفوان يتناظران في عمر بن عبد العزيز وأويس القرني ؛ قال أبو سليمان لأبي صفوان : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس . قال له : ولِمَ ؟ قال : لأن عمر ملك الدنيا فزهِد فيها . فقال له أبو صفوان : وأويس ، لو ملكها لزهد فيها مثل ما فعل عمر . فقال أبو سليمان : لا تجعلْ مَن جرَّب كمَن لم يجرِّب ، إن مَن جرت الدنيا على يديه ليس لها في قلبه موقع ، أفضل ممن لم تجرِ على يديه ، وإن لم يكن لها في قلبه موقع .

قال الزبير بن بكَّار : أتى عمر بن عبد العزيز منزله ، فقال : هل عندكم من طعام ؟ فأصاب تمرًا وشرِب ماءً ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله .

وعن حفص بن عمر قال : احتبس عمر بن عبد العزيز غُلامًا له ، يحتطب عليه ويلقط له البعر ، فقال له الغلام : الناس كلهم بخيرٍ غيري وغيرك . قال : فاذهب فأنت حرٌّ .

كرَمُه ووَرَعُه :

قال عمر رحمه الله : ما أعطيتُ أحدًا مالًا إلَّا وأنا أستقلُّه ، وإنِّي لأستحي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قِيل لي : لو كانت الجنة بيدك ، كنتَ بها أبخل .

قال أبو شيبان : بعث معي عمارة بن نسي إلى عمر بسلَّتيْن من رطب ،

أول ما جاء الرطب ، فأتيتُه بهما فقال : علامَ جئتَ بهما ؟ قلتُ : على دوابِّ البريد . قال : فاذهب فبعهما . فذهبتُ فبعتُهما بثمانية عشر درهمًا ، فاشتراهما مني رجل من بني مروان ، فأهداهما إلى عمر ، فلما أُتي بهما قال : يا أبا شيبان ، كأنهما السلّتان اللتان أُتينا بهما . قال : قلتُ : نعم . فوضع إحداهما بين أيدينا فأكلنا منها ، وبعث الأخرى إلى امرأته ، وألقى ثمنهما في بيت المال .

قال عمر بن عبد العزيز : وددتُ أن عندي عسلًا من عسل (سنِّير) أو (لبنان) . فسمعتْ فاطمة بنت عبد الملك ، فحمَّلتْ بعض غلمانها ، أو بعض مواليها ، إلى ابن معدي كَرِب ، وهو عامل ذلك المكان : إن أمير المؤمنين قد تشهَّى من عسل سنير أو لبنان . فأرسل إليه بعسل كثير ، فلما انتهى بالعسل إليها ، أرسلت به إلى عمر ، فقالت : هذا الذي تشهَّيتَ . فقال : كأني بك يا فاطمة قد بعثتِ بعضِ مواليك إلى ابن معدي كرب . فأمر بذلك العسل ، فأُخرج إلى السوق ، فبيع وأُدخل ثمنه بيت مال المسلمين ، ثم كتب إلى ابن معدي كرب : إن فاطمة بعثتْ إليك تُخبرك أني تشهَّيتُ عسلًا من عسل سنير أو لبنان ، فبعثتَ إليها ، وأيمُ الله ، لئنْ عدتَ إلى مثلها لا تعمل لي عملًا أبدًا ، ولا أنظر إلى وجهك .

وانظر إلى ورَعه رحمه الله ؛ فإنه كان لا يحمل على البريد إلا في حاجة المسلمين .

قال رياح بن عبيدة : كان عمر بن عبد العزيز يُعجبه أن يأْتَدِم بالعسل ، فطلب من أهله يومًا عسلًا فلم يكن عنده ، فأتوه بعد ذلك بعسل ، فأكل منه فأعجبه ، فقال لأهله : من أين لكم هذا ؟ قالت امرأته : بعثتُ مولاي بدينارَيْن على بغل البريد فاشتراه لي . فقال : أقسمتُ عليك لما أتيتِني به . فأتَتْه بعكة فيها عسل ، فباعها بثمن يزيد ، وردَّ عليها رأس المال ، وألقى بقيَّته في بيت مال المسلمين ، وقال : نصبتِ دوابَّ المسلمين في شهوة عمر ؟!.

عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : اشتهى عمر بن عبد العزيز يومًا عسلًا ،

فلم يكن عندنا ، فوجَّهْنا رجلًا على دابَّة من البريد إلى « بعلبك » ، فأتى بعسل ، فقلنا يومًا : إنك ذكرتَ عسلًا ، وعندنا عسل ، فهل لك فيه ؟ قال : نعم . فأتينا بـه ، فقرب ثم قال : من أين لكم هذا العسل ؟ قالت : وجَّهنا رجلًا ، على دابة من دوابِّ البريد بدينارين إلى بعلبك ، فاشترى بها لنا عسلًا فأرسل إلى الرجل فجاءه ، فقال : انطلقْ بهذا العسل إلى السوق فبعْه ، فارددْ إلينا رأس مالنا ، وانظر إلى الفضل ، واجعله في بيت مال المسلمين علفَ دوابِّ البريد ، ولو ينفع المسلمين قيْئي لَتقيّأتُ .

وعن فرات بن مسلم قال : اشتهى عمر بن عبد العزيز تُفَّاحًا ، فطُلب له فلم يُوجد ، فركب وركبنا معه ، فتلقَّاه غلمان من الديارنة بأطباق فيها تفاح . فوقف على طبق منها ، فتناول منه تفاحة فشمَّها ثم أعادها في الطبق ، ثم قال : ادخلوا ديركم ، لا أعلم أنكم بعثتم إلى أحد من أصحابي بشيء . قال : فحركتُ بغلتي فلحقتُه ، فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيتَ التفاح وطُلب لك فلم يوجد ، ثم أُهدي إليك فرددتَه ، ألم يكن رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، يقبلون الهدية ؟ قال : إنها كانت لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، هدية ، وللعمَّال بعدهم رشوة .

وعن الفهري ، عن أبيه : كان عمر بن عبد العزيز يقسِّم تفاح الفيء ، فتناول ابن له صغير تفاحة ، فانتزعها مِن فِيهِ فأوجعه ، فسعى إلى أُمه مستعبِرًا ، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحًا ، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح ، فقال : يا فاطمة ، هل أُتيتِ شيئًا من هذا الفيء ؟ قالت : لا . وقصَّت عليه القصة ، فقال : والله لقد انتزعتُها من ابني ، لكأنما انتزعتُها من قلبي ، لكن كرهتُ أن أضيع نفسي من الله عز وجل ، بتفاحة مِن فيء المسلمين .

وقال ابن السماك : كان عمر بن عبد العزيز يقسِّم تفاحًا بين المسلمين ، فجاء ابنٌ له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح ، فوثب إليه ففكَّ يده ، فأخذ تلك التفاحة، وطرحها في التفاح، فذهب إلى أمه مستعبِرًا، فقالت له: ما لكَ أي بُني ؟

فأخبرها ، فأرسلت بدرهمَيْن ، فاشترتْ له تفاحًا وأطعمته ، ورفعت لعمر . فلما فرغ مما بين يديه ، دخل إليها ، فأخرجت له طبقًا من تفاح ، فقال : من أين هذا ؟ فأخبرته ، فقال : رحمكِ الله ، والله إن كنتُ لَأشتهيه .

وعن خالد بن أبي الصلت قال : أُتي عمر بن عبد العزيز بماءٍ قد سُخِّن في فحم الإمارة ، فكرهه ولم يتوضَّأ منه .

وعن يعقوب ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن عبد العزيز : أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، قال : قيل له : يا أمير المؤمنين ، لا والله ما عندنا عُود حطب نوقده به . قال : فذهبوا بالقُمْقُم إلى المطبخ (مطبخ المسلمين) . قال : ثم جاءوا بالقمقم ، فقالوا : هذا القمقم يا أمير المؤمنين ، وهو يفور . فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلَّكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : ادعوا لي صاحب المطبخ . فلما جاءه ، قال له : قيل لك : هذا قمقم أمير المؤمنين فأوْقدتَ تحتَه ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما أوقدتُ تحته عُودًا واحدًا ، وإن هو إلَّا جمْر لو تركتُه لخمد حتى يصير رَمَادًا . قال : بكَمْ أخذتَ الحطب ؟ قال : بكذا قال : أَدُّوا إليه ثمنه .

أخذ عمر بيده اليمنى على ذراعه اليسرى، فقال: إن هذا اللحم والعظم إنما نبت من مال الله ، فإني - والله - إن استطعتُ لا أعيد فيه منه شيئًا أبدًا .

وعن محمد بن قيس - قاصٍّ عمر بن عبد العزيز - قال : خرج علينا يومًا مزاحم فقال : لقد احتاج أهل أمير المؤمنين إلى نفقة ، ولا أدري من أين آخذها ، ولا أدري ممن أستلفها . قال : قلتُ : لولا قلَّة ما عندي لعرضتُه عليك . قال : وكم عندك ؟ قلت : خمسة دنانير . قال : والله ، إن في خمسة دنانير لبلاغًا ، فأعطِنيها . فدفعتُها إليه . ثم أتاه مال من أرض عمر باليمن ،

قال: فمر عليَّ مزاحم مسرورًا، وقال: قد جاءنا مال من أرض لنا ، نقضيك الآن تلك الخمسة الدنانير . قال : فدخل ثم خرج وإحدى يديه على رأسه ، وهو يقول : أعظم الله أجرَ أمير المؤمنين ، أعظم الله أجر أمير المؤمنين . قال : قلنا : أجل ، أعظم الله أجر أمير المؤمنين ، وما ذاك ؟ قال : أمر بهذا المال الذي جاء من أرضه أن يدخل بيت مال المسلمين . فلا أدري كيف تحيَّل لي في الخمسة حتى قضاني .

ودخل جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له :

إنَّا لَنرجو إذا ما الغيثُ أخلَفَنا ... مِن الخليفةِ ما نرجو مِنَ المطرِ
أأذكر الضرَّ والبلوى التي نزلتْ ... أم أكتفي بالذي أُنبئت منْ خبري
ما زلتُ بعدَكَ في دارٍ تقحّمني ... وضاق بالحي إصعادي ومُنحدري
لا ينفعُ الحاضرُ المهجودُ بادينا ... ولا يعودُ لنا بادٍ على حضري
كم بالمواسمِ منْ شعثاءَ أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ
أذهبتَ خلّتهُ حتى دعا ودعتْ ... يا ربِّ باركْ لِطرِّ الناسِ في عُمرِ
ممَّن نعدُّك تكفي فقْدَ والدِهِ ... كالفرْخِ في الوكْرِ لم ينهضْ ولم يطِرِ
هذي الأراملُ قدْ قضَّيْتَ حاجتَها ... فمَن لحاجة هذا الأرْملِ الذكرِ

فترقرقتْ عينا عمر ، وقال : إنَّك لَتصف جهدك . فقال : ما غاب عني وعنك أشدُّ . قال : فجهَّز إلى الحجاز عِيرًا يحمل الطعام والكسي والعطاء يُبَثُّ في فقرائهم . ثم قال : أخبرني : أمِنَ المهاجرين أنت يا جرير ؟ قال : لا . قال : فبينك وبين الأنصار رَحِم أو قرابة أو صهر ؟ قال : لا . قال : فممَّن يقاتل على الفيء أنت ؟ ويُجلِب على عدو المسلمين ؟ قال : لا . قال : فلا أرى لك في شيء من هذا الفيء حقًّا . قال : بلى والله ، لقد فرض الله لي فيه حقًّا ، إنْ لم تدفعني عنه . قال : ويحك ! وما حقُّك ؟ قال : ابن السبيل أتاك من شُقَّة بعيدة ، فهو منقطع به على بابك . فقال : إذنْ أُعطيك . فدعا

بعشرين دينارًا فضَلَتْ من عطائه ، فقال : هذه فضلت من عطائي ، وإنما يعطى ابن السبيل من مال الرجل ، ولو فضل أكثر من هذا أعطيتك ، فخذها ، فإن شئتَ فاحمدْ ، وإن شئتَ فذِمَّ . قال : بل أحمدُ يا أمير المؤمنين . فخرج ، فجهشتْ إليه الشعراء وقالوا: ما وراءك يا أبا حرزة ؟ قال: ليلحق الرجل منكم بمطيَّته، فإني خرجتُ من عند رجل يعطي الفقراء ولا يعطي الشعراء ، وإني عنه لراضٍ . قال :

وجدتُ رُقَى الشيطانِ لا تستفزُّهُ وقد كان شيطاني مِن الجنِّ راقيا

حِلْمُه وصفْحُه :

كان لعمر بن عبد العزيز ابن من فاطمة ، فخرج يلعب مع الغلمان، فشجَّه غلام ، فاحتملوا ابن عمر والذي شجَّه ، فأدخلوهما على فاطمة ، فسمع عمر الجَلَبة وهو في بيت آخر فخرج ، وجاءت مُريئة فقالت : هو ابني ، وهو يتيم . فقال : له عطاء ؟ قالت : لا . قال : اكتبوه في الذُّرِّيَّة . قالت فاطمة : فعَل الله به وفعل ، إن لم يشجَّه مرة أخرى . قال : إنكم أفزعتموه .

وعن عبد الملك ، قال : قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته ، وعرض له رجل بيده طومار ، فظنَّ القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، فخاف أن يُحبَس دونه ، فرماه بالطومار ، والتفت أمير المؤمنين ، فأصابه في وجهه فشجَّه ، فنظرتُ إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس، فقرأ الكتاب، وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله .

وخرج ليلة ومعه حرس ، فدخل المسجد فمر في الظُّلْمة برجل نائم ، فعثر به ، فرفع رأسه ، فقال : أمجنون أنت ؟ قال : لا . فهمّ به الحرس ، فقال له عمر : مَهْ ! إنما سألني : أمجنون أنت ؟ فقلت : لا .

وأسمعَ رجلٌ عمرَ كلامًا ، فقال له عمر : أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزِّ السلطان ، فأنال منك اليوم ما تنال مني غدًا ؟! ثم عفا عنه .

تعبُّدهُ واجتهادُه :

قال سعيد بن عبد الملك : بتُّ عند أختي فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز ، فلمَّا أمسينا دخل البيت ، وفي البيت تابوت ، قال : ففتحه فأخرج ثوبَي شعر ، ووضع ثيابه ، ثم لبسها ، ثم قام يصلي .

وكان لعمر سفَط فيه دراعة من شعر وغُلٌّ، وكان له بيت في جوْف بيت يصلِّي فيه، لا يدخل فيه أحد، فإذا كان في آخر الليل، فتح ذلك السفَط، ولبس تلك الدراعة ، ووضع الغُلَّ في عنقه ، فلا يزال يناجي ربَّه ويبكي حتى يطلع الفجر ، ثم يعيده في السفط .

ولما مات عمر كان استودع مولًى له سفطًا يكون عنده ، فجاءوه فقالوا : السفط الذي كان استودعك عمر . فقال : ما لكم فيه خير . فأَبَوا ، حتى رفعوا ذلك إلى يزيد بن عبد الملك ، فدعا بالسفط ، ودعا بني أُمية وقال : خَبْركم هذا قد وجدنا له سفَطًا وديعةً قد استودعها . فدعا به ، فجاءوا به ففتحوه ، فإذا فيه مقطَّعات من مسحٍ كان يلبسها بالليل .

قال إبراهيم بن عبيد بن رفاعة : شهدتُ عمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن قيس يحدِّثه ، فرأيتُ عمر يبكي حتى اختلفتْ أضلاعُه .

وقال عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك : بكى عمر ، فبكت فاطمة ، فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء ! فلمَّا تجلَّى عنهم العسر ، قالت له فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين ، ممَّ بكيتَ ؟ قال : ذكرتُ يا فاطمة منصرفَ القوم من بين يدي الله ؛ فريق في الجنة وفريق في السعير . قال : ثم صرخ وغُشي عليه .

وقال النضري بن عدي : دخلتُ على عمر فرأيتُه هكذا : قد نصب ركبتيه ووضع يديه عليها ، وذقنُه على ركبتيه ، وكأنَّ عليه بَثّ هذه الأمة .

وكان عمر رحمه الله إذا ذُكر الموت ، انتفض انتفاض الطيْر وبكى ، حتى

تجري دموعه على لحيته .

قال عطاء : كان عمر بن عبد العزيز يجمع كلَّ ليلة الفقهاءَ ، يتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون ، حتى كأنَّ بين أيديهم جنازة .

وعن الحسن بن عميرة قال : اشترى عمر بن عبد العزيز جارية أعجمية ، فقالت : أرى الناس فرِحين ، ولا أرى هذا يفرح . فقال : ما تقول لُكَع ؟ فقيل له : إنها تقول كذا وكذا . فقال : ويحها ! حدِّثوها أن الفرح أمامها .

وعن ميمون بن مهران قال : حدَّثت عمر بن عبد العزيز بحديث فيه شدَّة ، فلم يزل يبكي حتى بكى الدمَ .

وعن مولًى لعمر ، قال : استيقظ ذات ليلة باكيًا ، فلم يزل يبكي حتى استيقظت . قال : وكنتُ أبيتُ معه ، وربما منعني النومَ كثرةُ بكائه . قال : فأكثر ليلتئذٍ البكاء جدًّا ، فلما أصبح دعاني ، فقال : أي بُنَّي ، ليس الخير أن يُسمَع لك ويُطاع ، إنما الخير أن تكون قد عقلتَ عن ربك ثم أطعتَه . يا بنيَّ ، لا تأذنِ اليوم لأحد عليَّ حتى أُصبحَ ويرتفع النهار ، فإني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني . قلتُ : بأبي أنتَ يا أمير المؤمنين ؛ رأيتُك الليلة بكيتَ بكاءً ما رأيتُك بكيتَ مثله ؟ قال : فبكى ثم بكى ، ثم قال : يا بُنَّي ، إني والله ذكرتُ الوقوفَ بين يدي الله . قال : ثم أُغمي عليه ، فلم يفقْ حتى علا النهار . قال : فما رأيتُه بعد ذلك مبتسمًا حتى مات .

وقال محمد بن قيس قاصُّ عمر بن عبد العزيز : ما رأيتُ أحدًا من خلْق الله أكثر بكاءً منه .

رحم الله عمر ... صعِد مرة المنبر فخطب ، فقرأ : ﴿ **إذا الشمس كُوِّرت وإذا النجومُ انكدرتْ** ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ **وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ وإذا الجنةُ أُزلفتْ** ﴾ [التكوير : ١ - ١٣] ، فبكى ، وأبكى أهل المسجد حتى ارتجَّ المسجد بالبكاء ، حتى كأنَّ حِيطان المسجد تبكي معه .

قال الوليد : سمعتُ رجلًا يحدِّث الأوزاعي ، عن جسر ، عن عمر بن عبد العزيز ،

قال : ذكرنا شيئًا مما كان فيه ، فبكى حتى رأينا خلَل الدمِ في الدمع . فقال الأوزاعي : قد بلغنا البكاء عن البكّائين ؛ عن داود عليه السلام فَمَنْ دونه ، ما بلغنا أن أحدًا صار إلى هذا غير عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله .

وعن ميمون بن مهران ، قال : قال عمر بن عبد العزيز : حَدِّثْني يا ميمون ، قال : فحدَّثتُه حديثًا بكى منه بكاءً شديدًا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو علمتُ أنك تبكي هذا البكاء ، لَحدَّثتُك بحديثٍ أَلْيَن من هذا . فقال : يا ميمون ، إنَّا نأكل هذه الشجرة (العدس) ، وهي -- ما عَلمْتَ -- مُرِقَّة للقلب ، مُغزرة للدمعة ، مُذِلَّة للجسد .

عن أبي سريع الشامي ، قال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه : أبا فلان ، لقد أَرِقتُ الليلة مفكِّرًا . قال : فيمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكنه ، إنك لو رأيتَ الميت بعد ثلاثة -- أو قال : ثالثة -- في قبره ، لَاستوحشتَ من قُرْبه بعدَ طُول الأُنْس منك بناحيته ، ولَرأيت بيتًا يجول فيه الهوامُّ ، ويجري فيه الصديد ، وتخترقه الديدان ، مع تغيُر الريح ، وبِلَى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال : ثم شهِق شهقة خرَّ مغشيًّا عليه ، فقالت فاطمة : ويحك يا مزاحم ! أخرج هذا الرجل عنا ، فلقد نغَّص علينا أمير المؤمنين الحياة منذ ولي ، فليته لم يلِ قال : فخرج الرجل ، وجاءت فاطمة ، فجعلت تصبُّ على وجهه الماء وتبكي ، حتى أفاق من غشيته ، فرآها تبكي ، فقال : يا فاطمة ، ما يُبكيكِ ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، رأيتُ مصرَعك بين أيدينا ، فذكرتُ مصرعك بين يدي الله للموت ، وتخلِّيك من الدنيا وفراقك لها ، فذاك الذي أبكاني . قال : حسبك يا فاطمة ! فلقد أبلغتِ . ثم مال ليسقط ، فضمَّته إلى صدرها -- أو قال : إلى نفسها -- فقالت : بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين ، ما نستطيع أن نكلِّمك بكلِّ ما نجد لك في قلوبنا . فلم يزل على حاله تلك حتى حضرت الصلاة ، فصبَّتْ على وجهه ماء ثم نادته : الصلاة يا أمير المؤمنين . فأفاق فزِعًا .

قال المغيرة بن حكيم : قالت لي فاطمة بنت عبد الملك ، امرأة عمر ابن عبد العزيز : يا مغيرة ، إنَّه قد يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر ، وما رأيتُ أحدًا قطُّ ، كان أشدَّ فَرَقًا من ربه من عمر ، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ، ثم رفع يديه ، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه ، فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه .

وعن عطاء ، قال : دخلتُ على فاطمة بنت عبد الملك ، بعد وفاة عمر ابن عبد العزيز ، فقلت لها : يا بنتَ عبد الملك ، أخبريني عن أمير المؤمنين . قالت : أفعل ، ولو كان حيًّا ما فعلت ؛ إنَّ عمر رحمه الله ، كان قد فرَّغ نفسه وبدنه للناس ، كان يقعد لهم يومَه ، فإن أمسى عليه بقيَّة من حوائج الناس يومه ، وصله بليلته ، إلى أن أمسى مساء ، وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان يسرج له من ماله ، ثم قام فصلَّى ركعتين ، ثم أَقْعَى[1] واضعًا رأسه على يده، تسايل دموعُه على خدِّه ، يَشْهَقُ الشَّهْقَة، وأقول : قد خرجتْ نفسه ، أو انصدعتْ كَبِده . فلم يزل ليلَته حتى برق له الصبح ، ثم أصبح صائمًا . قالت : فدنوتُ منه فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لسيء ما كان فيك الليلة ، ما كان منك ؟ قال : أجل ، فدعيني وشأني ، وعليك بشأنِك ، قالت : قلتُ له : لأني لأرجو أن أتعظ . قال : إذن أخبرك ، إني نظرتُ إليَّ ، فوجدتُني قد وليتُ أمر هذه الأمة : صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، في أقاصي البلاد ، وأطراف الأرض ، فعلمتُ أنَّ الله سائلي عنهم ، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم ، فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر ، ولا يقوم لي مع رسول لله ﷺ حُجَّة ، فخفتُ على نفسي خوفًا دمَعتْ له عيني ، ووجل له قلبي ، وأنا كلما ازددتُ لها ذكرًا ، ازددتُ منه وجَلًا ، وقد أخبرتُك ، فاتعظي الآن أو دعي .

---

(١) استند إلى ما وراءه .

وبكتْ فاطمة بنت عبد الملك حتى عشي بصرُها ، فدخل عليها أخواها : مسلمة وهشام ابنا عبد الملك ، فقالا : ما هذا الأمر الذي قدمتِ عليه ؟ أَجزعُكِ على بعْلك ؟ فأَحقُّ من جزع على مثلِه ، أم على شيء فاتَكِ من الدنيا ؟ فها نحن بين يديك ، وأموالنا ، وأهلونا . فقالت : ما من كلٍّ جزعتُ ، ولا على واحدة منها أسفتُ ، ولكني - والله - رأيتُ منه ليلةً منظرًا ، فعلمتُ أن الذي أخرجه إلى ذلك الذي رأيت منه، هولٌ عظيم قد أسكنَ قلبَه معرفتَه. قالا : وما رأيتِ منه ؟ قالت : رأيتُه ذات ليلة قائمًا يصلّي ، فأتى على هذه الآية : ﴿ **يَوْمَ يكونُ الناسُ كالْفَراش المبْثُوثِ وتكُونُ الجبَالُ كالْعِهْنِ المنْفوش** ﴾ [القارعة : ٤ - ٥] ، فصاح : واسَوْءَ صباحاه !! ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننتُ أن نفْسَه ستخرج، ثم إنه هدأ، فظننتُ أنه قد قضى. ثم أفاق إفاقة، فنادى: يا سوء صباحاه !! ثم وثب ، فجعل يجول في الدار ، ويقول : ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهن المنفوش . قالت : فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر ، ثم سقط كأنه ميِّت ، حتى أتاه الأذان للصلاة ، فوالله ما ذكرتُ ليلته تلك ، إلَّا غلبتني عيناي ، فلم أملك ردَّ عَبْرتي .

قال يزيد بن حوْشب : ما رأيتُ أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تُخلَق إلّا لهما .

قال عمر بن عبد العزيز : بؤُسًا لمن كان بطنه أكبرَ همِّه .

وقال رحمه الله : الفِعَال أولى بالمرء مِنَ القول .

وعن مسعود بن بشر : أن رجلًا قال لعمر بن عبد العزيز - لما وَلي الخلافة -: تفرَّغْ لنا . فقال :

قد جاءَ شغلٌ شاغِلٌ وعدلتُ عن طُرق السلامهْ
ذهبَ الفراغُ فلا فَرا غَ لنا إلى يوم القيامهْ

وكان عمر رضي الله عنه يتمثّل بهذه الأبيات :

يُرى مستكينًا وهْو للَّهْو ماقِتٌ ... بهِ عنْ حديثِ القومِ ما هو شاغِله

وأزعَجَهُ عِلمٌ عن الجهل[١] كلِّهِ ... وما عالمٌ شيئًا كمنْ هو جاهِلُهْ

عبوسٌ عن الجُهَّالِ حينَ يراهُمُ ... فليسَ لهُ منهمْ خدِينٌ[٢] يهازِلُهْ

تذكَّرَ ما يبقى منَ العيشِ آجلًا ... فأشغلَهُ عن عاجل العيشِ آجلُهْ

رحمك الله يا سليمان بن عبد الملك ، حين هتفتَ بعبارتك المأثورة الباهرة : « واللهِ لأعقدنَّ لهم عقدًا ، لا يكون للشيطان فيه نصيب » !! وعهدتَ بالأمر من بعدك إلى القدِّيس ... المعجزة عمر بن عبد العزيز .

إن الكتابة عن عمر بن عبد العزيز هي حقٌّ للإسلام الذي كان ابن عبد العزيز ابنَه البارَّ ومِلْكيته الثمينة ، وثمرته ومعجزته .

ألَا إن نبأ عمرَ لَعجيب !! وإن تصوُّره - مجرَّد تصوّره - لَأمرٌ مُمعِن في الصعوبة يا رجال .

وإنَّ أوْثق الروايات نقلتْ إلينا عنه آيات نيِّرات في صدق تاريخّي عظيم ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر ، والحاكم القِدِّيس ....!! هذا الحشد الهائل من الحقائق التي تحكي لنا جلال قداسته .. وروعة بساطته .. وسموَّ عدله ونُبْل رُوحه .. وإعجاز مسلكه ....!!

وإذا كانت الحكمة العربية تقول : مَن أخصب تخيَّر .. فإني أجدها الآن : من أخصب تحيَّر[٣] .

في الذُّرا الشاهقة كان مكان عمر بن عبد العزيز بين الملوك والخلفاء ...

(١) في رواية أخرى : وأزعجه خوف عن اللهو كلِّه .

(٢) صاحب .

(٣) خلفاء الرسول لخالد محمد خالد صـ٤٦٥ - ٤٦٦ .

وهو وإن لم يَنتمِ لعصر الوحي - « خلافة النبوة ثلاثون عامًا » - إذْ تفصِله عنه عشرات الأعوام ؛ فإنه بقداسة روحه وجلال نُسُكه ، ينتمي إليه أروع وأجمع وأوثق ما يكون الانتماء ...

كلِمَاتٌ للحياة :

يقول الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه عن عمر بن عبد العزيز .. « معجزة الإسلام » : إنه لا ينتمي لعصر الوحي فحسب .. بل إنه الرجل الذي حاول نقل عصر الوحي بمُثُله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة ، ثم نجح في محاولته نجاحًا يبهر الألباب ... !!

فهل نَدهش ونَذهل ؛ لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل ؟! أم ندهش ونذهل ؛ لأنه بمفرده قد حقّق المستحيل فعلًا .. وجعل من المُلك العَضوض الذي شاده الأُمويُّون عبْرَ ستين عامًا ، خلافة أوَّابة عادلة بارَّة ، تمثِّل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحي ؟!

ومتى ..؟! ليس في عشرين عامًا .. ولا في عشرة أعوام .. بل في عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام ..!!

على أنه ليس في هذا التوفيق العظيم والقدرة الخارقة ، ما يجذب - وحده - انبهارنا .. فهناك تلك الميزة الفريدة التي جعلت من « ابن عبد العزيز » ومن سيرته ، أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجَب والبهْر والإجلال ، والتي جعلت منه أسطورة أصدق من الحقيقة ...وحقيقة أعجب من الأساطير ..!!

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسموِّ حُكْمه وخلافته ، فحسب ، بل إنه - قبل ذلك كلِّه - شغل الناس والتاريخ ، وبهرَهما بذلك الانقلاب الروحي المذهل ، وبالظروف التي أحدثتْه وواكبته . فقد يكشف منصب الحكم والخلافة في شاغله عن عبقرية في التنظيم ، والإدارة ،

والسياسة . أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه ، سببًا مباشرًا لتفجير عبقرية الروح والقداسة، فذلك ما يصعُب تصوُّره، فضلًا عن تفسيره !! وهذا هو الذي حدث بالنسبة لـ « عمر بن عبد العزيز » ؛ فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه ، وطَوالَ سِني عمره طاهرًا صالحًا فاضلًا ، فإن ذلك كله لا يبدو شيئًا مذكورًا أمام حياته ومسلكه ، ... بعد القفزة المجيدة والمباغتة ، التي حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحي شهدناه في كلّ بني الإنسان !!

ويزيد الأمرَ عجبًا ، أنَّ هذا الانقلاب الباهر ، تمَّ بتكامُله المطلق في بضع دقائقَ من الزمان .. وأن هذا الانقلاب الروحي المعجز ، لم يجئ ثمرةَ طارئ يُغري بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات .. بل هو على النقيض من ذلك ، ثمرة مفاجأة تُفجِّر في النفس - مهما يكن ورَعها وتُقاها - كلَّ رغبات الحياة المتأنِّقة ، ومباهجها المتألِّقة !!

أجَلْ .. ففي الدقائق - وإن شئتم ففي اللحظات - التي هُتف فيها باسمه خليفة وحاكمًا لأعظم إمبراطوريات عصره وعالَمه ، تمَّ هذا الانقلاب الذي يتحدَّى كلَّ وصف وكلَّ تصوير !! والرجل الذي كان قبل دقائق استخلافه يُضمِّخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحُلَل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافناتِ الجِيَاد ، ويبلغ دخلُه السنوي أربعين ألف دينار ، هذا الرجل ذاتُه ، يصير بعد دقائق - لا أيام ولا ساعات - إنسانًا آخر ، عِطرُه عَرَقُه .. وجياده قدماه .. وملبسه من أخشن الثياب .. ومطعمه من أجشب الطعام .. ودخلُه لا شيء ؛ فقد حمل كلَّ ثروته إلى بيت المال .. وقصوره الفارهة لا قصور .. فقد تحوَّل عنها إلى دار متواضعة من الطين .. وعرشه - يالَجلالِ عرشه - حصير قديم يجلس عليه فوق التراب !!

ويزيد الأمر تعقيدًا ، كما يزيده روعةً وجلالًا ، أنَّ بطل هذا الانقلاب

الروحيّ المثير ، لم يكن من أوساط الناس ، بل هو ربيب المُلْك والقصور ، والأمجاد ، والنعيم .. كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخًا هرِمًا ، في سنِّ الستين أو السبعين . بل كان في رائعة شبابه ورجولته ، في سنِّ الخامسة والثلاثين .!!

تحت أيِّ تأثير ، لا يُقاوَم سحره ولا يُردُّ قدْره ، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف ؟؟ لا شيء أمامنا سوى « مسئولية الحكم » ، نقلته في لحظات إلى قدّيس لا نظير له بين جميع القدِّيسين ؛ ذلك أنه لم يَصِر « قديسَ صومعةٍ » ، بل قديسَ صوْلجان وسلطان .. ودولة من أعظم دول الأرض والزمان . وذلك - لَعمر الحقِّ - ما يكاد يذهب بالألباب !!

لقد صار منذ استُخلِف يَتلوَّى تحت وقْع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه : « من ينقذني يوم القيامة من حقِّ الفقير الجائع .. والمريض الضائع .. والمظلوم المقهور .. واليتيم .. والأرملة .. والأسير .. » ؟!

إيهِ يا بن عبد العزيز !! تقدَّم ، ولا تخفْ ..

تقـدَّمْ .. لترى الدنيا كيف أنجبَ الإسلامُ .. وكيـف ربَّى « محمـد » وعَلَّم !!

تقدَّمْ يا حفيدَ الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم !!

تقدَّمْ « يا أمير المؤمنين » ، وأرِنا اليوم مُرقَّعاتِك وأسمالَك !!

أرِنا القميص الذي كنتَ تغسله ، ثم تنتظره في ركن دارك حتى يجفَّ ، لأنك لا تملك سواه !!

أرِنـا وجهَك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ما تبذُل من جهد ، ومن أثَرِ الخبز المتبَّل بالملح ، والمبلَّل بالزيت !!

أرنا « الحصير » الذي اتخذتَ منه عرشًا يا خليفة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين !!

أرِنا دارك التي شَدَّتْ إليها الرحالَ من بلاد بعيدة ، سيدةٌ جاءت تطلب المزيد من عطائها فلم تلبث حين رأتْها أنْ قالت في مرارة : أتُراني جئتُ أعمر بيتي من هذا البيت الخَرِب ؟! ألا حيًّا الله « فاطمة » زوجتَك ؛ فكم كانت صادقة حين أجابتها : « إنما خرَّب هذا البيت ، عمارةُ بيوتِ أمثالِكِ » !!

تقـدَّمْ .. يا أمير المؤمنين !! فما نعرف يقينًا أشبـه بالأُسـطورة .. ولا أسطورة .. أصدقَ من اليقين منك أنت ، ومن نبئِكَ العظيم !! »[1] .

قبل مجيء هذا القدِّيس العظيم .. كان هناك تزييف للقيم والحقائق ، وسعار دموي ، وكما يقول الحجَّاج : « لآخذنَّ الوليَّ بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظاعِن ، والمطيعَ بـذنب العاصي ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول له : انـجُ سعـدُ ، فقد هلك سعيد » .

ويكفي لتصوير الفساد الذي سبق مجيءَ عمر ، أنَّ جريرًا يجرِّع الناس قوله في مدح الحَجَّاج ، فيقول :

إنَّ ابنَ يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا ماضي البصيرة واضحُ المِنهاجِ

ويقول الفرزدق :

ولَمْ أَرَ كالحجَّاجِ عوْنًا على التُّقى ولا طالبًا يـومًا طـريـدةَ نابـلِ

بسيفٍ بهِ للهِ يضربُ مَن عصى على قِصَرِ الأعناقِ فوقَ الكواهلِ

وبينا قُوَّاد الوليد يملئون الأرض دمًا ، كانت تردَّد في المحافل :

إنَّ الـوليدَ أميرُ المـؤمنـينَ لـهُ مُلْـكٌ عليـهِ أعـان اللهُ فـارتفَعَا

وماذا يربط الناس بالقيم ، حين يرون خليفتهم عبد الملك بن مروان يصطفي لنفسه الأخطلَ ، وهو يذكر هجاءه المقذع السافل ، للأنصار الذين بوَّأهم القرآن

---

(١) خلفاء الرسول لخالد محمد خالد صـ٤٦٦ - ٤٦٩ .

مكانًا عليًّا ؟!

لقد راح الغرباء يتطلَّعون إلى السماء في انتظار النجم الذي يجدِّد الله به دينه ، والذي يردُّ للخلافة كرامتها وقدْرها ، ويضع عن الناس إصْرَهم .

كانت التركة قاتلة ، والميراث رهيبًا .. لقد ظنَّ الناس أن الطهارة والنقاء وُئِدَ إلى الأبد .. وكان الأمر يحتاج إلى معجزة ، ويمينُ الله ملْأَى بالمعجزات ... ومنها عمر بن عبد العزيز .

ولله درُّه حين يفتتح عهده بعزْل أسامة التنوخي ، وكان على خَراج مصر ، « وكان غاشمًا ظلومًا ، مسرفًا في العقوبات بغير ما أنزل الله ؛ يقطع الأيدي ، ويملأ أجواف الدوابِّ بأشلاء ضحاياه ، ثم يطرحها للتماسيح » ، كما قال ابن عبد الحكم .

ولله درُّه حين يعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقيا لتجبره وظلمه !!

إن الصِّدِّيقيَّة هي الحاصل النهائي لفضائل الروح ، مجتمعة ومتألِّقة في ذِروة تجلِّيها وظهورها ، هكذا تكون الصدِّيقية .. وهكذا يكون صدِّيق بني أُمية !!

لقد أفاءت المسئوليةُ على عمرَ التوفيقَ الذي سما بفضائل روحه - من ورَع وزهد ، وطهر ونُسُك - إلى أعلى مستوياتها ، ومِن ثَمَّ فقد كانت المسئولية سببًا مباشرًا لظفَره بالصديقية والقداسة ، وهذا جوهر إعجازه الفريد ؛ فإن المُلْك الذي يُغري بكلِّ شيءٍ ، إلَّا بالقداسة والصدِّيقية ، هو الذي كان - وكانت مسئولياتُهُ الجسام - مرقاة رُوحه الطاهرة العظيمة ، توقَّلَتْه في لمح البصر إلى فردوس القداسة ومكانة القِدِّيس الصدّيق !!

« وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلًا ، وتبهرنا كثيرًا .. أما هذه العبارة فها هي ذي : « .. ثم بُويع عمر بن عبد العزيز ، فقعد للناس على الأرض » . إن طهر عمر وصدِّيقيَّته وضعت الوسيلة في مستوى الغاية ،

فلا يَعْنيها بلوغ الغاية إلّا بالقدر الذي يَعْنيها طُهْر الوسيلة ..

وجوهر الحكم : الخضوع المطلَق لحقوق الناس ، ومكان الحاكم بين أيدي الناس ، وليسوا هم الذين بين يديْه ... والشكل الذي رآه عمر مُلائِمًا للتعبير عن هذه الحقيقة ، هو جلوسه للناس على الأرض .

وكان الجلوس على الأرض من ناحية الشكل ، أقصى مظاهر الخضوع ، ومضمونه أقصى مظاهر الالتزام .. ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لا يفصله عن ترابها سوى حصيرٍ متواضع .. قعد على الأرض ، ليهدمَ كلَّ ما للسلطة من بذَخٍ واستعلاء ، وليُنزلها عن عرشها الصَّلِف وكبريائها الزائفة ، إلى أرض البساطة والتواضع والمرحمة !!

هذا صِدْق رجلٍ أراه الله مناسكَه ، فهو يرى بنورٍ من ربه .

وهل يُتصوَّر مِن طهر خاشعٍ ناسكٍ أن يقول : « إني أرى أن أجعل هذا المال في أكباد جائعة ؛ فإنها أولى به من الكعبة » ... إنه صِدْق يُحدّق في الجوهر ، ويضع على همِّه سمْعَه ، ويتتبَّع مواقع الحقِّ ، كما يتتبع الطيرُ مواقعَ النَّدى .

صِدْق أُتيح له أن يُحدِثَ تغييرًا من أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير !!

وطهر أتى الحياة ومعه الزهد والورع ، والتُّقى والعدل والرحمة ، بعد ما حسب الناس أن الدنيا فرغت منه إلى الأبد .

وقداسة لم تكدْ تجلس للناس على الأرض حتى أنبتتِ الأرضُ عدلًا ورحمةً ، وأمطرت السماء عدلًا ورحمةً .. ورعى الذئبُ مع الشاة ، في تآخٍ وسلام !!

لقد أنجز الصدِّيق عمر كلَّ هذا التغيير بمنهج بالِغِ الإعجاز : العدل والحق .. والشورى .. وخدمة الحاكم ليلًا ونهارًا لرعيته ، وحفظه لأموال المسلمين..

عاد يومًا إلى داره ليلًا فلمح بناته الصغار ، فسلَّم عليهن كعادته ، وبدلًا

من أن يسارعْنَ نحوه بالتحية .. رحن يغطِّين أفواههنَّ بأكُفِّهنَّ ويتبادرنَ الباب، فسأل : ما شأنهن ؟ فأُجيب بأنه لم يكن لديهنَّ ما يتعشَّين به سوى عَدَس وبَصَل ، فكرهنَ أن يشمَّ من أفواههنَّ ريحَ البصل، فتحاشينه لهذا، فبكى رحمه الله، وقال يخاطبهنَّ : « يا بناتي ، **ما يَنفعُكنَّ أن تعشَّينَ** الألوان والأطايب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار » ؟

عن قوباء بن دبيق ، قال : مرَّتِ ابنة لعمر بن عبد العزيز ، يُقال لها : أمينة ، فدعاها عمر : ياأمين يا أمين . فلم تجبْه ، فأمر إنسانًا فجاء بها ، فقال : **ما منعك** أنْ تجيبيني ؟ قالت : إني عارية . فقال : يا مزاحم ، انظرْ إلى تلك الفِراش التي فتقناها ، فاقطعْ لها منها قميصًا . فذهب إنسان إلى أمِّ البنين (عمتها) ، فقال : ابنة أخيك عارية ، وأنت عندك ما عندك . فأرسلت إليها بتخْتٍ من ثياب ، وقالت : لا تطلبي من عمر شيئًا .

وعن سليمان بن حبّان ، أن عمر بن عبد العزيز قال لبنيه : أتحبُّون أنْ أُولِّيَ كلَّ رجل منكم جندًا ، فينطلق تصلصل به جلاجل البريد ؟ فقال ابنه (ابن الحارثية) : لِمَ تعرِض علينا شيئًا لستَ صانعَه بنا ؟ فقال عمر : إني لَأعلم أن بساطي هذا يصير إلى بِلًى ، وإني لَأكره أَنْ تدنِّسوه بخِفَافِكم،فكيف أُقلّدكم ديني تدنِّسوه في كلّ جندٍ ؟!

مسئولية القدوة لا تنحصر فيه وهو الخليفة والحاكم ، بل تنال أهله جميعًا حتى بُنَيَّاتِه الصغار ...

خليفة ... حتى ولي الخلافة كانت غلَّته أربعين ألف دينار ، فحين مات كانت غلّته مائتي دينار ، ولو بقي ، ردَّها !! .

خليفة.. ما ترك بني مروان وبني أُمية يتبذَّخون باسمه، ويتخذون من قرابته ملجأ ومَغْنمًا وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعًا على طريق العدل والحق ، مصفِّيًا ترفهم المنهوم .

خليفة ... كان وُلاته - أمثال أبي بكر بن حزم ، وعبد الرحمن القشيري ، وعدي بن أرطاة - يسهرون على مسئولياتهم في ولاء صادق ، تقودهم على طريق سيرة خليفتهم التي كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء ، وعبيرُها يفوح ويهبُّ هبوبَ الرياح والبُشْرَيات !!

لقد راحوا وهم من أهل القرآن يخجلون من أنفسهم، حين يتذكَّرون خليفتهم في حياته الشظفة ورقاعِه البالية ... يكتب إليهم فيقول : « كونوا في العدل والإصلاح والإحسان، بقدر ما كانوا من قبلكم في الظلم والفجور والعدوان » .

ويُرسل إلى أحد وُلاته : « قد كثر شاكُوك ، وقلَّ شاكروك .. فإمَّا اعتدلتَ ، وإما اعتزلتَ » .

قد كان هذا الخليفة الناسك الإمام ، يضع ذاته كلها فوق الميزان ... فكل حركاته وكلماته وقراراته ومشاعره لتتحرك بقَدَر معلوم .

يكتب إلى أحد عمَّاله وولاته : « أمَّا بعد ؛ فإنَّ من ابتلي من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتُلي ببليَّة عظيمة !! فنسأل الله عافيته وعونه . وإني أدعوك أن تقف نفسَك في سرِّك وعلانيتك، عند الذي ترجو به النجاة من ربك .. تذكَّرْ ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولَّى صلاحَه غيرُك ، ولا يمنعكَ من ذلك قولُ الناس ، وكُن لمن ولَّاك الله أمرهم ناصحًا في دينهم وأعراضهم .. واسترْ كلَّ عوراتِهم ، واملِكْ زمامَ نفسك تجاههم ، إذا هويتَ وإذا غضبتَ » !!

لله درُّه !! لقد راحت أضواءُ صدِّيقيَّته وقَداسته وقدْوته وعلو همَّته ، تتعالى وتتعاظم ، حتى كانت مناراتٍ هادية وسَّعتِ الدولة كلَّها والأمة جميعها ، بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق .

وانظر إلى العجَبِ العُجاب ، وصبغة الله ومعجزة الإسلام .. انظر إلى العظمة

وإلى الهمَّة في ذُراها السامقة ، حين يحثُّ الناس على الأمر بالمعروف ونقْد الولاة ... واستمطِرِ الدمع من عينيك في إجلال ، حين تنظر إلى منشوره الذي يُقرأ على الناس في المواسم والمحافل والمجامع :

«أما بعد؛ فأيّما رجل قدِم علينا في مظلمةٍ نردُّها ، أو أمر يُحيي الله به حقًّا أو يُميت باطلًا ، أو يجيء بخير ، فله منَّا ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار .. بقدر ما يتكاءده في ذلك ، من طول السفر وبُعد الشُّقَّة » .

وانظرْ إلى العجَبِ العُجَاب :

بلغ به التعب يومًا أَشُدَّه ، فسأله بعض خاصَّته أنْ يُريح نفسه ، فقال : ومَن يُجزى عني عمل اليوم ؟ فيقولون له : تنجزه في الغد . فيجيب : لقد فدحني عمل يوم واحد حتى سألتموني أن أُريح نفسي ، فكيف إذا اجتمع عليَّ عمل يومين ؟! **إن لكل يوم مزدحمَه وأحماله.. حسبي عمل يوم في يومه، فكيف بعمل يومين في يوم ؟!** قالوا له : كان سليمان بن عبد الملك يركب ويتروّح ، وهو في ذلك مُجزى . فقال عمر : ولا يوم واحد من الدنيا يُجزيه .

هو بالنسبة للملايين التي تنتظمها دولته الواسعة ، نداءُ النجدة .. لا تهتف به حاجة فردٍ ولا مظلمة مظلوم في أدنى الأرض وأقصاها ، إلا أَلِفْتَهُ وكأنه في انتظارها وحدها !!

ويتسع قلبه الكبير وعَزْمه القدير لكل شيء ، وصغار الأمور عنده مثل كبارها ، فانظر :

كتبتْ إليه سوداء مسكينة تُسمَّى : « فرتونة السوداء » من الجيزة بمصر ، أن لها حائطًا متهدِّمًا لدارها ، يتسوَّره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مالٌ تُنفقه في هذا السبيل . فيكتب عمر إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل» : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيُّوب بن شرحبيل ؛ سلام الله عليكم . أما بعد ؛ فإن فرتونة السوداء كتبت إليّ تشكو إليَّ قِصَر حائطها ، وأنَّ دجاجها

يُسـرَق منها ، وتسأل تحصينه لها ، فـإذا جاءك كتابي هذا ، فاركـبْ بنفسك وحصّنه لها » .

وكتب إلى فرتونة :

«من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء: سلام الله عليكِ ؛ أما بعد ؛ فقد بلغني كتابُكِ ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك ، حيث يُقتحـم عليك ويسرَق دجاجك .. وقد كتبتُ إلى أيوب بن شرحبيل ، آمـره أن يبني لك الحائط حتى يحصِّنه مما تخافين ، إن شاء الله » .

يقول ابن عبد الحكم راوي هذه القصة الباهرة : « فلما جاء الكتاب إلى أيوب ابن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظلّ يسأل عن فرتونة حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلى لها حائطها » .

رحمةٌ وإحسان وعدل وأُبُوَّة ، لا يفلت منها شاردة ولا واردة !!

ويكتب عمر لواليه على مصر أيضًا : « أما بعد ؛ فقد بلغني أن الحَمّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تُطيق .. فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يُحمَل على البعير أكثر من ستمائة رطل » .

وفي الشورى .. كان نسيجَ وَحْدِه :

وفي عصره كانت الشورى خالصة صادقة، والرأي العام ناصحًا وصادقًا وشجاعًا .. ويتبين هذا ويُسفرُ كالشمس في أسلوبه في الحُكم ، واختيـار وُلاته وبطانته ، واستعداده لقبول النقد وسماع كلمة الحق ، ونظرته إلى الأمة التي يحكمها ، ومدى ولائه لحقوقها وحريَّتها .. بهذا المعيار والمِسْبار يقف عمر بن عبد العزيز كأنه نسيجُ وحدِه !!

لقد أحاط نفسَه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، والذين لا يُزيِّفون اقتناعهم ، ولا يَلبسون الحقَّ بالباطل وإنْ قُطعتْ منهم الرقاب .

فأيُّ علوٍّ فوق هذا النهج الراشد السديد ، الذي مكن للشورى تمكينًا تكاد تتقطَّع دون بلوغه أنفاس كلِّ الحكَّام .

« **وموقفهُ مِنْ مالِ الأُمَّةِ عجيبٌ ثمَّ عجيبٌ !!** » :

وقد مرَّ بنا كيف أنَّ مال الأمة له في فؤاده الذكي التقي حُرْمةٌ ، أيّ حُرْمة !! وإجلال أيّ إجلال !! فرضي الله عن ذلك الخليفة المُقْسِط العظيم .

كتب إلى واليه على اليمن « عروة بن محمد » : « أما بعد : فقد كتبتَ إليَّ تذكُر أنك قدِمتَ اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخَراج ، ثابتة في أعناقها كالجزية ، يُؤدُّونها على كلِّ حال ؛ إن أخصبوا أو أجدبوا .. إن حَيُوا أو ماتوا .

فسبحان الله ربِّ العالمين !! ثم سبحان الله ربِّ العالمين !!

إذا أتاك كتابي هذا ، فدعْ ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحقِّ .. واعلمْ أنك إن لم ترفع إليَّ من جميع اليمن إلّا حفنة من كَتم[1]، فقد علم الله أني سأكون بها مسرورًا ، ما دام في ذلك بقاء على الحق والعدل ».

وهكذا أُتيح لعمر أن يحوِّل شهقات البائسين إلى بسَمَات متهللة ، وفرحٍ غامر .

وراح يكتب إلى وُلاته : « لا بدَّ لكلِّ **مسلم مِن مسكنٍ** يأوي إليه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوَّه ، وأثاث في بيته ، فوفِّروا ذلك كلَّه .. ومن كان غارمًا فاقضوا عنه دَيْنه » .

وراح المبارك الميمون يُنشئ في طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل .

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشَّعْر ، ويُصنع منه مداد للكتابة .

يأمر لكل مريض بخادم على حساب الدولة .. يفتدي أسرى المسلمين جميعًا .

لقد أُخبر أنَّ مقاتِلًا شديدَ البأس ، قد وقع أسيرًا في أرض الروم ، فحُمِلَ إلى إمبراطور الروم ، فحاول إكراهه على الخروج من الإسلام ، ورفَض الأسير ، فأمر الإمبراطور أن تُسمَل عيناه ... فيكتب عمر رضي الله عنه إلى ملك الروم : «أما بعد؛ فقد بلغني ما صنعتَ بأسيرك فلان.. وإني أُقسِم بالله، لئن لم ترسِله إليَّ من فورك ، لأبعثنَّ إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي » !!

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله !!

يكفل اليتامى الذين لا عائِل لهم ، ويفرِض لكلِّ مولود .

يا ابنَ عبد العزيز يا عمرَ الخيْرِ	رتبتكَ الخلائقُ الصالحاتُ
أنتَ مَن ألبسَ الخلافة يومًا	ودعتْ في بقائك المُرمِلاتُ
قد أتتْكَ الخلافةُ البكرُ تسعى	وكرامٌ جاءتْ إليكَ حُفاةُ
ثم فارقْتها وربُّك راضٍ	عنك واسترحمتْ لكَ السكراتُ
رَفْرَفَتْ رايةُ العدالةِ سعْدًا	واستُلهِمَتْ من كفِّك الصدَقاتُ
عفو عُلياكَ أنْ تُسجِّمَ دمعي	فأنا راثيا وغيري بُكاةُ
أنتَ ابنُ الفاروق جدَّدتَ عهدًا	أخفتتْ نسْجَ ثوْبِهِ السنواتُ[1]

وعندَ الموتِ مَوْقفٌ لهُ جَلالٌ :

لما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر ، دخل عليه مَسْلمة بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أقفرتَ أفواهَ ولدك من هذا المال ، فتركتهم عيلةً لا شيء لهم ، فلو أوصيْتَ بهم إليَّ وإلى نُظَرائي من أهل بيتك . وفي رواية

(١) « سيرة الأبطال » شعر لعائض القرني صـ٢٢ - ٢٣ - دار جرش للنشر والتوزيع .

أُخرى : يا أمير المؤمنين ، ألا توصي ؟ قال : وهل من مال فأوصِي فيه ؟ فقال مسلمة : مائة ألف أبعث بها إليك ، فهي لك ، فأَوْصِ فيها . قال : فهلَّا غيْر ذلك يا مسلمة ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : تردُّها من حيث أخذتَها . قال: فبكى مَسْلمة وقال : رحمك الله ؛ لقد ليَّنتَ منا قلوبًا قاسية ، وزرعتَ في قلوب الناس لنا مودة ، وأبقيتَ لنا في الصالحين ذكرًا . قال عمر : أسندوني . ثم قال : أمَّا قولك أني أقفرتُ أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله إني ما منعتُهم حقًّا هو لهم ، ولم أُعطهم ما ليس لهم . وأما قولك : لو أوصيتَ بهم إليَّ وإلى نظرائي من أهل بيتك . فإنَّ وصيِّي ، ووليِّي فيهم: الله الذي نزّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين .. بَنيَّ أحدُ رجلَيْن : إما رجل يتقي الله ، فسيجعل الله له مخرجًا ، وإما رجل مُكِبٌّ على المعاصي ، فإني لم أكن أُقوِّيه على معصية الله . ثم بعثَ إليهم ، وهم بضعة عشر ذكرًا . قال : فنظر إليهم فذرفتْ عيناه فبكى ، ثم قال : بنفسي الفتْيَة التي تركتُهم عيلةً لا شيء لهم ؛ فإني - بحمد الله - قد تركتُهم بخير . أي بَنيَّ ، إنكم لن تلقوا أحدًا من العرب ولا من المعاهدين ، إلّا أن لكم عليهم حقًّا . أي بَنِيّ ، إن أباكم ميَّل بين أمرين : بيْن أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار . قوموا عصمَكم الله .

عن عبيدة بن حسان، قال: لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: اخرجوا عني، فلا يبقى عندي أحد. قال: وكان عنده مسلمة بن عبد الملك. قال : فخرجوا ، فقعد على الباب هو وفاطمة . قال : فسمعوه يقول : مرحبًا بهذه الوجوه ، ليست بوجوه إنس ولا جانٍّ . ثم قال : ﴿ **تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يُريدون عُلوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣]. قال : ثم هدأ الصوت ، فقال مسلمة لفاطمة : قد قُبض صاحبُك . فدخلوا فوجدوه قد قُبض وغمض وسوى .

مات الخليفة الذي قال : إن لله شرائع وسننًا ، إن أعِش أعلّمكموها وأحملكم عليها .. وإن أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص .

وبكاه الجِياعُ الذين شبعوا، والعُراة الذين اكتسوْا، والخائفون الذين أمِنُوا، والمستضعفون الذِين سادوا ... واليتامى الذين وجدوا فيه أباهم ... والأيَامَى اللائي وجدْنَ فيه عائلَهنَّ .. والضائعون الذين وجدوا فيه ملاذهم .. والتائهون الذين وجدوا فيه دليلَهم .

والعجَبُ كلّ العجَب أن يَبْكِيَهُ أعداؤُه :

وقبل موْته يُرسِل إمبراطورُ الروم كبيرَ أساقفته - وكان بالطبِّ خبيرًا - ليطبِّب الخليفة العادل ، والصدّيق الجليل ..

وحين مات عمر بكاه « ليو الثالث » بكاءً مُرًّا ، أذهل الحاشية والأساقفة ، وسألوه فأجابهم بكلمات هي أصدق وأجمع ما قيل في رثاء أمير المؤمنين : « مات والله ملك عادل ، ليس لعدلِه مثيل !! مات الرجل الصالح ... لَأحسبُ أنه لو كان أحد يُحيي الموتى بعد عيسى بن مريم ، لَأحياهم عمر بن عبد العزيز . ثم قال : إني لستُ أعجب من الراهب أن أغلَق بابَه ورفضَ الدنيا ، وترهَّب وتعبَّد ، ولكن أعجب ممَّن كانت الدنيا تحت قدميْه ، فرفضها وترهَّب » .

وعن الأوزاعي قال : شهدتُ جنازة عمر بن عبد العزيز ، ثم خرجتُ أريد مدينة قنسرين ، فمررتُ على راهب فقال : يا هذا أحسبُك شهدتَ وفاة هذا الرجل . قال : فقلتُ له : نعم . فأرخى عينيْه فبكى سجامًا ، فقلتُ له : ما يُبكيك ولستَ من أهل دينه ؟ فقال : إني لستُ أبكي عليه ، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطُفِئ .

لقد عايش الخليفة الراشد والمجدِّد الجليل فترة خلافته ، تسعة وعشرين شهرًا ، وكأنها تسعة وعشرون قرنًا !!

في كلِّ دقيقة ، كانت عافيته تُعطي جهدَ عام ...

إن التغيير الهائل الذي أراده للدولة والأمة ، كان يتطلب - لو سارت ريحُه رُخاءً - جيلًا أو جيلين ، فـأبى إلَّا إتمامَه في الأيـام الباقـية له على الأرض ، وبين الناس ..

وأيُّ تغيير كان ؟ إنه تغيير لا يتطلب خليفة واحدًا ، بل عشرات من الخلفاء ..

إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد ، عصر الوحي والنبوة .. ثم هو لا يريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع فحسب ... بل إلى أفئدة الناس وضمائرهم وسلوكهم .

كم من شريعةٍ حقٍّ قدْ نعشتَ لهمْ   كانت أُميتَتْ وأخرى منكَ تُنتظَرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدين معي   على العُدولِ التي تغتالُها الحُفَرُ
لو أعظمَ الموتُ خلقًا أنْ يُواقِعَهُ   لِعَدْلِهِ لمْ يُصِبْكَ الموْتُ يا عمرُ

ويرحم الله ابن عائشة ، حين قال في عمر :

أقول لمَّا نعى الناعُون لي عُمَرًا   لا يبعدنَّ قوامُ الحقِّ والدينِ
لمْ تُلهِهِ عُمرَهُ عينٌ يُفجِّرها   ولا النخيلُ ولا ركْضُ البرَاذينِ
قدْ غادرَ القومَ في القبرِ الذي لحدوا   بديرِ سمعانَ قسطاسُ الموازينِ[1]

* * *

(١) الترجمة كاملة من كتاب « عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، وكتاب « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد .